عَبَك الطِيب

بدأت يوم 3 اغسطس 2015

عمرو محمد عباس محجوب

ماذا تريد، وأنت سَيِّدُ روحنا
يا سَيِّدَ الكينونة المتحوِّلَهْ؟
يا سَيِّدَ الجمرهْ
يا سَيِّدَ الشعلهْ
ما أوسع الثورهْ
ما أضيقَ الرحلهْ
ما أكبرَ الفكرهْ
ما أصغرَ الدولهْ....!

مديح الظل العالي: محمود درويش

سرنا نفس الطرقات مرة وأخرى ولم نصل. أحلام منكسره، أمال ضائعة وإمنيات لم تتحقق. ساروا أيضاً في نفس الطريق، وحملوا نفس الاحلام:

إليهم.

رنت ثلاث هواتف من ست ملقاة على طاولة طويلة، عليها جوخ أزرق فاتح، اطرافه موشاة بلون أزرق اغمق. قاعة واسعة مذهبة الجدران وفخمة. هناك لوحة ضخمة معلقة في أحد الجدران. لون الحائط بيج والارضية من لون كريمي. على الجانب البعيد تربيزة فخمة، ذات لون أزرق، وموشاة بارابيسك ذات لون أزرق اغمق. على الأرضية سجادة طويلة وعريضة يغلب عليها اللون الأزرق على أرضية بيج واسود. علقت على الحوائط الثلاث الباقية شاشات عرض تلفزيوني كبيرة. يتحكم فيها شخص جالس على الطاولة الكبيرة، تعرض مشاهداً مختلفة.

إمتلأ وادي أزوم وتمددت ضفتاه وانشرق بالماء. قوة المياه الجارية المنحدرة من جبل مرة، تقتلع الأشجار، تسحب الصخور وتنحر الجوانب. الشجيرات تنحني مع المجري وبرفق تمرر المياه. يرفد الوادي، وادى بارى ووادى نيالا ووادي بلبل. ينطلق المهاب العظيم بكل إمتداده الشموخ في طريق طويل، تسح من دموعها الثقال على الحراز، الهشاب، الخروب والسيال لمتاهات الغروب في تشاد.

نامت فاشر ابو زكريا على ضفاف التردة وقد امتلات. تدفقت المياه من خزانات وادي قولو الذي يزود المدينة بالماء النقي. بدأ الضجيج يعم السوق الكبير، بدكاكينه ومقاصفه، تصاعدت أصوات الباعة في سوق المواشي بانواع اللحوم، في سوق أم دفسو نشط باعة الفواكه المنتجة في منطقة جبل مرة، الكول، المريس، عسل الجبل والسمن الطبيعي. ضج سكان معسكرات أبوشوك، زمزم والسلام، تدافعت الركشات والمواتر وسحب الدخان من أكواب الشاي الساخن. ضمخت الاجواء رائحة بن لاذعة.

تمطى ادم الطاهر ولم يفرغ بعد من النوم. سرح وراء الجمال طوال سنين في دار زغاوة من الطينة، لساق النعام، وحتى داخل تشاد واقترب احيانا من الحدود الليبية في اراضي الجزو. جاء للفاشر واعطوه مرتبة اسفنجية ومخدة وتكرموا عليه ببطانية لقرب دخول الشتاء. من هنا سوف يبدأ رحلته إما إلى الثراء عبر خير قليل مستديم أفضل من خير كثير متقطع، او تأخذه روح المغامرة وينضم لاحد الحركات.

صباح نيالا مشمس ودافيء. امتلأ وادي برلي عن اخره وتدفق على الشوارع الواطئة. شاطيء الوادي مسبح ضخم للابقار، الجمال والاغنام، كلاب فرحة تدخل وتخرج، نساء يغسلن الثياب، كاروات نقل المياه تملأ المكان واطفال يلعبون. أصوات طلقات وزخات رصاص تتصاعد بين حين وآخر، اصبحت جزءاً من أصوات المدينة وايقاعاتها. على الغابة الجانبية للوادي رحلات وعلى الأشجار علقت الذبائح. دفنت القنبلة (حشوة الكبدة والكلاوي في مصران الخروف) في الحفر لتنضج ورائحة الشواء تتصاعد. يجهزها خبراء المناصيص.

مطار نيالا تحرسه دبابة خارج المطار ورتل من الجنود. الكهرباء مقطوعة في المدينة لأيام طويلة لعدم وصول الوقود، لضرب المعارضة للقطار حامل الوقود او غير ذلك. تتصاعد

أصوات الجنريترات وتضيف لضجيج السوق ووعثائه. الوان متعددة، البرتقال الأصفر، الأخضر والبرتقالي، الكركدي، العدس، البصل الأبيض والاحمر، ام نويويرة خضراء باسقة وفجل بنفسجي وأبيض، فسيفساء من الألوان. طلاب وطالبات في أزياء مختلفة يتقافزون على الطرق الرملية. سود لامعين، زرق، لون زينب، خضر، قمحيين وبيض. تاتشرات بها ملثمون مسلحون تأز مسرعة في الطرقات ناشرة ورائها الرمال الناعمة الدقيقة. الشارع الوان ملابس صارخة، بائعات الخضار، جامعات القمامة، الطُلبات يحملن الاسمنت، الخرسانة والطوب علي اكتفاهن وراكبات الحمير.

في معسكرات كلمة، عطاش، السريف والسلام، يوم توزيع حصص الطعام، صفوف تتلوى، نساء يصرخن، اطفال يلعبون ويحركون جركانات بلاستيك متعددة اشكالاً والواناً. عربات المنظمات تدخل وتفرغ شحناتها وتخرج. رجال امن يحملون سياطاً ينظمون الصفوف وبعضهم يجلسون ويتناولون أقداح الشاي الساخنة. المدينة زاهية بالوان الحشائش وقد اخضرت اشجارها. جبل نيالا يطل على المدينة مزهواً بلونه الاجرد.

قلب الشخص الريموت من حكايات الغرب النائي، احداثه المتلاحقة من السلب والنهب، عيون العالم المفتوحة عبر الاقمار الصناعية، مقتل مزارع هنا وكمين لمجموعة مسلحة. على الشاشة مجموعة من رجال في بدلات انيقة في احدى قاعات الاجتماعات في الدوحة يناقشون ميزانية مشروع ما.

أعمدة كبري حنتوب تغوص عميقاً في النهر. يطل فندق إمبريال ببهاء ورقي وجمال عليها. الرواكيب على جانب الطريق تتصاعد منها رائحة الشواء، البن الطازج والبخور. تمتد النشيشيبة في طرفها الشمالي جزءاً من جامعة الجزيرة. أعياها النضال مدني، وحنتوب الجميلة. مقصد العرسان من الكونتنتال، ام بارونة، شارع النيل، حديقة الحرية، جزيرة الفيل وجلسة يا مولاي في حديقة نادي الجزيرة.

لو حظي يسمح ويسعدني طوفه فد يوم بربوع مدني. الحي السوداني، المنيرة، الزمالك، الهوارة، المطار، الملكية، الدباغة، جزيرة الفيل، ود أزرق، بانت، حنتوب ، جبرونا، دردق، شندي فوق، بركات. **قدلة يا مولاي حافي حالق** في مارنجان، حلة حسن، عووضة، حبيب الله، أركويت، حي الموظفين، السكة حديد، المطار، السنيط، حي مايو، ناصر، حلة المكي، القلعة، حبيب الله، أم سنط، والكريبة.

ود مدني، مدني السُني، ومدني الجزيرة مدينة الفن والفنانين. ابراهيم الكاشف، عوض الجاك، الخير عثمان، محمد الامين، علي المساح، رمضان حسن، رمضان زائد، ثنائي الجزيرة، عبد العزيز المبارك، ابو عركي البخيت، التاج مكي، محجوب عثمان، محمد مسكين، محمد سلام، صديق متولي، صديق سرحان، علي السقيد ، عصام محمد نور، عمر جعفر وو.

تهلهلت مزارع المشروع، صمتت صوت مكنات محالج مارنجان عووضة، غاب مفتشي الغيط من كافة أرجاء الجزيرة يوم الخميس بعرباتهم اللاندروفر والموريس ماينر، تمطت المدينة وأشرعت حجارتها عمارات تخترق سمائها، ذبلت اشجار الحي البريطاني، صمتت أصوات

العود والكمان ونقرات الطار. لا أحد يدري بنادي الخريجين، او مكتبة الفجر. اعدمت المدينة ولازالت مدينة اشباح.

نظر الشخص للتلفونات التي رنت، صنفها حسب الاهمية بسرعة ورد: **كل شيء مطمن سيادتك.**

نمت الشوقارة خضراء غضة تشق أديم الأرض مع أول رشة مطر. تسقي الأرض من كل عام أو خريف. حشائش ناضرة لها قيمة كبيرة عند البقارة حيث يستبشرون بها ويقولون (الخريف الليّن من شواقيرا بيّن) وتكسو الأرض ثوباً أخضراً زاهياً. سوف يسعدون بها وتسعد ابقارهم فيغنون لها القصائد الطويلة:

فجُر بقولن باح وعشّية بقولن باح
ستات المسقي البتبكي مع الصباح
الشرب لبنهن برقد باله مرتاح
وسيدهن كان ورل بقولوا فلان تمساح

سعدت الأبقار وناحت وتقلبت في مياه البركة. خريف مبشر ونسائم عليلة. كلاب نشطة تتلاعب بالماء وتعوي فرحاً. تصاعدت روائح القهوة الطازجة من كل الرواكيب. تقافز اطفال حول البرك واختلطوا بالماء، وداعبوا الأبقار والماعز. تناثرت الرواكيب والخيام وسط ابسطة الخضرة الممتدة. أطل صباح ناعس وثلة نساء جميلات تهادن في إتجاه البئر. سحائب صغيرة من الدخان ورائحة العصيدة. ضحكات مسروقة من فتيات يختلسن النظر لشاب من الغربة جاء وعليه رداء الصحة والعافية.

دخل عدة اشخاص إلى الغرفة، وهم يحدثون ضجيجاً عالياً. بزاتهم مكوية بعناية وعلامات نحاسية لامعة تتراقص على كتوفهم. قصار وطوال، سود وفاتحي اللون، نحاف واحدهم سمين حتى تدلى كرشه رغم الحزام، لكنهم كلهم ذوي وجوه متجهمة، لا تثبت البسمة مهما صغرت على الوجه. بسرعة دخل اشخاص يحملون قوارير المياه الباردة، ترامس الشاي والقهوة وسرعان ما احضروا الساندوتشات. في معية كل منهم شخص يحمل شنط جلدية متنوعة..

جلسوا بعد أن تناولوا كل ما جاء وفتحوا حقائبهم، أخرج كل منهم ملفاً سميكاً بحجم الميزانيات التي طلبوها. كل منهم قد ضاعف الميزانية بمثلين، لعل وعسى يخرج منها بما يريد. اعطاهم المراقب تقييمه للوضع ولم يكن ملائماً لهم. هم يتحدثون جميعاً عن وضع استثنائي سيواجهونه. وهو يصر أن الوضع مطمن. سألوا مديره عن كفاءته: **ده بشم الشيء قبل يحصل، بعدين شايفين الأجهزة دي من حلفا للجبلين ومن الجنينة للقلابات.**

نزل من البرادو المظللة، لون الجلباب شديد البياض، والعمة كذلك ولها اطراف موشاة باللون الاصفر المائل للذهبي والشال كذلك. تفوح منه رائحة باريسية عطرة تنتشر في الاجواء. طوال الخطبة تحدث عن الاخرة. جال وجاس عن عذاب القبر، القيامة واهوالها، الحساب والعقاب وافضال الحياة الاخري. عند نهاية حديثه تهدج صوته، فاضت عيونه وجرى دمعه. أخرج منديلاً معطراً من ماركة فان هوسن، مسح الدموع ونادى على الصلاة. الذين قاموا إلى الصلاة كانت

تنتظرهم العربات الفارهة، كل المسجد مغطى بسجاد سميك وناعم. روائح فهرنهايت، دولسي فيتا، بلو دي شانيل، هوغو بوس، فرساشي دو اوم، قوشي وغيرها تختلط في أرجاء المكان.

سفن قليلة تقف في الميناء الممتد من الشيخ برغوث إلى مباني سلاح البحرية، وسفينة واحدة في الرصيف الجنوبي. هناك سفينتان ترسوان قبالة خور كلاب. مبنى المديرية القديم، النادي العالمي، الفندق الكبير ومسبح المدينة مزهو على شاطيء البحر الأزرق المخضر الهاديء. غربان المدينة تحط من مكان لاخر، لا سيما فى حديقة البلدية، تواصل رحلة بحثها عن الطعام الشحيح. سينما الخواجة محطمة، آثار حديقة صارت مكانها برج إسمنتي.

شاشة العرض لا تقترب من حرقة بورتسودان التي لا تندمل من قتلى ال29 من يناير 2005. تقدم المتظاهرون بمذكرة لوالي البحر الاحمر، تضمنت عدد من المطالب بينها الاعتراف بمؤتمر البجا، الحامل للسلاح وقتها، كممثل للشرق وتوظيف الخريجين، واقالة مدير الموانى في حينها. واجهت الحكومة المتظاهرين بالرصاص الحي وقتلت 27 مدنياً.

يوم 3 سبتمبر 2013 طالب مؤتمر البجا في مؤتمر صحفى عقده بالخرطوم، بتعيين مدعى عام وطنى للتحقيق فى مجزرة بورتسودان. صادرت السلطات الأمنية ثلاث صحف على خلفية إبراز الصحف مطالبة رئيس حزب مؤتمر البجا موسى محمد بهذا. إعتقلت الأجهزة الامنية في نفس الأيام أربعة من شباب بورتسودان وذلك على نفس الخلفية. الشباب تم تكليفهم من قبل مؤتمر البجا بدعوة الجماهير وحثها للاشتراك فى إحياء ذكري شهداء مجزرة يناير، تحت شعار إقامة دولة الديمقراطية، الحرية، العدالة والمساواة.

سجل الشخص كل التحركات التي ترتبط بقضية بورتسودان، ادخلها في مظروف ورقي كاكي، كتب عليها عاجل وسري بالقلم الاحمر وارسلها للمعنيين.

سمعوا أزيز الطائرات قبل أن يروها. بين الوقتين رافقت أم عوض كوكو احفادها إلى جحور الجبال. رمت معاطفها الجبال و خبّأتهم. سوف تقلق زوجة أبنها لأن زوجها في الوادي لحصاد العيش. طمنتها أنهم يعرفون ما يجب أن يفعلوا. الحرب طقس يومي، تئز الطائرات وهم يعلمون أن هناك من يقنص لها في اعالي الجبال وهم يحملون الرشاشات الكبيرة، لعل احداها تجيء منخفضة. الطائرات تجيء صبحا، ظهراً، في اثناء رقصهم تجيء وفي اعراسهم تظهر. الطائرات تقصفهم وتمضي عائدة، فيلملمون جراحهم ويمضون في حياتهم.

يقدم فيلم **"على إيقاع الأنتنوف"** لمحة غير اعتيادية عن المواطنين تحت وطأة الحروب. يتم تناول الجدل المتعلق بالهوية السودانية بلغة الفن والثقافة العالمية بدلاً من لغة سياسة القوة، ويوضع في متناول المواطنين بلغة ووسيلة يمكنهم التفاعل معها. تُروى قصة هذا الفيلم الوثائقي من قبل سكان مخيم اللاجئين القادمين من جبال النوبة وولاية النيل الأزرق مما يقدم تحليلاً جديداً للموضوع الذي عادة ما يتم تحليله من وجهة نظر أجنبية. وقد جسّد الفيلم العادات والقيادات الدينية أيضاً عاكساً بذلك التنوع الديني في المنطقة.

يقول حجوج كوكا مخرج الفيلم الحائز جائزة أفضل فيلم وثائقي في مهرجان تورنتو السينمائي

الدولي: **أن الفيلم يشتغل على الهوية، الموسيقى والحرب في السودان، مشيراً إلى أنه يحاول أن يقول أن الهوية العربية الإسلامية التي يفرضها النظام على السودانيين هي جزء من التنوع الكبير الذي يزخر به السودان وليست الوحيدة فيه وأن هناك من هم غير عرب ولا مسلمين في السودان.**

"أشعر أنهم سيكونون أكثر تفاعلاً مع مواضيع الهويّة، خاصّةً في مدينة الخرطوم، لأنها المكان الوحيد الذي يشكّل بوتقة إنصهار لكل أجزاء السودان وثقافاته. يوجد الحل في الخرطوم وكذلك كلّ القضايا المهمّة، إنها المكان الذي يجب أن يبدأ منه حوار الهويّة. وتكمّن المشكلة ايضاً في الخرطوم وهي مشكلة الموارد التي تؤخذ لتستفيد منها الخرطوم وتبقى الأطراف مهمَّشة. كمثال: تم إقامة سد على النيل الأزرق لتوليد الكهرباء للخرطوم، كذلك البترول والصمغ العربي من جبال النوبة يتمّ تصديرهم لرفدّ خزينة الخرطوم بالأموال. الناس في جبال النوبة يشعرون أنهم غير مستفيدين من تلك الموارد بينما المستفيدة هي الخرطوم. ثم هناك أيضاً صمت سكّان الخرطوم تجاه إنعدام العدالة؛ جزء من ذلك الصمت سببه الجهل بالحقائق، والآخر نتيجة للعجز وقلّة الحيلة. ببساطة أهل الخرطوم هم الوحيدون القادرون على تغيير هذا الواقع."

ويقول كوكا: **"السينما السودانية انقطعت منذ 25 عاماً لأن النظام هدم البنية التحتية وحارب الفن، لكن الآن ومع التطور التكنولوجي، خصوصاً في فترة ما قبل انفصال الجنوب ظهرت صناعة سينما سودانية بفعل التكنولوجيا الحديثة، أنتج مجموعة من الشباب بجهد ذاتي مجموعة من الأعمال، هذه لبنة أولى لسينما سودانية نتمنى أن تنطلق من جميع أرجاء السودان لأمن الخرطوم وحدها حتى نتمكن من التعبير عن التعدد الثقافي الذي يتمتع به وطننا".**

لم يعجب اجتماعهم التقرير حول الاوضاع، فالقيادة السياسية على وشك أن تتخذ أخطر قرار منذ سنوات. يريدون أن يروا النار تحت الرماد. كل الميزانيات التي يطلبونها هي لتجويد هذا العمل، يريدون كل همسة ونآمة وحركة في البلاد. شاشاته تعرض ما يقومون به في وحداتهم المنتشرة في احشاء المجتمع.

تمد الحكومة البعيدة وتنوي إغراق الارض السوداء. شجيرات النخل الطويلة تهسهس مع الريح، تتمايل وتتثنى وتغني. تتصاعد أصوات بوابير الماء على النيل، وخرير الماء البني تفرز زبداً أبيضاً. الوان شديدة الخضرة، الصفرة وازهار بنفسجية وبيضاء، يداعبها الريح فتستجيب. ركشات، صوالين وبكاسي الباحثين عن الذهب تشق الطرقات الساكنة. بصات سفرية كبيرة، مختلفة الألوان تطلق البوريات المتنوعة، أنغاماً تسري عن النفس.

سوق عبري هاديء على غير العادة. بضع شباب يقتعدون كراسي قهوة فكري ويتجادلون حول سدي كجبار ودال. أحياناً ترتفع الأصوات الغاضبة وسرعان ما تهدأ. النهر معبأ على آخره بمياه سوداء مسرعة الخطى، والوان الرطب النيء والاصفر والاحمر تبدو كلوحة من على البعد في جزيرة ارنتى. تقاسم السيارات الحمير تحت الأشجار الظليلة. البابور الكبير لمشروع عبري الزراعي صامت.

ترددت الكلمة كثيراً في الموبايلات، على صفحات الفيسبوك، الواتساب. الكلمة التي وضعوها على كل اجهزة التنصت والتصوير، فتنقل كالملسوع بين الأجهزة، الشاشات. لم تحتاج لكثير عناء او فك شفرة فقد ترددت بين كل المتحدثين. رنت الهواتف الست في نفس الوقت. دخان

كثيف يملأ الشاشة، يتصاعد لهب اصفر لكن ما افزعه قبضات مطبقة لاشخاص غاضبين.

ضاحية البراري، جاءها اهلها من حلة ارباب العقائد، التي حملت اسم كامل المنطقة التي تحتلها الخرطوم الآن، حملة التهجير التي قادها ونجت باشا كانت بهدف تخصيص أراضي حلة المحس لإنشاء المصالح الحكومية، وفي (1907 – 1908)، كل سكان بري المحس استقروا في المكان الجديد. بعدها قامت بري الدرايسة، في العام (1917)، وسميت المنطقة على أشهر المقاولين في ذلك الوقت مرسال أبو حشيش، بري ابوحشيش وبري اللاماب واضيفت لها كوريا، بري ناصر وامتداد اللاماب.

منطقة البراري هي الاقدم في الخرطوم، اقتطعت منها حي قاردن سيتي وبيوت أساتذة الجامعة وقشلاق البوليس. بري التي ضمت مباني الأساتذة، الكهرباء جامع الشريف الهندي. منازلها ذات لونين، كما كل المدن. لون الطين واللون البيج في المنازل الحكومية، قشلاق البوليس وبعض منازل أثريائها. تحولت لمسخ من الألوان، وقبح كامل من الاثرياء الجدد الذين يريدون التميز بالوان فاقعة.

بيعت منازل أساتذة جامعة الخرطوم، شقت سمائها الهاديء الابراج السكنية والعمارات، فلم تترك لمتوسطي حالها سوى الأختباء من العيون التي تطل عليها من المنازل العالية. إنتهكها مسئولين، ببنايات كما القلاع، عالية الاسوار، تتمطى امامها العربات المطهمة، وتدير جنريتراتها عندما يسود الظلام شوارعها الترابية القذرة. تحول جوارها لاسواق وشوارعها لمراتع السوبر ماركتات، بأنوارها اللامعة، بإبتلاع أرصفتها وأعمدة الاعلانات المغروسة في عرض شوارعها. وضاهى سوق أربعة الذي هو ملجأ الطبقة المتوسطة أسواق الرياض والمنشية العامرة.

خريفنا غادر الابواب وسبتمبر 2013 يتمطى غاذا الرحيل. إتخذت القرارات، بوغت الجميع، وهم أيضاً بوغتوا، لكن السهم كان قد انطلق من كنانته.

ميسرة مقداد الشيخ

الساعة تشير للخامسة صباحاً، عندما طرقوا الباب. فتح ميسرة مقداد الشيخ الباب منزعجاً، متوقعاً، ووجد عربة برادو سوداء مظللة، أشاروا له بالركوب. العربة بلا لوحات كعادة عرباتهم، وناوله أحدهم بندقية القنص خاصته. أعاد تفحص البندقية والذخيرة وأطمئن.

البارحة، تراص رجال انيقون في بدلات وسفاري، الذين ارتدوا الجلاليب زينت رؤوسهم عمامات منقوشة الأطراف، شالات مزينة كما العمامات وبعضهم أثقل كاهليه بعباءات شاعت في البلاد من دول الخليج والسعودية. معظمهم تجاوزوا السبعين. حضر صحفيون تراصوا في المؤتمر الصحفي، ضحكوا وتناولوا العشاء الشهي. أحدهم لخص الوضع: **الله يستر.**

داريا تعرف أبناءها. الليلة تعيد ذكريات الامس. لزموا بيوتهم وحدث حظر تجول بلا قرار. داريا صاحية وهي معتادة على النوم باكراً، تعلم أن وراء الافق ما ورائه. هي واثقة أن إبنيها، الذين يجلسان ويستمعان بلامبالاة، سوف **"يتشبرون"** منذ البداية كالعادة. لم يكن داود او شوكت من الذين سوف ينتظرون، شجاعة واندفاعاً مما يخيفها. رغم أن داريا تطلق الكلمات الغاضبة والسخط الشديد، فقد تمنت لو أن أبناءها بعيدين عن هذه الأجواء. قال لها إبراهيم: **إنتي رضعتيهم، طبعاً لازم يطلعوا كده.**

عندما تواترت الأنباء عبر مواقع الواتساب، الفيسبوك، اليوتيوب في أجهزة الكمبيوترات، اللابتوبات، الهواتف الذكية عن تحركات في واد مدني. ساد إرتباك لم يحدث قبل سنوات. لم يكن هناك من يسيطر على الامور، وضاعت التحليلات والسيناريوهات هباءاً، ووجد من تجمعوا على عجل، والبعض جاءت بهم صدف متنوعة، أنهم في ظلام دامس حول ما يمكن أن يحدث. الليلة طويلة لن يذوقوا فيها طعم النوم وإنتقلت آلاف المكالمات، المعلومات عبر الأثير وأجهزة الراديو. كانوا جميعاً على موعد.

في الصباح بدأت مظاهرات قليلة. أنتشرت في كافة انحاء العاصمة، تبدأ بمجموعة صغيرة ثم تكبر، تواجهها البمبان، ثم مع زيادة الضغط وتوافد المئات من شباب مجهولي التوارد، يعجزها السيطرة على الوضع.

عندما استلقى ميسرة مقداد الشيخ على النافذة البعيدة، نظر من خلال منظاره، دار على بانوراما المشهد أمامه، قيم بشكل سريع أهمية كل فرد في الصورة. شابات وشباب يغضبن ويغضبون، يتحمسن ويتحمسون عرق ينز منهم وينز منه. يضع اصابعه على الزناد، ارتجف كله. عاودته رؤي، إزدحم ذهنه. درب على إصابة الأهداف الثابتة والمتحركة في معسكرات التدريب، يختار الهدف ويطلق النار. لم يوجه بندقيته نحو إنسان قبل الأن، ولم يظن أنه سوف يطلق النار فعلاً.

الفوهة تدور وتدور، الحديد املس وساخن، الخشب بارد ورطب. جاء في المرمى كما في التدريب تماماً. صياد الجواميس كما عرف، يشعر ببرودة الزناد. أعاد الدوران في الحشد وحدد

اهدافه التي إختارها، صوب وأطلق الرصاص. في أقل من دقائق اندمج تماماً في الدور، أعاد الدوران في الحشد وحدد هدفه الذي إختاره، صوب وأطلق الرصاص القاتل. عندما تحرك من مكمنه وعاد للعربة ترك خلفه عدة قتلى. هو لم يعرفهم من قبل ولايعرف حتى لماذا قتلهم ضروري.

عندما ركب ميسرة مقداد الشيخ العربة وإنطلقت بهم كان قد تحول من شخص لقاتل.

جلس ميسرة صامتاً والرجل يتحدث. دعوهم لأجتماع عاجل في مركز تدريبهم، وجميعهم أعضاء قوة خاصة متخصصة في القنص، الإعتقالات وتفريق المظاهرات. أول مرة يدعونهم جميعاً في مكان واحد. شددوا عليهم أن يحضروا ملثمين. لاحظ ميسرة أن كل المتحدثين تشوب أصواتهم رنة اهتزاز وزائغي العين قليلاً، لكنهم يحاولون الثبات بقوة. الصمت القاتل والسكون سائد، لم يتحرك أي منهم ويجلسون وينظرون للارض. يظهرون من كل مكان، يهتفون ويهجمون، تتراجع الشرطة من ضغطهم فلا يتراجعون. قال لي أحد زملائي ممن أطلقوا النار على بعضهم:
يا ميسرة الناس ديل يعاينوا ليك في عيونك وانت مصوب وما بيتراجعوا ابداً.

وصلت الانباء عن رفض بعض قوات الشرطة التصدي للمظاهرات بغير البمبان، المياه وتفريقها من البعد، الأخطر، شائعة سرت وسطنا، عن إنهيار أحد أعضاء القوات الخاصة بعد أن أطلق النار على متظاهرين ورأى دمائهم تسيل على الرصيف. لم اكن اعرف شعور القتل بعد حتى ذلك اليوم، لكني واثق أنني إذا أستدعى الحال سوف أنفذ التعليمات. هللنا وكبرنا واقسمنا للمرة المائة على الطاعة.

المتحري

مكلف في ذلك النهار بعمل كشة في سوق امدرمان للقبض على المتشردين من الشوارع. وكما قال لاخيه الاصغر الذي قال ذات مرة أن الحكومة لاتوفر أي اعمال او دعم كما يحدث في دول العالم الحديث، وتعتقلهم عندما يتشردون، قال له أن هذه المهام ليست من المحببة لديهم جميعاً، لكنهم ينفذون الاوامر البغيضة. من جوار السينما الوطنية القديمة في ام درمان وازقتها- جمعوا حوالي العشرين متشرداً وشحنوهم في العربة.

وهم في الطريق لقسم الشرطة جاءه على الراديو أن هناك تحركات مريبة في شارع الشنقيطي وحي الفتيحاب بامدرمان، شارع الستين في البراري بالخرطوم ومناطق اخرى وان الجو السياسي مكفهر. عرف الضابط انهم مقبلون على ايام صعبة، فقد نقلت الاخبار البارحه عن تظاهرات حاشدة في مدينة وادمدني عقب رفع اسعار البترول في البلاد. فكر الضابط وقدر واصدر اوامره باطلاق سراح المتشردين، فهم سوف يكونون في حاجة لكل اماكن الاعتقال في الأيام القادمة.

حانت لحظة الحقيقة. الشهور الست اشهر قد قاربت نهايتها وقد تجولت، تحاومت، غصت وغرقت في الطرقات والزمان، تناوشتني اللحظات، آسرتني العيون الناعسة القلقة، احتواني الخطر الداهم والكتمة. سمحوا ليّ، بت الباشا، داريا ورباب، أن اشاركهم حيواتهم النبيلة، ورفضت ظبية، الصفية ومحمد أزرق. اختتم تحقيقاتي بالوقائع التي حدثت يوم الأربعاء، 25 سبتمبر 2013، مابين الساعة العاشرة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، في بري، الديوم الشرقية، ميدان شمبات والهجرة امدرمان، حيث **"قتل"** فيها سبع شبان وشابة، بفعل رصاص حي اطلق عليهم من بنادق قنص في مناطق متفرقة من اجسادهم أدت **"لاستشهادهم"** جميعاً.

جالسات والدموع تتساقط ببطء من عيونهن. يعلمون أن هذه آخر جلساتي معهن لاسجل تفاصيل اللحظات الاخيرة من حياة الثماني **"شهداء"**. لحظات تمر عليّ كما صمت مغطى، انصال تتكسر على مكامن جرح عميق. اخذت وقتاً طويلاً لاقنع نفيسة بت الباشا ولم تقتنع إلا بعد أن ادخلت رباب لتساندني. رفضت داريا قاطعاً أن تتحدث، ولانت قليلاً بعد أن أمضيت اربع ساعات مع ابراهيم. ولم توافق إلا بعد أن أعطيت وعدي أن أكرس لهذه القضية كل حياتي.

طوال عام ونصف لم تكترث الأجهزة بما حدث، إعتادوا على هذه الأحداث. نساء، رجال، شابات وشباب يعيشون ويموتون بدون أن يهتم بهم أحد. اكوام لحم رخيص، أهلهم يحتجون، يهرولون بين المكاتب المختلفة والمباني الكبيرة، يطلقون التهديدات واللعنات لكنهم يهدأون لعجزهم عن المتابعة من الحاجة وضغوط الأجهزة وتعقيدات الإجراءات. كل حادثة منها تضغط عليهم قليلاً ثم ينسونها. حتى وقد سال دم كثيف في شوارع مدن المثلث، وإنتقلت الحرب لديارنا فقد استمرت الحياة بنا.

في خلال هذه الفترة تزوج، ترقى في عمله، أعطوهم حوافز تلك الأيام الصعبة، لكن لم تفارقه

الأسئلة. عندما يجلسون كضباط مع بعضهم تنطلق بينهم بحذر، ويحسون بها وهي تخترقهم وهم يتناسونها. أخاه الصغير واجهه بغضب شديد، إتهمه بالقتل وأوقف زيارته لمنزله طوال هذه الفترة. حتى أنه لم يحضر زواجه. اقسم أنه لن يتعامل معه حتى يقدم إستقالة مسببة.

يواصل عمله اليومي، تنسيه ضغوط الحياة كل الأسئلة وتزيد الهموم. تخرج من كلية الشرطة، التي دخلها عبر شبكة علاقات إجتماعية متنوعة، في زمن كل شيء محسوب ومدقق فيه. حياته حتى الكلية عادية. عادي حتى في دراسته، إهتماماته توزعت بين لعب الكرة وتشجيع فريق الهلال. عوده الوالد منذ طفولته على إرتياد الجامع في أغلب الصلوات، وأحياناً يصطحبه في الأمسيات لمقر اللجنة الشعبية التي أستمر رئيساً لها طوال عقدين. بعد تخرجه عمل في أقسام متعددة، حتى أنه عمل خارج العاصمة رغم أن والده دائماً يصر على أن يلغي نقلياته. أثناء حياته العملية لم يتميز بشيء معين سوى إطاعة الاوامر بدقة شديدة، كما أوصاه الوالد يوم تخرجه.

ما بين عيون رباب الناعسة المرهقة، يداها المستدقة، قالت له عنها أن بيرقدار عندما علق عليها في ثاني لقاء لهم: **الدهب بيقطعوه صغير**، طوال ست اشهر لم تغادر رباب محطتها الاخيرة مع بيرقدار. سوف تلتهم جسده الأسئلة المشرعة والإجابات الواضحة. سوف يشتعل عقله، وتحاصرة الكوابيس. لماذا قتلوا؟. كل ما نشأ عليه وتوارثه عبر الجينات والأجيال، تعذبه وتضنيه. طول حياته لم تواجهه أسئلة يختار بينها.

عندما طلق زوجته جاءه أخاه الصغير: **القتيل ينال الشهادة، القاتل تنهشه الهلاويس وتطارده الوجوه مهما طال الزمن. هم من قتلوا ويريدونك أن تغسل آثار انيابهم وكعوب احذيتهم القاسية**. لماذا تطارده الكوابيس وتحاصره الوجوه التي تعرف عليها طوال شهور، غاص عميقاً في خلجاتهم، أحبهم وتعاطف معهم ومع أهلهم، ويود لو أنه أعطاهم حياته البائسة بديلاً.

مهمته أن يجد الجناة، هو يعرفهم، هم يعرفونهم، الكل رأهم وهم في الساحات يطلقون الرصاص الحي لتخترق الصدور والأحشاء والرؤوس. عندما توجه للوصول إليهم وجد الجسور قد حرقت، المداخل اغلقت والطرقات بلا نهاية. السؤال الذي يجهله ولا يعرف النوم له مسرباً وهو ينازعه، هل هم مجرمون وهو الضحية، ام كلهم ضحايا.

ما بين هديل الحمام، وصفق أوراق الشجر في شتاء بارد أجتذبته رباب، شجعته ست الباشا ودفعته داريا نحوها، لكن فصلت بينهما ضفاف بعيدة، قطرات الطل وأواخر الليل. تهدمت حياته في مطاردة ظل ليس له، وغمامة لا تغطيه. بحار الدم التي سالت في أحد أرصفة بري نهر جبار تفرق بينهما، برقاً ورعوداً، بحاراً، كهوفاً ووهاد. رباب أذن لا تسمعه، أغانيه لا تشدوها، ربيعه لا يفتح زهورها ولا مزنه يورق مسامها. يبحث عن حلم فقدته وطيف لن يجده. دانية وأبعد من زحل، ضائعاً في أفقها المفقود، يبحث عن طريق ليس له. رباب ترتديه، بت الباشا، داريا وأنا قميصاً لنشعل لها نيران معبد بيرقدار لتهاجر لأحزانها. وحذائاً لتنتعلنا صوب غد ينتظر خلف جفن روح متعبة.

يستلقى على السرير البارد في حوش المنزل، وحيداً، كامواج تستلقي في الصدى، تؤنسه طائرات تمر في السماء. وطيف رباب عبك طيوب يستنشقها فتمر عليه وتقطع المسافة بين السماء

والخيال، الحلم والإناة سراعاً. النار تأكل الحروف، الكلمات وتلتهم الأوراق التي امضى فيها ستة اشهر.

عبث اللحظات

عوض كوكو

حدث عوض كوكو، نفيسة بت الباشا عن كل شيء سوى ماضيه، حياته بدأت يوم وصل لدكان المكوجي. الشيء الوحيد أنه أخبرها أن والدته عاملته كفتاة منذ ولادته، حتى أنه لم يلعب مع انداده قط، وقال أنه قد اكتسب مط الصوت والكسرة من تلك الأيام الطويلة. لم يعرف عوض قط لماذا عاملته والدته هكذا. بعد أن يتعلم العربية جيداً سوف يحدثها عن رحلته من قريته حتى وصل دكان المكوجي.

نسير في طريق الاسفلت والعربات تتدافع مسرعة من حولنا، باقي الخريف لازالت تتجمع مياهه في برك متناثرة حولها الشياه، الأبقار وأطفال دائمي الحركة. على اليمين حقول مختلفة الألوان والأطوال من الخضرة الفاتحة، الداكنة والذهبية، تهتز على نغمات الرياح، على اليسار نمر على كثبان رملية حيناً، ونيل متسع الضفاف ينحني من وعثاء طرقات طويلة. كنا ذاهبان إلى ود مدني لعزاء لعم والدهم، توفى بعد إنقضاء اكثر من مائة عام منذ فتح عينيه على الدنيا. التفت، دارت، وتلوت خلال ازقة الحديث والسؤال هو هو. كانت بت الباشا تريدني أن احكي لها عن رحلتي. وكنت قد حكيت لها في الأيام الأولى عنها، لكن لغتي كانت عاجزة وراغباً في نسيانها. في محاولتها تضغط على ساقي وتضحك لي بعيونها وتظهر غمازتيها.

رغم أنه أحس بإختلافه من الفتيات حوله، فقد وجد نفسه مختنقاً بهن. سوف لن تخبره والدته لماذا عليه أن يكون فتاة وهو صبي كغيره. عندما كبر قليلاً تتسرب لعقله عبر احاديث سردابية بعض تفسيرات لم يكن حتى عقله قادراً على التصديق. عندما ذهبت والدته وهي حامل، وقد أنجبت ست أبناء، مات منهم اثنان. تمنوا أن يرزقا بفتاة. تركها زوجها داخل الغرفة مع الكجور، ظلام دامس أحاط بها رغم تسرب اضواء بعيدة من باب نصف مغلق. رقدت هناك وظهرها يؤلمها، جنينها يرفس بطنها. عندما لمست يده الباردة الخشنة بطنها، تحركت في إتجاه دائري وضغط عليها، أحست بالخدر والنعاس. فرح زوجها، فهاهم بعد العديد من الصبيان سيرزقون بصبية.

بدأت التفكير في الهرب. أجلس مع كل القادمين من المدن البعيدة وأسال وأسال عن كل التفاصيل. أسماء المدن التي يقصدونها، على أي مدن يمرون في طريقهم، النجوم التي يستعينون بها لمعرفة إتجاههم، الطرق التي يسلكونها، ماذا يركبون وكم تكلفهم. ولأنهم تعودوا على أسئلتي فهم يسعدون بالشرح والتفاصيل التي تتراكم علي. سوف أرسم كل الطرقات في رأسي وتنطبع الطرقات، تعرجاتها، وسائل نقلها، أسواقها، أسعار الوجبات وأماكن المبيت. بعد شهور عديدة سوف أحدد المدينة التي سوف أهرب إليها: امدرمان.

بدأت في التحضير للرحلة الطويلة. استللت لباسين لأخواني من حبل الغسيل، وخبأتهما في أعلى قطية حبوبتي. أضفت إليها بنطلون قصير من أحد البيوت في الحلة، وقميصاً من منزل آخر. احتفظت بكل النقود التي تقع في يدي، لا أنفق منها أي شيء كاخواني، إذا أتيح لي الوصول لجزلان والدي كوكو، أسحب اصغر عملة موجودة. احتفظ بكل العيديات التي يعطوها لي وأبيع

الهدايا والحلوى التي تصلني. صنع لي موسى الحداد سكينة صغيرة، تحصلت على زجاجة زيت وملأت علبة كبريت بأعواد منها في خلال عدد من الشهور.

عدد من الشباب والشابات اختفوا من القرية، قيل أن الحكومة اختطفتهم، وقال آخرون أنهم التحقوا بناس يوسف كوة. الحرب المشكلة الكبرى في طريقي لامدرمان. سوف ينقضي حوالى الثلاث اشهر وأنا أسال عن مناطق الحرب، أسبابها، المشاركين فيها، لبسهم وعاداتهم. سوف تحذرني والدتي من الأسئلة الكثيرة حول الحرب، فبدأت اكثر حذراً.

كنت قد عودت نفسي على أن أجوس في الخلاء، اكتسب الشجاعة واهزم خوف الأماكن المظلمة. بسبب هذا جلدني والدي وعنفتني والدتي, لم يكونوا خائفان عليّ من حيوانات الخلاء او العفاريت والشياطين، فقد تعلمت في حياتي كيف اتعامل معها، لكنها كانت الحرب. الحرب في تلك البلاد حادث يومي، كل يوم أسمع عن إعتدآت وقتل واغتصابات. كثيرون ذهبوا بلا عودة ونسمع أنهم قد بيعوا للعرب.

الطيور قد سكنت لوكناتها، صمتت أصوات الاغنام والدجاج، قمر مكتمل توسط كبد السماء ونشر ضوئه الأبيض الهاديء على القطاطي والتلال الحجرية والشجيرات. قبل أيام حملت اشيائي كلها، في كيس بلاستيك اسود، ووضعتها فوق منزل جدتي الكائن في آخر القرية. عندما مال القمر على جنب قبة السماء، ولم يتبق سوى نقيق الضفادع، خوار ثيران بعيدة، وصرير ونباح كلاب، حملت كيسي الصغير، تأبطت الزجاجة المليئة بالماء وإنتعلت حذاء الشدة وغذيت في السير.

عوض كوكو ليس فتاة تلعب مع الفتيات، لكنني فارس لايخاف او يهاب أي شيء، لا الليل، لا الحيوانات المفترسة، لا الحرب، لا العرب والمليشيات او الجيش. سوف اشق طريقي عبر هذه الجبال الضخمة، المسالك الحجرية والليل البهيم إلى امدرمان، لأصنع حياة آخرى، سمعت عنها قصصاً وحكايات سلبت عقلي. قرية مثل آلاف المرات قدر قريتي بها المال مشتت، النساء جميلات ومرحبات، الاكل متوفر، الماء مواسير وعربات وأضواء.

الفهود والجواميس والنمور قد هجرت التلال المرتفعة من جراء الحرب. ربما في الاودية توجد بعض الغزلان، لكني لم أصادفها. أخطر ما يواجهني في رحلتي الذئاب الشرسة الجائعة، الثعالب والضباع. حملت معي عصا في آخرها قطعة من الحديد لمواجهتها. سرت اتحاشى القرى والناس، أسير ليلاً في وديان مليئة بالشجيرات الشوكية، غابات من الأشجار الكثيفة، مزارع ومرتفعات حجرية. أقترب أحياناً من مناطق الحرب وتتناهى لأسماعي أصوات الرصاص، الصرخات، أصوات العربات وأحياناً أصوات طائرات. تعودت ان ألجأ للكهوف عندها ومن ثم أسير في إتجاه الشمس بعد ساعات طويلة.

لمدة شهر كامل تحاشيت المضارب، القرى المتناثرة والحلال. أكل مما يتوفر لدي، فقد فرغ زادي بعد أيام قليلة، فبدأت في الاعتماد على النبق، الدوم، الذرة التي تنمو برياً، لكن اكثر اعتمادي كان على صيد القماري والزرازير بالنبلة، وكنت ماهراً في صيد الفئران، الأرانب، الضبوب والورل. كل يوم، أحد واجباتي المهمة اصطياد حيوان او طائر ما. أوقد النار بما حملته

من اعواد الكبريت، وعندما شعرت بالنقصان السريع فيها، للهدر الكبير في أول أيامي، أحمل عوداً مشتعلاً من آخر نار اشعلتها، أستعملها في شواء الصيد واشعال النار في الليل.

سوف تطاردني نعامة سرقت بيضها، إحتميت بشجرة طوال يوم كامل، إنتظرت فيها النعامة وهي تزمجر، تخبط الشجرة وتمد بوزها في محاولة للوصول إلي. سوف تزهج بعد ساعات طويلة وتعود لمكمنها. سوف تعطيني البيضة غذاءاً لثلاث أيام. في يوم آخر طاردتني اصلة طويلة، لأنني بدون أن أراها نافستها في ورل سمين. أخطرها عندما وجدت نفسي ذات ليلة بالقرب من معسكر جيش. وأنا اهم باشعال النار عندما اقترب أحدهم، فكمنت مكاني. عندما استكشفت المكان كان متحركاً كثيف العدد والعربات. حذروه دائما منهم، فهم إذا وجدوه لوحده، سوف يختطفوه ويقومون ببيعه.

بعد شهر من المسير علمت أنني قد إبتعدت عن أهلي وعن الحرب. سوف أبدا بعدها في الاقتراب من القرى والحلال وأحاول بلغتي العربية البسيطة أن أخبرهم أنني ذاهب لوالدي في ام درمان. استقبلني الناس بالترحاب عادة، اعطوني الطعام وآوني في خيامهم، قطاطيهم او بيوتهم. ركبت مع بعضهم العربات لمسافات متنوعة، اركبوني جمالاً وحميراً وخيول. بعد ثلاثة اشهر من تسللي في تلك الليلة القمرية وصلت الرهد.

عندما وصلت الرهد والخريف قد رافقني طوال الاسبوعين الاخيرين، أحياناً شكشاكة، وأخرى مطر منهمر مع رياح ساكنة وأخرى مع رياح مفزعة لها هدير وحبات المطر الكبير تلسع الارض. عندما وصلت للبحيرة الكبيرة، كنت جائعاً ورأيت عدداً من الناس ياكلون فتوجهت اليهم، ولما لاحظوني دعوني للجلوس. بعد أنتهاء الاكل دعاني أحدهم واسمه سليمان أن ابدأ في ملء برميل الماء في الكارو بالمياه. هكذا بدأت أيامي في الرهد. اقيم مع سليمان في قطيته، أنام مع أبناءه خارج المنزل، في عنقريب عليه برش، اشتريت بعد شهر مخدة من اجرتي، واعطوني توب للغطاء. أيام الرهد اجمل أيامي التي عشتها وسوف يمضي حوالي الستة اشهر، قبل أن أعلن لأسرة سليمان أنني ذاهب لامدرمان.

اعطاني سليمان اجرتي التي احتفظ بها لي، في حقيبة صغيرة وضعت حاجياتي القليلة وركبت القطار المتوجهه نحو الخرطوم لأصل امدرمان. جربت ركوب القطار من قبل، حيث سطحت مع ابناء سليمان من الرهد للأبيض، تجولوا فيها وعادوا معلقين في لوري. هذه المرة ركبت وفي يدي تذكرة إشتراها لي سليمان. كانت زوجته قد اعدت لي قفة من الزاد من البيض، اقراص الطعمية، فطاير العسل، الحمام المحمر ولم تنس وضع الملح والشطة والبصل. لأول مرة في حياتي سوف يودعني ناس وتتساقط الدموع منهم.

وصلت ام روابة بعد ساعات طويلة، سار فيها القطار ببطء شديد من جراء المطر. سوف يخبرونهم أن القطار سوف يتوقف في المدينة لعدة أيام فقد اطاحت السيول بخط السكة حديد. لغتي العربية قد تحسنت، بل بدأت أغني أحياناً. عندما وصل المحطة ذهبت للسوق لأستكشف، وعلمت من بعضهم أن هناك عملاً في مصانع عصر الزيت. كان القطار منزلي الليلي وبدأت في الصبح أذهب للمصانع حيث بدأت العمل باحداها. سيعمل حتى يحين موعد الرحلة بعد اصلاح الطريق.

عندما قابلت صاحب المصنع خيره بين العمل في المصنع او العمل في البيت، ولأنه لم يعرف ماذا يفعل رجل مثلي في المنزل فقد سألت اسئلة عجيبة اضحكت صاحب المصنع.

كانت زوجة سليمان تقوم بكل شيء في المنزل، اما المكوة فقد كانوا لايعرفونها. عندما أخبرت صاحب المصنع عن نيتي السفر لامدرمان، اخبره انه من الافضل أن يكون معه بعض المال لأن أهل تلك المدينة، ليسوا مثلهم، لكنهم قساة ولا يساعدون أحداً، ثم اغراني براتب محترم وأنه سوف يقلني معه بعد ستة اشهر بعربته الجيمس. كان اكبر منزل أراه في حياتي، التفت اليها بسرعة وقلت: **زي بيتكم مرتين**، قلتها بالانجليزية وبعضها بلغتي التي كانت تعرف الكثير منها، فضحكت وقالت: **ما دي الاقاليم بيوتهم حدادي مدادي**.

كانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت عرب، غير المضارب التي مررت عليها في رحلتي للرهد. بذروا فينا الخوف من العرب، تحكى قصص مرعبة عن الاختطاف، الاغتصاب، قتل الشباب وبيعهم واسترقاقهم. ورغم أنني لم أجد أي من هذه القصص في رحلتتي، لكني ظننت أن هؤلاء عرب غير. عملي الغسيل والمكوة، وقد دربتني ست البيت على هذه المهام. أنام في أحد الحيشان فوق سرير حديد، عليه مرتبة قطنية، مخدة، ملايات نظيفة يتم تغييرها كل عدة أيام وكان لدي بطانية جلد نمر.

سوف يتشعب عملي ويزداد، لكن أفضلها عندما أذهب مع بنات صاحب المصنع للافراح، حيث أستمتع بوجبات العشاء مع الطباخين، أشرب عدة زجاجات من البارد. هناك عرفت اغنيات وردي، محمد الامين وبلوبلو، وسوف يعلموني اياها من مسجلهم الذي يلعلع طوال النهار. سوف أتولى كل شئون المنزل من الغسيل، المكوة، دفع الفواتير، اعمال الصيانات للمنزل، الاسرة، المراتب، إيصال الأبناء للمدارس إذا سافر رب المنزل، دفع المصاريف وغيرها وغيرها. حدثني صاحب المصنع بعد خمسة اشهر أن يدخلني كورس للمحاسبة حتى اتولى حسابات المصنع مستقبلاً، لكنني أصررت على امدرمان فابدى اسفه وقال أنني عنيد.

اقتربنا من ودمدني، على الجانبين مزارع محاطة باسوار عليها يافطات، نرى من البعيد فندق امبريال وكوبري حنتوب. بت الباشا تستعد وتنظر في مرآة السيارة وتعدل شعرها الاسود الكثيف، تنظف وجهها بمنديل وماء، وتبدل الشبشب بواحد جديد. شجعتني بنظرتها على المواصلة.

بعد ستة اشهر ركبت الجيمس وشقينا الطريق لامدرمان. أنزلني في سوق ليبيا وأعطاني أجرتي ومثلها مكافأة. في هذه المرة أحمل شنطة كبيرة من الهدايا التي إنهالت علي من أهل المنزل واقربائهم. جلست حوالي الاسبوع في وكالة في سوق ليبيا، ثم حملت شنطتي وركبت بصاً لامدرمان.

رغم أن الذين سألتهم عن ام درمان أكدوا لي أنه فيها، أريد الوصول لداخلها. نزلت من البص عندما رأيت البيوت الكبيرة والعمارات والأسواق. مررت على محل غسيل ومكوة للبحث عن عمل، فارشدني لمحل يبحث عن غسال بعد شارعين، وأرسل معي شخصاً لايصالي للدكان.

بعد قرابة العام واكثر منذ انطلاقه في تلك الليلة تحت القمر المكتمل الذي ينشر ضوئه الأبيض الهاديء، وصل عوض كوكو لامدرمان.

حمدان عبد الرسول

الإبل تخرج والسهل ممتلئ بقطعان هزيلة ذاهبة إلي مراعٍ بعيدة لا توجد. كل الشبان الذين ارسلتهم القبيلة، ليرصدوا أماكن الرعي وبرك المياه، عادوا وهم حزانى مطرقي الرأس. من بعيد لن ترى إلا اراض صفراء قاحلة تمتد.

تم ختان حمدان عبد الرسول في حوش جده وجمع فيه صبية العائلة. حضر كل من هو موجود في المضارب، وتوالت اقداح العصيدة الساخنة. تزين اللاعبون واللاعبات بأجمل ما عندهم من الثياب، الزينة وأدوات الفروسية والرجولة. النساء بالخلال في أرجلهن، يربطن وسطهن بثياب مزركشة ولامعة، يشدونها في وسطهن لتبرز أردافهن وخصورهن، وتزين شعرهن، المضمخة بالكركار، قطع الاصداف، الاحجار الملونة، قطع الذهب والفضة وكل غريب وجاذب. يلبسن غويشات الذهب، خواتم الفضة والياقوت. أتين لحلبة الرقص وكأنهم مهرات سباق جامحات، لا يرضين إلا بفتيان يمتلؤن فتوة وفروسية. الفتيان متزينين بوضع الغفار على الرأس، حاملين السكاكين المزخرفة بالفضة والفؤوس.

سوف تبدأ الحكامات في الوصف والغناء، يتناولن كافة مناحي حياتهم، بطولات فرسانهم، خذلان أعدائهم. شطرات شعرية قصيرة وسريعة، يلوِنَها بدراما الحكي والتنغيمات المختلفة. نسيج شعري حماسي يوثق كافة أحداثهم الجيدة والسيئة. سوف يتناولن شيوخهم وابطالهم وأهل الدار. كان لحمدان والاطفال الأخرين نصيب في هذه الاهازيج، سوف تتداعى في الزمان إذا برزوا في حياتهم القادمة.

تجوالهم عبر مستنقعات بحر العرب وفيافي الصحراء تجمعت في حفلاتهم. بدأوا الحفل بغناء المردوم. الإيقاع سريع وقوي، إنتقلوا بعدها إلى الجراري المستوحى من حركة سير الابل. سوف ينتقلون إلى الكرير ويصدر الفتيان بشكل جماعي صوت جهور يصدر من الجوف أشبه بخوار الثور. الفتيات يملن الرقبة، يتثنين ويتمايلن. يضرب الشبان أحد القدمين بالأرض بشكل عنيف وقوي، فتقوم الفتيات بالمكافأة برمي (الشبال)، وتنثر رائحة الكركار عليه.

يغيرون إيقاع رقصتهم لسرعة شديدة، وتبدأ الفتيات أغاني الحسيس بجانب الرقص والتصفيق، يحاكين مشي الابل ويقوم الرجال بالرقص والضرب على الأرض بالأرجل. الكرير والهمهمات وأصوات بيئتهم من النهر إلى الجزو تتردد. في ذلك اليوم اهدوهم الأبقار للمرة الأولى، وسوف تتكرر عند حلق شعره لأول مرة. من هذه الأبقار سوف يكُون حمدان مراحه. في تلك الليلة ولدت بنت عمه. واقترح هو ان جاءت بنتاً ان يسموها ظبية.

عندما صار شاباً خرج حمدان مع باقي الشباب، في نهاية الصيف على جمالهم وخيولهم من بحر العرب للشمال، لتحديد أماكن المراعي الجيدة وبرك المياه، لتوجيه القطعان إليها. توقفوا أثناء رحيلهم شمالاً، عند أحد البرك الفائضة بالماء. نصبوا رواكيبهم، بدأت النساء في إعداد الطعام. في جانب من المكان عدة رواكيب لبيع منتجاتهم من السمن، اللبن الرائب والزينة المصنوعة من

الخرز. تجار من المناطق المجاورة جاءوا بالسكر، الشاي، الدخن، دقيق القمح، الصابون والملابس والأحذية وغيرها.

يتنقل حمدان بين رحلة المُنشاق، يضربون في الصيف في إتجاه الجنوب (الصعيد) إلى بحر العرب وبحيرة كُندي حيث مصيفهم، بحثاً عن الماء والكلأ. عندما يهطل المطر، يعودون إلى الشمال (الريح) عند بداية الخريف في رحلة المعوطاة هرباً من ذبابة التسي تسي، التي تنقل طفيل مرض النوم. عند حلول فصل الخريف يتأهبون لرحلة النشوغ، ويقسمون الإبل إلي مجموعات تسمي النقاقير، وينطلقون من مناطق سودري، وجبرة، وام دم حاج احمد، وحمرة الوز وام بادر. الهوادج مزركشة، النساء في ابهى حللهن، يتابعون أبقارهم حتي ينصبوا الخيام في أماكن المراعي الخضراء الواسعة، ويمكثون بها حتي مجيء فصل الصيف ثم يعودون للدمر وهي موطنهم الاصلي.

كبر حمدان والظبية في المضارب المختلفة، عندما يكونان في مكان واحد سوف تنام بقربه، تمد ارجلها على جسده وتسترخي. بضفائرها الطويلة، لونها الرائق الجميل، ضحكتها الخافته الممتدة وتمكنها من الحكي، كانت تجذب الصبيان والصبيات. دخلت المدرسة الأولية وقد غادرها للمدرسة الوسطى. سوف يرافقها في الصباح ويمر عليها عند نهاية اليوم الدراسي طوال سنة كاملة. عند سنته الثانية، اخرجه عبد الرسول من المدرسة ليواصل حياتهم ويدخل عالمهم في الرعي والسقيا.

حدث شيء أصابهما الاثنان معاً، فعند دخولها المدرسة الوسطى سوف يبدآن الاهتمام بالاغنيات والشعر. حمدان عقله مرآة تلتقط كل ما يسمعه في ليالي الرقص، في البوادي ومن الراديو الترانسستور. ظبية اكثر حذقاً وذكاءاً، تؤلف اناشيد في المدرسة، ويطلبون منها في ليلالي السمر أن تلقي الاشعار وتردد الأغنيات. أحياناً عندما يكونان لوحدهما سوف تحرف بعضها وتدخل اسمه، وغالباً ما تكون في الهجاء. لن يقصر حمدان فهو ايضاً قادر على التحريف، لكنه سوف يحرف في شعر الغزل.

عند اكمالها المدرسة الوسطى، وقد بدأت في البلوغ، نهدت، طالت وبدأت في التكور، فجعه عمهما الذي يعمل عاملاً في بابور الكهرباء في الأبيض، أن يأخذها عنده للمدرسة الثانوية. حتى تلك الأيام لم يكن حمدان، الذي يعرف أنه لها وهي له، يدرك أي مشاعر سوى أنها رفيقه صباه. عندما عادت بعد أن اكملت سنتها الأولى وزارها، أطال عندها البقاء في الليالي وفي الصباحات. رغم أنها بدت مختلفة في لبسها، تسريحة شعرها، شبشبها الذي تنتعله وفي الطيب الذي يفوح منها، هي نفسها ظبية.

تريث الجمع، توقفوا عن الغناء والقفز والضجيج، الكلاب كفت عن النباح، الأبقار المستلقية في السهول الخضراء، رنت تحملق في آلافق، تنتظر شيئاً، تنتظر الشاربة من بحور جنقي، ومن أم مشطوراية الطوال. قمر مستدير يرفرف على الساحة، نجوم لامعة تطل بعيونها الوسيعة، اضواء الرتاين تداهم الكثبان الرملية المحيطة وتتدفق منها الظلال، تلتمع عيون ابقار هادئة، غزلان تائهة وذئاب بعيدة كقناديل.

رنت الموسيقى، تصاعدت الصفقات ومن خلفهم لعلع صوت زغاريد طويلة. الساحة على موعد مع ظبية. فستانها الساتان الأزرق، الموشى بخيوط فضية، وثوبها الأزرق الذي به لمعة، توشوش انظارهم مع كل حركة لها. تتناثر الاضواء اللامعة من الرتينة من خيوطها الفضية وتنعكس عليهم. ظبية لا تشبه ملابسها أحد في الحي، فهي تشتريها من سوق الأبيض، التي تصلها قادمة من ليبيا عبر سوق مليط. عندما دخلت الساحة، تركوا لها المكان. عبك طيوبها لم تألفه صحارينا، فقد استبدلت الكركار بروائح تأتي للابيض من تشاد عبر الجنينة او من افريقيا الوسطى. بدأت فتيات في الغناء بصوت منخفض النبرات، الأغنية من تأليفها، تحن فيها للمضارب، البراري الواسعة وصوت الأبقار. تصاعد الغناء ودخل الفتيان يرفعون من الايقاع.

عندما ثنت ظبية جيدها الطويل، حركت جسدها المتقن وتبسمت وهي تبحث عنه في الجمع، تغيرت حياة حمدان للأبد. يشتاق لجلساتهما معاً، غيظها له بالشعر الهجائي، وكثير من المودة. يجد الديار خالية وهي قد غابت عنها. لكنه وقد نفرت بجسدها وهي تتلاعب برأسها، شعرها، صدرها الناهد وتدخل تموجات جديدة على رقصهم، أحس بشوق دافق ومشاعر من القوة جعلته عاجزاً عن القفز والترحال من قدم لقدم. وهي تتأرجح وعيونها تغوص في مآقيها وتتوسد حاجبها الكثيف، والرمال الناعمة نحن لقدميها فلا تتطاير، سوف تشير له برأسها ليدخل الساحة.

لاحظ الشبان هذا، جن جنون الحلقة، تشكت الارض من هول وقعهم عليها. دفعوه من الخلف وهو يحمل سوطه وبدأ يقفز ويحرك جسده في إيقاع من تمايلها. سوف تقترب وتبتعد وهي تركز نظراتها عليه خفية. تدير شعرها حولها تتحضر لاعطائه الشبال الكبير. عطرها المنتشر في الساحة يغمره ويتخلل مسامه. يتباطأ وهو يتجه ناحيتها، يمتص لونها الجميل، ويستنشق عطرها. عندما وصل قبالتها وهز سوطه فوقها، توقفت فجأة، دارت حول نفسها ومن بعيد لفت شعرها في الهواء واعطته الشبال.

عندما غادرت ظبية المضارب عائدة للابيض، انخلع قلبه معها. سوف تمر عليه الأيام والليالي، يصله شِعرِها التي تتغنى به الفتيات. سهر الليالي الطوال وهو يعد لها خطاباً، سكب فيه كل ما تحويه السهول الممتدة، السماء العريضة والحاجب الندي. سوف ترد عليه ظبية وتخلط في خطابها بعض الكلمات الانجليزية، قالت أنه شعر شكسبير وشعر غريب آخر قالت أنه لشاعر يسمى محمود درويش. صارت الخطابات جسراً ممتداً سوف يسيرانه سوياً. عندما خيرها عمها بين الأستمرار في الدراسة او قطع الدراسة لتتروج حمدان. ظبية تحلم بالبراري الوسيعة وبشاب طويل نحيف، أصابعه طويلة ونحيفة وأنفه مستدق. كل أيامها كان يسكن فيها حمدان، وخلجاتها مضمخة به وذكرياتها هو.

تمت ترتيبات الزواج، تسارعت خطى النساء لبناء البيت للعروسين، إختاروا المكان، نوعية الأشجار من الطلح واللالوب. المنزل متجه للناحية الشرقية في شكل بيضاوي تيمناً بـ (القبلة)، على مسافة عن الفريق. أتت الظبية على هودجها المزركش، طاف حمدان حول المنزل سبع مرات تيمناً بأيام الأسبوع. أسدل عليهما الطاقة، وغنوا له الاغنيات، مصحوبة بزغاريد الفرح وعبق المكان بشذى العطور والبخور.

عندما تحرك حمدان من مضاربهم في سهول كردفان، بصحبة عائلته وقد باع أخر قطيعه من الأبقار والضأن والماعز التى ورثوها عبر الاجيال. بلادهم التي وصفها شيخ العرب بابو نمر علي الجلة، عندما سأل عن وصف لندن بعد رحلته إليها: **أن لندن مثل المجلد في الخريف**، أصبحت محلاً محدقاً. لم يكن جفافاً عادياً، فقد غاب المطر تماماً وضربهم الجفاف، تصحّرت المراعى وجفّت موارد المياه جميعها. حتى مخزونات الذرة القليلة جاء رجال بذقون، يمتطون العربات الكبيرة واشتروها، ثم باعوها لهم بأسعار غالية.

رحلتهم التي تمت في شهرين أفقد حمدان طفلين من أربعة كانوا قد انجبوهم. ترحلوا من اراض قاحلة إلى قفر كامل، لا أثر فيها لحياة او بشر، سوى راحلين مثلهم، جثث تركت بلا دفن، حيوانات نافقة وبرك مياه جافة. كل حياته تركها حمدان ورائه من طقوس، وعادات، وتقاليد وأغان وغذوا في المسير لدار صباح، رحلة كئيبة موحشة لم يمشوها من قبل.

هيييى شلت جبتى وقمت ماشى الفقر بارانى ومسكنى من صلبى
قلت للفقر الله والنبى إنقرع منى دا الغريق قدامى ..
بحر العادى لا بنخاض لا بنبري
هيييى أعطانى لى تور بعت بقروش
وقعدت أحاسب لما الوسواس والخناس طار منى

وصل حمدان وأسرته مع آلاف البشر لمشارف امدرمان، وإستقروا في رواكيب وخيام في الشيخ ابوزيد. لن يسمع حمدان عن سقوط النميري وتكوين حكومة جديدة، إلا عندما بدأت وفود من شباب متنوعين يصلونهم وفي عرباتهم الاعانات. سوف يعرفون أن لهم قيمة عندما جاءوهم عند الانتخابات وسجلوهم، لكنه قطعاً لن يسمع أن العالم كان يغني لهم:

عندما نتجه لنداء معين.... عندما يتعين على العالم معاً
هناك أناس يموتون وحان الوقت لتقديم يد المساعدة في الحياة
أعظم هدية للجميع
نحن العالم.... نحن الأطفال
نحن هم الذين جعل اليوم أكثر إشراقاً

حمدان وأسرته ومن حوله سمعوا فقط أن طائرات الهركوليز ترمي جوالات عيش ريقان في مناطقهم وأن باقي أهلهم بخير. سوف تمر السنوات على حمدان ويستطيع بمساعدة بقية أهله، وبيع قطعة الارض التي وزعتها الحكومة الجديدة، أن يشتري منزلاً في الديوم الشرقية. طفلته التي ولدت قبل المحل بشهور اسماها ام بختين، وسار عليها اسم نورس، والتي سيرتها عليها زوجته ظبية من شخصية اعجبت بها في أحدى المسلسلات. إستطاعت نورس أن تنجو من الرحلة الطويلة وشظف السنوات الأولى، تحمل قسمات وجه حمدان المستدقة، نحافته وطوله، واخذت من أمها ظبية لونها القمحي، عيونها الواسعة الكثيفة الاجفان، همتها العالية وشدة بأسها.

رغم أن حمدان كان مصراً على العودة لبواديه من بحر العرب، وحمرة الشيخ، وحمرة الوز وام بادر، إلا أن ظبية أقنعته بالبقاء وقد أمتلكوا منزلاً وأدخل ابنته مدارس الحكومة ويمتلكون ارضهم

ويعمل هو عاملاً في الحكومة. سوف تراه نورس في بعض الليالي وهي تنام بجواره، يردد أغان لا تكاد تعرف معناها، وترى دموعه تتساقط ببطء ولكن بغزارة. تعرف أنها ربما سبب لهذه الدموع فتحزن وتنام.

زارعنو في الوديان وساقينو بالتيران
أسمك تقيل يا فلان زي حنضل القيزان
الليله والليله دار ام بادر يا حليله بريد زولي
برادك الصيني دا القرايافو راميني
يالوالده سيبيني الجراري راجيني

موت الحاج داود شوكت

كانت فاطمة بنت ابوبكر تتدثر بشال صوفي سميك وتغالب البرد الشديد الجاف، وهي تقطف حبات البامية الخضراء الطازجة وتمسح عنها ما علق بها من تراب وطين، وكان يرافقها اصغر أبناءها وهو يحاول القطف ويرتجف. زوجها جالس على مقعد الساقية وهو يقود الثورين بكلمات منغمة، وأحياناً بعض الغناء. كان اكثر ما يردده كلمات كان قد الفها في خطب ودها قبل الزواج، اشعار كادت أن تودي بزواجهم شذر مذر، لولا تدخل جدها الحاج داود شوكت بصرامة عند والدها، صرامة قيل أنها لم تترك لوالدها سوى القبول ورفع الفاتحة.

امتطت هانم بنت ابوبكر حمارها النعس وابنها الصغير ورائها على حمارته، واندفعا مسرعين نحو جرف النيل. النيل قد فاض على الضفاف العطشى، تمدد وتمطى وتحاضنا وتراجع. بدأت ألوان غير الاخضر تتسلل إلى اعلى النخيل، بدأ اللون البنفسجي على اعواد البرسيم الناهدة، واطفال دائمي الطفولة يتسابقون لاعلى الشجيرات. سوف تُجَلب قش البهائم بكميات كبيرة في هذا اليوم تحسباً لما قد يحدث.

من الصباح الباكر توجه مرجان عبد الرسول وابنه وبنته على حميرهم إلى منطقة زراعة القش الاساسية في جنوب القرية على جرف النيل. مرجان الساعد الايمن للحاج داود في الاهتمام بكل شئون نخيله من بداية اختيار الشتول حسب انواعها، اختيار المكان المناسب لشتلها، تعهدها بالسقي والمتابعة. عندما تجهز النخلة بتم التلقيح، التنظيف، الحصاد، تجهيز العجوة وتنشيف الباقي وحفظه حتى يصدر بالعربات إلى المدينة. كما كان مسئولاً مباشراً عن زراعة الارض البعيدة نسبياً عن القرية. سوف يجلبون اليوم كميات للقش تكفي البهائم على الاقل لثلاثة أيام.

كلهم كانوا يرخون آذانهم وهم في إنتظار المقدر.

سوف تحمل الرياح الشمالية الباردة الأصوات وتضخمها، سوف تستقبلها آذان مرهفة وقادرة على السمع من مسافات بعيدة. سوف يشتهر بعض أهل القرية بقدرات معجزة في السماع ويتبارون أحياناً عليها, هذه القدرات تفيدهم في آلافراح حين ترتفع الزغاريد معلنة بدء طقس ما، في نداء من في الجزر او بغرب النيل في مناداة ريس المركب ليقلهم للقرية، لكن اهمها كان اعلان موت أحد. يتصاعد النشيج المر للنساء "وجعر" الرجال فيتحدد فوراً مكان الوفاة. لما تصاعد صراخ النساء وبلغ الاسماع كانوا جميعاً يعرفون.

مات الحاج داود شوكت.

تفرغ ابنه الاكبر ابوبكر لغسيل الجثمان وغيرها من الامور. مات الحاج داود وله خمس أبناء: ابوبكر، عمر، عثمان، علي والحسن وإبنة واحدة هي فاطمه. مات الحاج داود شوكت وقد اتم تأسيس تجارة امتدت من القرية، إلى حلفا، مصر، زالنجي، جوبا والقضارف وترك لأبناءه اكبر سواقي القرية، اخصب أراضيها وكميات مهولة من النخيل. جلس الابن الاصغر علي ليهندس امور العزاء وحوله ازدحم الابناء والاحفاد والاقارب وأهل القرية. كان علي يحمل كراسة وقلم

كوبية ويكتب كل الترتيبات ويوزع المهام.

جلس علي داود مع احمد الذي يعمل في البوسطة وراجع معه كل التلغرافات التي سوف يتم ارسالها إلى عثمان في مصر، عمر في جوبا، الحسن في نيالا وفاطمة في القضارف، مدير المديرية، الملك في دنقلا، الاحفاد الذين يدرسون ويعملون في العاصمة وشيوخ الادارسة في دنقلا وامدرمان. تم الاتصال بالحسن في زالنجي، وعمهم احمد شوكت وأبناءه في لندن من الكول بوكس الموجود في دكان الحاج داود، كما اكد علي أن يبلغ ناس الخرطوم داود ابوبكر داود، الذي اعتقل في مظاهرات ضد الاستعمار وسجن في كوبر. الوحيدان اللذان لم يوضعا في الاعتبار كانا محمد ابوبكر الذي كان يحارب في فلسطين، وعثمان ابوبكر الذي يعمل في البواخر الكبيرة في انحاء العالم.

ارسل البعض لجلب كل قرب الماء، المصنوعة من جلد الغنم التي تعالج بالقرض لتنظيفها من اللحم والبقايا، من كل البيوت والسواقي والمسجد، نصبها امام ديوان العزاء في بيت المرحوم. بدأ عبده بوشي، على ببلو ومرجان في ملئها، بعضها من الابار وبعضها من مياه النيل.

فرشت البروش تحت الرواكيب والأشجار وفي الظل. بدء العمل على نصب راكوبه سريعاً امام المنزل، إضافة للموجوده واحضار السجاد الفاخر، وارد مصر، من منزل المرحوم وأبناءه والكراسي الفاخرة لوضعها في الراكوبة الجديدة، استعداداً لاستقبال مدير المديرية الانجليزي واعضاء مكتبه، العمد، المشايخ وكبار الموظفين. تم تخصيص عدد من المنازل، كنسها وفرشها واضافة العناقريب إستعداداً للضيوف من كل المنطقة وحدد منزل علي المجاور كمطبخ لتحضير أكل المعزين.

في القرية تتولى البيوت المختلفة، قريبها وبعيدها بتوفير كل الوجبات المختلفة للمعزين، الشاي، القهوة والجنزبيل وغيرها. لكن كان علي داود يعلم أن العزاء سوف يتجاوز قدرة كل البيوت وسوف يحضر خواجات، ملك دنقلا، العمد، موظفين ورجال دولة يحتاجون لاطعمة من نوع خاص.

كان الحاج داود شوكت قد بدأ في هذه التغييرات في حياته، ففي الاعياد كان أهل القرية يصحون مبكراً ويتجهون للمقابر وقد حملوا جريد النخل وقطع البتاو، يصلون صلاة العيد وبعدها يزورون القبور، يضعون افرع الجريد، يرشون الماء ويقرأون الفاتحة. يزورون بعضهم ويتناولون الزنجبيل والكعك. ادخل الحاج عصيدة الويكة والشعيرية المكنة، وكانوا قبلاً يصنعونها يدوياً، في افطار العيد الصغير وشراب الليمون البارد الذي يبرد في التلاجة التي تعمل بالكيروسين.

بنى الترابلة من الصبح الباكر زريبة بجوار منزل الطبخ، احضرت كل التيوس من كل زرائب القرية، اعداد من العتود وثلاث عجول، اثنان من ساقية المرحوم وعجل من ساقية ابناء اختهم، وتم ذبح أحداهما مع اربع تيوس. تم جمع كل البيض من بيوت القرية والديوك القابلة للذبح. قامت العربة الفورد باحضار شوالات البصل، ربطات التوم، شوالات الفول، العدس، الفاصوليا، صفائح الزيت والسمنة، الجبن، الطحنية، السكر، الملح، الشاي والقهوة من مخزن الدكان، كما احضروا شوالات القمح والذرة من مخزن الساقية.

اعداد من النساء بدأن في نصب الرحايات من البيوت المجاورة وهرس الحبوب، ووضعت الدوك وجلبن اعواد الجريد الناشف والاخشاب لايقادها، لتحضير آلاف الطرقات من الكسرة والقراصة التي سوف تخرج من المطبخ لاطعام القرية كلها لمدة سبع أيام وسوف تزيد الأيام بحضور عثمان من مصر، عمر من جوبا، الحسن من نيالا والاحفاد من العاصمة وفاطمة وأبناءها من القضارف.

عند العاشرة اتجهت كل القرية للمسجد، وضعوا الجثمان على العنقريب، صلوا عليه وتحدث بعض الناس عن مآثره وتاريخه. لكثير من ابناء القرية كان الحاج داود شوكت سنداً لأهل القرية وجوارها في السراء والضراء، مرجعاً لكل الأحداث في القرية، حضر الدراويش في طريقهم لمصر وقال أنه رأي ود النجومي في منزله، وهو يافع، عندما جاء لعزومة غداء في منزلهم، زار العاصمة والقاهرة والاسكندرية والقضارف، وحلال المشاكل لكل اشكالات الاهالي مع الحكومة وصديق المدراء الانجليز. واكثر من ذلك فقد كان مؤسس عائلة داود وتجارتها المزدهرة.

في صفوف طويلة امتدت، كل ابناء القرية رجالاً، نساءاً واطفالاً، وابناء كل القرى المجاورة الذين سمعوا بالخبر، من مسجد القرية إلى المقبرة. كان علي قد ارسل الرجال لحفر القبر بجوار ابائة، وبجوار جدهم الاكبر عامر وابنه عامر تود. وكما توقع علي فقد امتدت أيام العزاء شهراً كاملاً مع توافد الابناء والاحفاد. سوف يتذكر الذين حضروا ذلك النهار الشتوي هذا الحدث بنصاعة شديدة وسوف تدشن في مجملها صعود اسرة الحاج داود شوكت زراعياً وتجارياً واجتماعياً، لتصبح أحد اعمدة المنطقة إقتصادياً.

سليم بيرقدار

سوف يحافظ سليم بيرقدار على عادتين معظم حياته في الحي الذي ولد فيه. يفتح دكانه كترزي افرنجي، يخيط البناطلين، القمصان بانواعها والبدل الكاملة في تمام التاسعة صباحاً ويغلق عند الخامسة، خمس أيام في الاسبوع، عدا يوم الخميس عند الساعة الثالثة. واشتهر أنه رفض إستلام بدلة لأحد أعضاء مجلس السيادة احضروها بعد مواعيد العمل. العادة الثانية التي سوف يحافظ عليها الذهاب للنادي الرياضي للحي عند السابعة، لقراءة كل الجرائد اليومية الموضوعة في مكان الجرائد في القاعة العامة، سياسية، ثقافية، رياضية ونشرات الوزارات، يقضي النصف ساعة الاخرى في تجاذب اطراف الحديث وساعة في دور كوتشينة ويخرج عند التاسعة.

يومان في الاسبوع، الاثنين والخميس، يترك النادي في الثامنة، يذهب للبار ويشتري زجاجتين شري ويتجه لبيت صديقه القطب الإتحادي الكبير ويقضي سهرته هناك اما وحدهما او في صحبة زوار آخرين. ورث سليم بيرقدار انتمائه للاتحاديين من والده وجميع اسرته، إلا قليل انتموا للحزب الشيوعي وواحد للإخوان المسلمين. كان هذا النوع من العلاقات المتداخلة ما ميز الحياة الاجتماعية السودانية، فقد دأب كافة القادة السياسيين، وعلى رأسهم اسماعيل الازهري، الاختلاط، التزاور والتداخل مع كافة القطاعات. سوف تجدهم في آلافراح، صيوانات العزاء، المستشفيات وغيرها. وقد الف أحد ظرفاء المدينة أن الازهري عندما كان في زيارة لانجلترا وسمع أن الملكة اليزابيث "نفساء" زارها ووضع بعض الجنيهات تحت المخدة "حق اللبن".

المنزل عامر بأكله وشربه، لكن في هذه الليالي يتجمع الاصدقاء، يحضرون الشراب، المزة، أحياناً السمك المشوي، وحتى خروف مشوي من الفرن محشواً بما لذ وطاب. عندما ينشطون في احاديث ساس يسوس سوف يخرج من يافوخه التحليلات المتماسكة، يسندها قراءات الصحف اليومية، احاديث الزبائن، رواد السوق المتنوعيين، علاقاته الممتدة مع كبار الموظفين، الضباط، الامن السياسي، التجار ورجال الاعمال. شبكة اتاحت له أن ينظر من زوايا متعددة. اضافت له اسفاره للقاهرة وبيروت التي كان يجلب منها الموضات الجديدة، تسني واديس ابابا لرحلات المتعة. وفي كل شهر كان يقوم بقراءة اهم كتاب صدر في ذلك الشهر.

الشعب قد اسقط عبود في ثورة شعبية غير مسبوقة، عن طريق المظاهرات السلمية، الإضرابات حتى توجت بعصيان مدني، والبلاد مقبلة على الانتخابات. صديقه مرشحاً للدائرة، ولأنه يعرف قدراته فقد ضمه نائباً للرئيس في حملته الانتخابية، وابلغه أنه يوده الرئيس لكن الرئاسة يقررها الزعيم شخصياً. من قرأءة بعض الكتب عن سيرة غاندي، عرف منها أنه كان يسير في القرى لتوعية الاهالي حول القضايا التي تهمه. سوف يبتدع سليم بيرقدار طرق في الدعاية الانتخابية غير مسبوقة من قبل، اسماها الاعلام الشعبي.

على غير عاداته، يصحو من الصباح ويتناول كوب الشاي باللقيمات على عجل ويخرج لموقف البصات. يركب البص الذي يشق الدائرة ويبدأ في الدعاية وسط الركاب، في أول الامر سخروا

منه، فقد تعودوا على البيانات، الصحف والليالي السياسية، لكنهم قبلوا طريقته بعد لأي. بعد أيام لاحظ أن من يحاوروه ويحاولون نقد برنامج حزبه هم الشيوعيين. كان قد قرأ كثيراً من الكتب الشيوعية، ومتابع جيد لكل وثائقهم السرية أيام عبود. بدأ بعد اربع أيام في مهاجمة الشيوعيين، الذين كان لهم مرشح قوي في الدائرة. كان الهجوم عليهم سهلاً، فقد اتهمهم بالالحاد، وانهم بلا أخلاق وسوف يحولون المساجد لبارات، والخلاوي لرياض اطفال. اتسعت الدائرة التي كان يتناولها واصبحت احاديثة اليومية تثير فضول كل ركاب البصات، حتى أن الكمسارجية دعوه يركب بالمجان.

بدأت حملته تثير انتباه الاحزاب السياسية، الصحفيين، وركاب البصات في الخطوط الاخرى. اصبح له معجبين ومناصرين، بل وتمت دعوته من مرشح اتحادي آخر ليقوم بالدعاية له في منطقته. حاول الاخوان المسلمين استغلال هذا الوضع وارسلوا في أحد البصات أحد كوادرهم. عندما اراد الحديث ومؤازرته، شخط فيه وقال اسكت يا، ولم يزد ولم يعرف الركاب ماذا تعني يا. لاحظ بعد أيام أن الشيوعيين حرصوا على أن يركب معه أحد "النضامين"، وجد نفسه يواجه شبان مدربين على النقاش والمحاورة. سوف ينتصر وينهزم في هذه المجادلات، لكنه كان قد اصبح مركزاً اعلامياً منشراً وسط ابناء الدائرة.

ادخل سليم بيرقدار نوعاً آخراً من انشطة الدعاية الانتخابية، شاهدها في فيلم امريكي عن الانتخابات الامريكية، يزور فيها المرشح الناخبين في منازلهم، للحديث معهم، مناقشة قضاياهم واجراء التعديلات المناسبة على برنامجه في الدائرة. اختاروا بعض البيوت المناسبة ليتم التجمع فيها، لكن قبلها كان المرشح يدخل المنازل، منزلاً منزلاً، يجلس قليلاً ثم يتحرك للمنزل الآخر مصحوباً بسكان المنزل الأول حتى نصل لمكان الاجتماع. نجحت هذه الزيارات المتعددة التي نظمت بدقة، وكان اهم ما فيها أن يقدم المنزل ما هو متوفر، حتى لو ماء من الزير، وأن لا يتكلف صاحب أي منزل، رغم ذلك فلم تلتزم الاسر بذلك، لدرجة أن أحدهم فاجئهم بذبح عجل عند دخولهم وحول اللقاء لعشاء كامل للمجتمعين.

فاز مرشحه في الانتخابات ومع تكوين الحكومة تم تعيينه وزيراً للداخلية. بعد الاحتفالات الكثيرة التي تمت، عاد لحياته العادية. بعد اقل من عامين صوت مرشحه ضد حل الحزب الشيوعي. ورغم عدائه وعمله الميداني ضدهم فقد كان من انصار أن الفكرة لاتهزم سوى بالفكرة. جاهر بهذا الرأي أمام الزعيم نفسه، وذكرهم أن الشيوعيين اشتركوا في كل الانقلابات، عدا عبود، إنهم بهذا يدفعونهم في هذا الطريق. عندما ذهب لكي يتوسط الوزير لقبول ابنه في كلية البوليس سد طرق مقابلته. بعد محاولات عديدة منه والاعتذارات أنه مسافر، اجتماع واغلبها نائم، قال للحرس أن يبلغه: **زمان ما كنت بتنوم يا ابن الكلب**. رغم الاجاويد من الوزير والزعيم سوف "يحرن" ويلتحق ابنه سعد بكلية الحقوق بجامعة القاهرة الفرع.

تزوج سليم من ابنة عمه وقد رزقت له بسعد بعد حوالي السنتين من زواجهما، وبعد أن ضجت الاسرة من تاخرها. لما تأخرت في الحمل للمرة الثانية، استدعى هذا السفر للقاهرة، بيروت واخيراً للندن. بين هذه السفريات أرادت والدته تزويجه من بنت اختها، لكن أشارت كل الدلائل

أن العجز منه وليس من زوجته. كل الاطباء اخبروه أنه محظوظ بهذا الابن الوحيد. بعد اربعة اعوام من المجاهدة في المستشفيات والعيادات، اقام قعدة موسعة، شرفها الكابلي حتى فجر اليوم الثاني، واعلن فيها لكل الاصدقاء، أنه كان يملك طلقة واحدة أصابت والباقي كله فالصو.

عندما سمع أسماء قيادة الثورة صباح 25 مايو 1969، كان يعرف اغلبهم، فقد كانوا زبائن لديه. اتصل به بعض قادة الحزب، وجاءه ثلاثة منهم في المنزل للتشاور. الشيوعيون الذين طردناهم من البرلمان عادوا للوطن من النافذة عبر انقلاب ابيض سهل. كانت الأولوية اطلاق سراح الازهري من المعتقل، خاصة وقد تواترت الانباء بتدهور حالته. سوف تهرع الأحداث من استشهاد الزعيم، أحداث ود نوباوي، معركة ابا ومقتل الامام الهادي. كل ما عشناه من قبل كان شيئاً والذي سوف يتلو شيء آخر. لن تتوقف الأحداث لكنها سوف تتصاعد لتنتهي بزعماء الشيوعيين اما اعدموا في الدروات او علقوا على اعواد المشانق.

عقدنا اجتماعاً كبيراً في أحد المزارع لتحليل الوضع بعد أحداث 19 يوليو 1971 وما تلتها، كان رأي اغلبنا أن الفرصة سانحة الأن ان يتقدم الاتحاديين لملء الفراغ، خاصة وأن الانقلاب وقد فقد سنده من الشيوعيين، وبحكم علاقاته مع مصر يحتاج لقوة تدعمه. آخرون رأوا أن علينا التمسك بمبادئنا في اعادة الديمقراطية. سوف تحمل هذه آلافكار للقيادة في الخارج للتقرير بشأنها. كانت هذه المرة الأولى التي يكون لدينا قيادة للخارج واخرى للداخل وسوف تستمر لعقود قادمة.

استمر معظم اعضاء قيادة الثورة والمسئولين الكبار كزبائن للمحل، خاصة وقد بدأنا في خياطة بدل السفاري التي يحبون ارتدائها. عندما حضر أحدهم ذات صباح جهزت أوراق ابني، الذي اكمل الكلية، نجح في امتحان "البار" ويعمل محامياً في مكتب أحد كبار المحامين. عندما طلبت منه أن يساعدني في استيعاب ابني الوحيد في الشئون القانونية للقوات المسلحة. قال لي ضاحكاً أن هذا قرار كبير لايقدر عليه سوى النميري وقال أنه سوف يحدد لي ميعاداً معه.

النميري زبون للمحل منذ حوالي العقدين، اخيط ملابسه آلافرنجية كلها، وبعض الاحيان يستلف مني بعض النقود لآخر الشهر. التقاني في منزله بالقيادة العامة. سوف يدور بيننا حوار طويل حول مشاركة الاتحاديين معه، وحوجته لهم لدعمه وسط هجمات الشيوعيين. وأخبرته بموقفي حول التعاون، وامكانية الاحتفاظ بالجمهورية وفتح الابواب للاحزاب للعمل واجراء انتخابات حرة. انتقل فجاءة لموضوع ابني وضحك وهو يعيد عليّ "حردتي". وافق على طلبي باستيعاب ابني. حدثته عن رغبتي في تصعيد قطعة ارض درجة ثالثة، في أراضي تم توزيعها في امتداد الحي، للدرجة الثانية. قال أنه سوف يعدلها للدرجة الأولى كي ابيعها وابني بيت الدرجة الثانية.

عندما استشاروني في امكانية اسقاط النظام بواسطة هجوم مسلح من الخارج، ابديت استغرابي وحملت من جاءني اعتراضي الشديد، وقلت له أن لايخبرني بأي معلومات اضافية لأن هكذا افضل. تم اعتقالي بعد أحداث يوليو 1976، وهددوني بالتصفية في وادي الحمار، حيث لن يعرف لىّ قبر. أخبرتهم أنني عرفت بالموضوع قبل اكثر من عامين، لكنني ابديت اعتراضي الشديد، واعرف من تجربتي أنه في مثل هذه المواضيع آلافضل أن لاتعرف شيئاً. كما قلت للمحققين أنني من المعترضين على القيادة من الخارج، وأن على السياسي أن يكون وسط جماهيره إذا اراد

تغيير الحال. من بين التحقيقات عرضوا على العمل معهم، فنهرت المحقق وقلت له اخجل.

تم استدعاء ابني والتحقيق معه، وكنت قد أخبرته أنه قد تم الإتصال بي قبل حولي الثلاث اعوام، وأنني من الرافضين للعملية نفسها، واعتبرتها مغامرة سياسية فطيرة. تم اطلاق سراحي بعد ثلاثة اشهر قضيت معظمها في سجن كوبر. من ضمن الزوار جاء أحد اصدقائي من قيادة الثورة القدامى، لازال مؤثراً، اخبرني أن ابني سوف يحال للصالح العام، وأنه قد اتصل بأحد الاصدقاء الاماراتيين وقد وافقوا على استيعابه في نفس درجته في الشئون القانونية للجيش هناك.

داريا

عندما دخلت داريا الساحة خفقت القلوب، إرْتجفت، إرتعشت وتزلزلت. راغت الاعين، تطلعت، حدقت وهمهمت.

في الاعراس سوف يقتعدن خلف امهاتهم، اعينهن الوسيعة تلمع وتعكس بهائهن على ضوء الرتاين. اعيننا تتابع عيونهن اللامعة، نقتنص لفتة جيد، ضحكة خجولة او بسمة عجلي. الامهات يهيئن المسرح، يبدأ التصفيق المنمق من صفوف الشبان، تتصاعد الزغاريد وتعلو وتسيطر على الساحة. الليلة تبدأ الحكايات وتنتهي. في إيماءة عيون ضاحكة، نظرة نفور، رعشات قبول واهتزاز خدود.

استعدت داريا لهذا العرس، ليس لاهمية العريس وعروسه وهما من احفاد الحاج داود شوكت، لكن لأن الحفل يحييه الفنان دهب خليل. سوف يتوافد كل أهل القرية، القرى المجاورة ومن المنطقة كلها. هذا يوم تعد فيه الامهات فتياتهم للبروز والبزوغ مهيئات للزواج. دهب خليل صاحب الدهبية، نجم فناني المنطقة وفارسها المعلى. إفضل المشببين، الوصافين وكاشف محاسن النساء.

دهب خليل الاعمى له مرافق يلازمه مثل ظله، ليوصف له ما يحدث، منها يواصل دهب اضافة اوصاف جديدة للأعنية. عندما تبدأ الحفلة، يئن الطمبور ويرن ترررررن...ترررن، يسود صمت مطبق، لا نأمة ولأحس، تخفت أصوات تنفسنا، وترهف مشاعرنا وتتجمع في صوت الطمبور والقصيدة المنشودة. يدخل الساحة مجموعة **"الشيالين"**، الصاحبين للفنان بالتصفيق والرقص. هناك مجموعات عديدة، كل مجموعة تتكون من اصدقاء من المتجانسين في الايقاعات.

كل الاغنيات التي نظمها الشعراء، رددها المغنيين واستخدمها شبان وشباب للتلميح والتصريح بمشاعرهم، تنظم في نساء بعينهن. ساحات الرقص البوتقة التي سوف تبدأ فيها حكايات الحب والغرام، ومسرحاً لتبادل الرسائل المستقبلية. سوف يصف المغني بعضهن، والكل يعلم لمن الفت القصيدة، الشاعر الذي هواها وربما تفتتح الرقص وقد تزوجا وانجبا البنين والبنات، لكن القصائد لا تموت وتستمر في انديا دوائر المشاعر.

داريا هي الجيل الثالث من ابناء داود شوكت، كما حالي إبراهيم عبد الحميد علي. برغم أننا تقريباً نعيش في منازل متداخلة، فقد همت بها كما فعل ابناء القرية، على اعتاب الرجولة. قد تم قبولها في المدرسة الثانوية، غنى لرحلاتها الشعراء، لكن اهم من ذلك فداريا اجمل بنات قريتنا وربما كل المنطقة.

العرس كما قال والدي، ومئات من الضيوف في الساحة، يقتعدون البروش المزينة، تلتمع اضواء الرتاين على الميدان الكبير، لم يحدث في منطقتنا من قبل. كان اختباراً حقيقياً لدور عائلة الحاج داود وقدرتها على الاستمرار. رنات الطمبور، صفقات الايدي، حركة الارجل وفي وسط هذا نساء يرقصن. كان مرافق دهب يبحث عن الموعودة بالليلة. يشيرون لداريا أن تدخل الساحة

وهي تشير لهم: **لسه**. في الفاصل الثاني، مجموعة من قريتنا نزلوا شيالين.

داريا في الساحة توقفت القلوب، إختلجت النفوس، تقلقل المكان وترجرج، إهتزت أفئدة الشبان وارتعشوا. بان الحبور على مرافق دهب، تبسم وضحك. تقدم من داريا وبشر فوقها وتوقف حيالها يطلب الشبال. على غير عادته صاح: **قمحية**. سوف يحتج الحضور، يصفرون ويهرجون. اعاد المرافق تقييمه: **بيضاء**.

صوت الطمبور يشق عنان القرية، ترجع النخيلات والأشجار الضخمة صداها، وترجعها التلال الرملية الناعمة. يتجادل مع مرافقه ويغرق دهب في وصف الأبيض، بتنوعاته وألوانه. يلح على داريا، التي تركوا لها الساحة مع مجموعة الشيالين، أن تضرب الارض بقدميها الناعمتين كما تدق نسائنا عجين القمح ليسمع ايقاعاتها.

غابت داريا في اللحن ومال المرافق وهمس لدهب. تناقل الحضور الكلمات من شفاه لفم: **خصر ضيق**. تتصاعد رنات الطمبور ترن ترن، يتعالى صوت التصفيق، الزغاريد تلعلع والاضواء تشع. الجلوس يقفون. الواقفون يتقافزون. كل العالم اختصر في تلك الليلة لساحة الرقص. داريا ملأت الساحة بطيفها السحري. نأت وقربت، هيفاء مقبلة وعجزاء مدبرة. تقدم رجلاً لتوخر قدماً، تتثنى، تتأرجح، تتلوى وتعود. لفها اللحن بغلالته السحرية.

غاص دهب خليل في الخصر النحيل والقدود وجاس، توافدت عليه كل الاوصاف ينظمها ويرددها ويعيد. تجول وحام وغطى كل تفصيلة في وصف داريا من وقع أصوات قدميها فوق البرش، من تصاعد الطيب في الاجواء. حس ايقاعاتها يدخل كياننا ويهزنا. **عيون بيضاء واسعة**. جن جنون الطمبور، فقد الشيالون صوابهم. يطرقعون فتصل الى الجبل وترتد في صدى صاخب. كل النساء يزعردن. نزلت خمس نساء ليساندنها، هذه مجموعتها. ضربتهن في الارض متناسقة، رفعهن لارجلهن مموسقة وحركتهن في هارمونية كاملة. دورانهم حول نفسهم متآلفة متجانسة.

في العيون تاه دهب وذهب بعيداً، لمعة العيون في ضوء القمر، عيون الغزال، البقر الصغيرة، لم يعد هناك للعيون مكان تستريح فيها بعد أن داهمها دهب في كل ارجائها، حاصرها ومازجها ونسج منها شعراً سيخلد في التاريخ.

فجاءة، تحول دهب خليل إلى الرجاء من داريا، وبدأ يعترف أنه مهما وصف وغنى لن يصل لمكامن حسنها الغالب، وجمالها قد غلبه. الجمال البعيد، الجمال النافر. أعطاها قصب السبق بالفوز. توقف الطمبور، توقفت الراقصات، توقفت داريا، توقف الشيالون وشخص الحضور وارهفوا وبدا كأن الميدان خال.

تقدمت داريا من دهب خليل واعطته شبالاً، جعلت شعرها فوق كتفه كأنها لدهور، ثم انحنت وحيته برشاقة، كان دهب قد وصفها قبلاً وقالت: **والله يا دهب خليل غلبتني بوصفك وحيرت الناس، شكراً ليك يافنان ياعظيم، شكراً ليك.**

الصفية بت حسب الله

حسمت الصفية بت حسب الله موقفها. شرطها للزواج أن تستمر في تجارتها. أزرق الذي غاب عنها طوال عقد كامل في كل انواع الحروب ودخل البرلمان نائباً عن حزب الامة، تهللت اساريره، ابتسم وضحك. **حرم الصفية لو خلت التجارة، آني اطلقها**. لن تتنازل الصفية لأي جنس مخلوق عن كينونتها وهي تجارتها. تنازعها حبها للافندي ومحمد زريقة لكنها حسمتها لصالح زريقة. الافندي سوف يتزوجها ويريدها زينة منزله، لن يتركها لتجارتها كما عبر عن ذلك كثيراً.

الجمع منتظر على التله الرملية، توافدوا من كل الخيام المنصوبة على أطراف القوز، العربان عادوا من مضاربهم ومواقع رعيهم. الرجال يقفزون عالياً والصوارم تلمع في ضوء الشمس، ودقات النحاس تهز المكان. ليلة من أيامهم التي سوف يحكونها طويلاً. أعاد محمد أزرق ابلهم المسروق منفرداً. الحكامة ومن ورائها النساء يغنين:

زين الرجال زريقه

فزعوا في سريقـــه

رجع البل مريقــه

الله يعدله طريقــه

رأها من بعيد وهو يقف على الكثيب الرملي، وهم يحطون رحالهم في الاسفل وينصبون خيامهم، طالت وتبرعم نهداها. في الصباح الباكر عندما جاءت واردة البئر إنتظرها، مضت خمس سنوات منذ آخر لقاء. تتالت ليال وأيام، التقاها وحكى لها عن السنوات الطويلة، وواعدها في الليالي القمرية والمظلمة خلسة وعلى عجل..غنى لها وله غنت.

في تلك الليله وقد نحرت الذبائح وأنارت اضواء الرتاين حلكة الليل، بدأوا الرقص والغناء، قطعت لهم الحكامات قصائداً، ستمشي بها الركبان، في شجاعتهم ودهائهم وزغردت لهن النساء وهز الرجال فوقهم وتقافزت الفتيات كالظبيان، ورقصت له الصفية، وحده من كل الجمع، فبزت الفتيات، متمايسة بشعرها الطويل تلقيه على عنقه يميناً وشمالاً فتخترقه رائحتها نداً وحناء، وصندلاً وليموناً طازجاً.

التقاها في ليال قمريه وتذكرا أيام الطفولة، وفي آخر ليلة رآها حدثها بأمر الزواج فضحكت وراغت منه وجرت. استغرقه الحديث خريفان حتى اقتنعت والدته بأن تذهب للحديث مع أهلها، ولم ترض إلا بعدما هددها بأنه سيأخذها جبنقة. غابت والدته وأهلها اسبوعين ثم عادوا. بت حسب الله صاحب الف من الابل ومنزل من الطوب في البلد لا يعطي إبنتة هدراً. تخالف أزرق بنات نعش التي قد انقلبت إلى قبة السماء الغربية، سيعود إلى هذه الديار، ديار الصفية، وقد ساق امامه الفاً من الابل يسكت بها خشم الشايب، وورائه أخواله واعمامه فرسان التعايشه والبرتي مسلحين بالسيوف، الحراب والكلاشن. حمله الليل الذاوي إلى البعيد، وتراءت له أصوات بعيدة

لعربات على الطريق فتوجه نحوها. *[1]

مضت خمس سنوات على تلك الليله، حارب فيها أزرق كل العرب الذين رفضوا أن يزوجوه. الصفية قد أصبحت في خياله رؤى ضبابية، لم يعد يحسن الإمساك بها، ماضي سحيق قد فقد الصله به. عاشها في عمر ليس عمره. أحب أزرق الفتيات من كل صنف ولون، بائعات المريسة في أسواق الغرب، زوجات المغتربين في ليبيا، أسيرات عربيات في معسكرات القتال، فرنسيات في بارات انجمينا، كنغوليات وكاميرونيات وفلاتيات، ظامئاً إلى البحر الندي الذي لا وصول له. رغم كل النساء في حياته الصفية وحدها كالدمل في قلبه، يحيطها ويقاومها ويميط عنها اللثام أحياناً.

الصفية وسط الجمع بعيونها الجميلة، تتأرجح كظبي شارد، حافية القدمين ترتدي ثوباً احمراً ذا خطوط ذهبية تلمع مع الضوء. الثوب ينحسرعن شعرها الاسود الطويل، نهداها يوشكان أن تحلقا حين تتمايل مكرة، مفرة، مقبلة ومدبرة، والضوء يتسرب خلال خيوط الثوب. رموشها الطويله سوداء فاحمة تفترش ثرى عينيها المغمضتان تختلس بينهما النظرات. اختلطت رائحة الوهاد الوسيعة مع رائحه الند والصندل. أصوات فتيات ينقرن الدلوكه.

الشفه البى نتيلـــه
ملضوم بى حريـره
تجى له نشيـــــله
مريحه وتقيلـــــه

وهما في مليط سمعوا بالانقلاب. عاد أزرق للسجن مرة اخرى بعد حوالي الاربع سنوات قضاها نائباً في البرلمان، ويسكنون في منزلهم في الخرطوم. أنساها أزرق كل حياتها السابقة، يهنأ في كنفها من وعثاء الطرقات القاسية التي سارها في حياته. انجبت بنتها الأولى، وهي الصفية الخالق الناطق، حتى وهي عدة اشبار، تبتسم مثلها، ثم ولدت حسب الله، لايحمل منه سوي عينيه اللامعتين وباقيه منها. الصفية تحب عيون أزرق، صوته الخفيض، جلسته للقهوة، أبناءه وحبه لها.

بعد ثلاثة اشهر اطلقوا سراحه على أن يلزم مليط ولايغادرها. عركت الحياة أزرق وعرف تقلباتها، عندما أحس في نهاية العهد بما هو آت، نقل الجزء الاكبر من اعماله لانجمينا. عادت للمتجر وكان يديره أخاها. إستقر بهما الحال في منزل حسب الله، الذي أصر علي أزرق أن لا ينفصل ببيته وهو في آخر عمره. خمس سنوات كاملة امضاها أزرق في نواحي مليط، يسافر أحيانا لتشاد، خاصة بعد إستقرار اوضاعها. رأى أبناءه يكبرون امامه. اصطحبها في رحلاته أحياناً، لكنهم يعودون مسرعين وكأن حياتهم معلقة بكثبان الرمل وأصوات الابل.

غاب أزرق عنها لمدة خمس سنوات منذ نهاية التسعينات. الحياة كدر ومشقه تعيشها بين فترة سعادة واخرى. طوال هذه الاعوام تترك أبناءها وتسافر للحاق به. عطشى لأزرق وجوعى.

---

[1] أحداث لقاء الصفية وازرق جاءت في رواية السندلوبة

تحس حياتها فارغة بدونه وارهقها السفر الكثير. حددت حياتها سفريات أزرق ومدارس الابناء. بعد وفاة والدها، جاءت خديجه كبرى والدته لتعيش معها. التقيا في انجمينا، طرابلس، اسمرا، القاهرة، باريس وحتى في دار السلام. لقاءاتها المختلفة بأزرق كل شهرين تقريباً جعلت حياتها وهجاً مستمراً. كأنهم عروسين ما زالا، يبعدها عن المدينة نصف اسبوع، تحكي له فيها تفاصيل حياتها وعن أبناءه، تجارتها، حكايات والدته وكلتوم ويسعد.

الحرب وصلتهم وانفجرت في دارفور. لم يطلعها أزرق على أي شيء، وتحس أنه جزءٌ منها. قال لها حين سألته ذات يوم: **الصفية اخير ما تعرفي عنها شيء**. في زياراتها تلتقي بهم، يسلمون وبعضهم يجلسون والونسة وشرب القهوة، التي يحمل أزرق ادواتها معه اينما حل، لتجهزها له، لكنهم لايتحدثون أمامها. وصلت الحرب مضاربهم، أحياناً انتهكت حياتها واصبحت الاغنيات تتحدث عنها، الرقصات تعبر عنها، والأحداث تهيج ذكرها. صحيت الذكريات القديمة عن حرب الانجليز مع السلطان علي. بدأت زياراتها تقل لأزرق واصبحت لقاءتهم تقتصر على اجازة المدارس حيث يقضونها غالباً في القاهرة.

أخيراً عاد بعد إتفاقية نيفاشا. لم تذبح هذه الاعداد من الابل والعجول والخراف في تاريخ مليط مثلما فعلوا لأزرق. كلتوم وخديجة كبرى وحدهما نحرتا جملين وثلاثة عجول وخمس خراف. كل دكان في مليط نحر ذبيحة. حلفوها بالبيت الحرام أن لا تساهم. استقبلوه في مدخل المدينة بالدم، ركبوا جمالهم، خيولهم وعرباتهم وتزينوا، اظهروا سيوفهم وحرابهم والكلاشنكوف، هزوا عليه بالسياط، وهم يبشرون ياعريس. اقيمت الاحتفالات وحلقات الجراري.

خمس سنوات اخرى كان أزرق بينهم. مصاحباً حسب الله معه اينما حل وسمحت له ظروف الدراسة. صحبه في اجازة الصيف وزار معه كل ربوع دارفور. قال لي: **نحنا دخلنا السياسة رجاله ساي، ولدك يدخلها فهمان**. كان قد اتفق معها قبل ذلك أن اتابع تعليمه بحرص شديد، فأنا راجل البيت. اجهشت بالبكاء وهي تحتضنه وقد احاطها بذراعيه القويتين. حسب الله عرف بين أنداده بالشجاعة الفائقة، من والده فارس الفرسان، وجراءته التي ورثها منها. وهو في السابعة عشر، نحيلاً، طويلاً، أبيضاً، محكم قسمات الوجه بعيونه اللامعة، اصبح في غناء البنات وحداء الحكامات. حبوباته سوف يبخرنه كل صباح ومساء، وهو يتقبلها ضاحكاً وسعيداً.

زوجا بنتهم ورحلت مع زوجها إلى منزل الخرطوم، تركت في القلب لوعة، اطفأها أزرق بعاطفته الشجية، ورحلاتهم المتعددة لها كلما شعرت بالشوق لها. لكن ما سوف لن تحتمله فراق حسب الله للدراسة في الخرطوم. تبكي ليال طوال وأزرق يضحك ويواسينها. اصبح حسب الله يطيل المكوث بالمنزل، وهو يعلم أنهن محزونات. اخرجها أزرق من هذا بالسفر معها لدبي لتجهيز منزلته في منزلهم بالخرطوم. هنا ولدت حسب الله، هنا ضحك لها واسماها الصفية وهنا اسمى والده ابا أزرق.

رحل حسب الله بعد أن اعدت له مقامه. بعد شهرين اصرت حبوبتاه على السفر إليه، فشدوا الرحيل ومكثوا معه اكثر من شهر. استعرت اوار الحرب، اخترقت مضاربهم ومدت يدها القاسية لبيوتهم. قال أزرق أن الوضع في طريقه أن يسوء اكثر. وفي نهاية العقد الأول من الالفية

إستقروا، عيالها الثلاث الباقين، كلتوم وخديجه كبرى، في انجمينا. سوف يوافيهم حسب الله عبر مطارات متنوعة كل اجازة، ويشترى لها ازرق تليفون **"الثريا"** لتتحدث مع بنتها وحسب الله حين تشاء.

الحاجة حرم

ثلاث حيشان متجاورة في الحي. الحوشان بالنسبة للحاج حسين، شيطان رجيم، منزل الحاجة حرم والذي توفي زوجها قبل اكثر من عقد كامل وابنها صلاح واخته آمال، يجاورهم منزل حاج يوسف وبناته موظفات، ممثلات وفي الاذاعة. كان للحاج أولاد، لكن ما يهمه أن لاتختلط بناته مع البيتين.

منزل حاجة حرم جزء من حوش كبير، تدخل من الباب وعلى اليمين منزلة الرجال وهو مهجور لأن اغلب من يزورون المنزل سوف يجلسون في الجزء الثاني، صالة كبيرة تفتح عليها غرفتين. منزل حرم في بداية السبعينات ملتقي الشباب، والشابات. سوف تبدأ فيه قصص الحب وأحياناً تنتهي، تصنع فيه المقاطع الأولية من اعذب الشعر، تنتقد المسرحيات، تدور فيه اسخن المشاحنات الفلسفية والفكرية.

لم يكن المنزل ما جذب الاصدقاء والصديقات، فقد توفرت بيوت الشيوعيين في انحاء البلاد، لكن الحاجة حرم. لم تفتح حاجة حرم ابوابها فقط لكنها اشرعت قلبها. رغم ما لصلاح وآمال خصائصهم التي ورثوها من الحاجة حرم من الترحاب، الانفتاح، الاستنارة والكرم، هي التي فعلت. هذا هو الذي يدفع الحاج حسين أن يطلق عليه وكر شيوعيين، لانها تتحدى انغلاقه، تحجره واخلاقه الضيقة. كان هذا التعبير قد جاء من أجهزة الامن التي ارادت وصمهم بهذا الوصف الذي يحمل دلالات موحية.

سوف يجيئون لمنزل الحاجة حرم، ويدخلون باريحية كاملة، كأنهم يدخلون منازلهم، يجدون الحاجة فيجلسون ويحكون لها عن حياتهم وينتظرون صلاح، او لاينتظرون. تدخل عليهم آمال باكواب الشاي وقطع المنين والبسكويت، صينية الفطور او الغداء، تجلس معهم وتقرقر. لم يحس العشرات الذين مروا بهذا المنزل في اوقات مختلفة، بصدف حياتية متنوعة وشغف شديد، إلا انهم في بيوتهم. سوف يحسون بالحميمية والحب الكبير الذي ينشر شذاه في الأرجاء.

ذات ليلة دخل أحد اعمام أبناءها للمنزل ووجد اصدقاء لصلاح جالسين كعادتهم في المنزل الداخلي مع الحاجة وأمال. ثار الرجل وارغى وازبد، وتلفظ وطردهم من المنزل. تصدت له الحاجة بهدوئها البالغ: **أول شيء السلام، بعدين ديل أولاد ناس لاعاطلين لا باطلين. فيهم المهندس وفيهم الدكتور، ناس متعلمه وراقية. وولدي صلاح لما قاعد يمشي بيوتهم بيعمل زيهم لأنه ديل اخوانوا وأولادي.** سوف تقود هذه عبر معارك قادتها الحاجة وسط أهلها في نهاية الستينات لفرض معاييرها وتفضي عبر السنوات لتغييرات فيهم.

هنا بدأ شعراء في نسج أول خيوط قصائدهم، وكان أول جمهورهم في هذا البيت، كتبت المسرحيات وقرأت وانتقدت وعدلت، تبودلت الروايات العظيمة بينهم وقرأوها بنهم، تشاجروا عليها وحفظ بعضهم مقاطعها ورددوها. حضر المغنين وكانت بروفات الحانهم تصنع على وقع الطرقعات والصفقات. تقرأ المقالات التي تثير حوارات في المجتمع، يعلقون عليها وينتقدونها

ويكادون ان يكتبوا مقالات موازية.

ولأن البيت في حي البوسطة فهو ممر لكل الغاشي والماشي. من هنا تبدأ تحركات الاحباء للقاء حبيباتهم في حدائق مايو، جامعة الفاهرة الفرع او قهوة النشاط بجامعة الخرطوم. إلى هنا يعودون من المسرح القومي، الندوات الثقافية والادبية، ومنها ينطلقون للجندول او حديقة الموردة او أحد بيوت الاصدقاء ليبدءوا سهرتهم وتناول الشيري والبيرة، وتناول الفول، الكوارع الساخنة، الشيات او السمك حسب الجيب.

في جو معافى ومنثور عليه حب الحاجه حرم الطاغي وحنانها الدافق، سوف ينظمون البارتيهات. تبدأ الحاجة في التجهيز لها منذ أيام، ترهقهم بالأسئلة عن عدد الحضور، واسمائهم لأنها تعرف ما يفضلون من انواع الطعام الذي سوف تعده بنفسها، إذا هناك فنان لتعتني بعشائه. تحرص الحاجة على معرفة البنات تفصيلاً، وليس مجرد اوصاف صلاح وأمال العامة، عن أهلها، وهل يعلمون بمجيئها، كيف ستصل المنزل ومن سيوصلها بعد الانتهاء. اطلق صلاح على هذه الحفلات **"حالة طؤاريء"**.

المجتمع الذي يتواجد في منزل الحاجة حرم، هم من ابرز المثقفين في تلك الأيام، ولم تكن الحاجة مجرد مضيفة لهم، لكن لها إسهماتها الخاصة، وسط التراكيب المعقدة، المصطلحات الفخيمة والتجريد الشديد، لأنها تنطلق من أحساس إنساني عالي بالمساواة والعدل، كونته من تدينها العميق، موروثها المجتمعي وخبرتها الطويلة. ورغم أن المثقفاتية يحاولون تبسيط لغتهم، عندما يتحدثون معها، سوف تدهشهم بقدرتها الفائقة على صياغة افكارهم المعقدة في كلمات بسيطة وعادية من مثل: **من حق الناس البسطاء يكبروا عيالهم، يقروهم عشان يزيلوا الغبار ويصلحوا الحال.**

بيت الحاجة حرم إنعكاس لما يحدث في الوطن. صراعات القوميين العرب بقيادة النميري ومن استمالهم من الشيوعيين، والحزب الشيوعي بقيادة عبد الخالق محجوب. اخباره وهو منفي في القاهرة سوف تجدها هنا، القرارات التي سوف تصدر ربما تجدها هنا. خلقت الحاجة حرم وبعفوية، سندتها إنسانية عالية، اعتبار كل الزوار طيورها التي تعود لوكناتها، منصة مترامية الاطراف لينموا فيها. من هنا سوف ينطلق شعراء غنى لهم الوطن، مسرحيون اثروا في وجدان الشعب، تشكيلين سوف تزين لوحاتهم متاحف العالم، لكن اكثر من ذلك سوف تنسج يدها الكثير من زواجات المستقبل.

في الثلاث أيام منذ 19 يوليو 1971، سوف يغيبون كلهم عن المنزل طوال النهار، ويعودون في نهاية الليل منهكين، يتحدثون قليلاً ثم يتفرقون لمنازلهم. سوف تمر أيام عصيبة، قاسية وحزينة، الراديو يعلن عن اعدام أحد وشنق آخر. سوف تمضي أيام كثيرة تمر على المزل، يضرب بين اطنابه الصمت والسكون. كل أبناءها توزعوا في سجون كوبر، بورتسودان، كسلا وشالا وسوف يودعونهم باللعنات على العساكر ويغنون في انتظارهم

حبيبي مين شالا وادا لسجن شالا
رجعوا يا العساس وهدي لي بالا

سوف تعرف الحاجة حرم الرحيل لسجن كوبر أيام الزيارات، يستعدنّ، هي وآمال، بتحضير وجبات صلاح واصدقائه المفضلة، الكتب التي طلبوها، العراريق الجديدة والسراويل، سوف تصبح هذه رحيلاً طويلاً لسجن شالا في مدينة الفاشر. عندما تلتقيهم تجدهم ضاحكين، كأنهم في فنادق فاخرة. سوف يغسل يد الزمن آثار تلك الأيام السوداء وتبدأ السلطة في اطلاق سراحهم، مجموعات حتى عام 1976.

جاء أبناءها وقد كبروا وازدادوا نضجاً، حولتهم يوليو من شباب إلى رجال. الشعراء منهم اصبحوا قيثارات للشعب، قادتهم الصغار صاروا صناعاً للرأي العام. كثير منهم قد خططوا عبر خطاباتهم التي تصلها منهم لحبيباتهم لحياتهم ومستقبلهم، وتزوجوا. الكثير منهم قد هاجر في الموجات المتتالية من الاغتراب، واصبحوا لايعودون إلا في العطلات، يجلبون لهم الهدايا ويمضون أيامهم في النقاشات، الحوارات ودموع الشوق. هنا بدأ عمر الدوش قصيدة بناديها ليعزم كل زول يرتاح على ضحكة عيون فيها، وكتب محجوب شريف الجميلة والمستحيلة. لن تطول سنواتهم في خارج المعتقلات إذ سوف يعودون حتى تخرجهم الانتفاضة.

الخمس سنوات التي تلت، يشهد منزل حرم مسيرته الثانية حتى التسعينات، أحداث كبيرة تشهدها حرم من زواج ابنتها ورحيلها لدول بعيدة، وترحل رقية لمنزلها زوجة لصلاح. بداية التسعينات سوف تشهد عودتهم جميعاً للمعتقلات، لكن اكثر قسوة ويتعرضون للتعذيب الوحشي في بيوت الاشباح قبل ايداعهم لنفس السجون من كوبر إلى شالا وكسلا وبوتسودان.

مقداد الشيخ

عندما رأى مقداد الشيخ بندقية القنص مع ميسرة، ارتعب، خاف، بسمل وحوقل وتذكر حياته الطويلة. نصحه طوال حياته، لكنه الأن معهم. وعندما عاد في تلك الليلة عرف أن ابنه قد فعلها.

ترك مقداد الشيخ المدرسة من ثانية ثانوي، ودقش السوق، وعند ظهور كتائب مايو أنضم لها. وهو في السوق وثق علاقاته في الاتحاد الاشتراكي الكبير في الخرطوم. اصبح يكلف بإعمال متنوعة، لكن تخصصه تنظيم المواكب، المظاهرات، اللقاءات. كانوا يرسلونه للاقاليم المختلفة قبل اسبوع. بعد انقلاب يوليو سوف يصبح مهماً. الدولة لا هم لها سوى المواكب المتنوعة. لكن سوف يبدأ هذا بالتناقص مع انتخابات الجمهورية وإستقرار النظام.

من خبرة السوق تحرك مقداد نحو المحروقات. رفعت حرب اكتوبر اسعار الوقود، وبدأ السودان يعاني من شحها. اصبح مقداد من المشرفين على توزيع المحروقات للمحطات، الاقاليم والمصانع. كان هذا مصدراً متنوعاً للدخل، خاصة مخصصات الاقاليم والمصانع. تعددت علاقاته وشبكات اتصالاته وتنوعت وكلها "هبر".

مقداد يشتهر بالدقة والذكاء. مع اعماله المتنوعة، ولياليه التي تنتهي بترابيزة قمار، وبقعدات شراب مر عليها كل الفنانين، خصص الصالون في المنزل الذي بناه من الاموال للترابيزه. العادة أن لصاحب المنزل **"نصف الستة"**. انشغل المقداد بهذه الحرفة الجديدة، وارتاحت زوجته لأنه ترك اللعب.

مع المصالحة جاء اناس اخرون يراهم في المساجد، الصحف وفي الغزو من ليبيا. رأهم مقداد، وهو خبير السوق يشقون طريقهم عبر البنك للسيطرة على الاعمال، من تجارة العملة، التمويل السريع، الحرف، محلات الاسواق والعقارات. كان تركيزهم على التجارة. مع أنهم يستعملون اسم الله والآيات كثيراً، يبسملون ويحوقلون إلا أنهم كانوا صارمين في المعاملات. عندما اعلن عن القيادة الرشيدة، وهو كان عبد الله مسكيناً، اغلق دارة امام اصحابه، وتفرغ لتجارة العملة.

مع سيطرة الجماعة، ضاقت بكثير منهم السبل، وكان منهم. اتصلوا به وخيروه بين آلافلاس او الشراكة معهم. مقداد عبقري في التلون والتأرجح. لكن كادت الشراكة أن تنفض عندما أشار أحدهم عليه بضرورة ترك الخمور. ثارت ثائرته، فرغم كل شيء لا أحد يأمر مقداد. تراجعوا عن الطلب ولكن تمنوا عليه بلطف أن يستتر. كاد مقداد أن يروح فيها عندما تم القبض عليهم قبل الانتفاضة بشهر، لكن الله ستر لأن أجهزة الامن تعرفه جيداً، وأنه يعمل لديهم وليس معهم. مقداد تعود أن يحكي هذه الحكاية لأبناءه عندما يبلغون الثامنة عشر: **اعمل معاهم لكن ما تبقى معاهم.**

ولد آخر أبناءه بعد انتفاضة ابريل، فأسماه ميسرة لييسرها الله عليهم في تلك الاوقات الصعبة عليهم. اعاد فتح المنزل للترابيزه. مع اقتراب الانتخابات إتصلوا به ليعمل معهم في حملتهم. مقداد خبرة طويلة في الانتخابات الكثيرة التي عمل فيها أيام مجالس الشعب. بعدها انهال العمل عليه في تنظيم المواكب، المسيرات وغيرها. بعد سنتين سوف ينتعش سوق العملة وسوف يشكل

الجماعة مصدراً وزبائن.

عند قيام الانقلاب، ووجه بامتحان عسير، فقد طلبوا منه الالتحاق بالأجهزة. مقداد رغم عمله معهم أحياناً صديق الجميع. بدأوا **"طوالي بالاتو"**، فصل تعسفي، اعتقالات، شتم واساءات نابية. سوف يسوقون بعض رواد التربيزة، اصدقاء في السوق، ويفصلون زملاء في المصالح الحكومية. سوف تتوقف تجارة العملة، ولامثالي من رواد الليل فقد حط علينا حظر تجول غير معقول. توقفت حياتي تماماً. فاوضتهم طويلاً وتوصلنا أن اعمل معهم "متعاون غير متفرغ". كنت اعرف الأجهزة وخطرها، فهي تجرك نحوها ببطء شديد لتبتلعك.

السوق اصبح تحت قبضتهم تماماً، حتى ما تظنه به قليل براح، تجدهم يسيطرون عليه بشكل ملتوي. سدوا الابواب بالمفتاح وحملوه معهم، وسمكروا النوافذ. الخيارات ضعيفة اما أن تعمل معهم او الانسحاق تحت ضغط الحاجة. ياحليل أيام كنا نعمل معهم وليس أن تعمل لديهم.

سوف تتطور الطلبات وتم انتخابي رئيساً للجنة الشعبية. تمت مقاطعة الانتخابات من معظم الاسر وآلافراد. واصبح المنزل العامر المفتوح لابناء الحي، موئلاً قميئاً. عزلونا وتم مقاطعتنا بشكل قاسي. حاولت التحدث مع بعض العقلاء في الحي، عن عدم انتمائي للتنظيم وعن رغبتي في خدمة الحي، لكن لا حياة لمن تنادي.

جاءني ميسرة باكياً، وقال أن انداده عايروة بتغيير اسم منزلنا من "بيت النص" إلى "جحر التمساح"، وسألني عن معناهما، فاحترت. هكذا وجدت الطريق سالكاً فاجتزت الجسر الفاصل بين مقداد الشخص إلى مقداد السلطة.

تلاحقه الكوابيس المستمرة، لعنات أهل الحي وخوفه المستمر من الآتي. مصير ارتضاه وحيداً وقانعاً بمصيره، لكنه الأن يحمل وزر ابنه. الفارس الفحل، لاعاصم من الدماء ويبحث عن دمعة خلف جفن لا ينام. الذين ماتوا سيولدون في الطرقات، في الزوايا، من الأشجار والامطار والوديان، ويسألون، ولن يخير جواباً. الذين اعطوا اوامر القتل لن نعرفهم ولن نراهم، هم سوف يذبحون. سيولدون من الهزائم والرصاص الحامي ورائحة البمبان، ويكبرون ونراهم في الطرقات ويقتلون، لكنهم لن يتوقفوا عن نشيد واحد لن يموت عن القاتل.

طوال حياته اصطف مقداد الشيخ مع الرابح. من سماسرة الارض، لتنظيم ليالي الانتخابات، لنص الستة، اللجنة الشعبية، بيع أراضي الدولة وغيرها وغيرها، الأن يعلم أنه قد خسر لعبته الاخيرة، ميسرة. استعد مقداد الشيخ، ابن طين ارض الوطن، عاشقها المتيم وجذرها المتين للهجرة مع أبناءه.

عبك نفيسة

المتحري

استدعوني ذات صباح، بعد عام ونصف على الأحداث. سلموني سبع ملفات عادية تتكون كلها من صفحة واحدة وشهادة وفاة تتلخص جميعاً في **"مات في مواجهات بين الشرطة ومخربين"**، ست هواتف وبعض بطاقات الهوية. الملف الثامن لونه احمر ومكتوب عليه: **حسب الله محمد أزرق يحقق فيه منفصلاً**. فهم مما قالوه أنه عليّ اقوم بالتحري في الحوادث. على غير العادة ارفقت مذكرة تفسيرية للمهمة مفصلة. تم توزيع حوادث القتل على عدد من المتحريين، حسب نوع الرصاص المستعمل. سري جداً ويقدم التقرير بعد ستة اشهر. فهم من الاجتماع أنهم غير مستعجلين.

خططت لعطلتي بعد شهر، وهاهم يعلقون في رقبتي موت بعض العيال. تزوجت قبل عام وذاهب لإجازة في بورتسودان، لزيارة أهل زوجتي اثناء الشتاء. الموضوع بسيط، فكرت في نفسي، شغب ومواجهات أدي لقتل غير مقصود. دفاع عن النفس. وجدت ضمن الأسماء فتاه، ام فضل.

حملت الملفات للمنزل. تركتها في غرفة النوم. غبت عنها اسبوعاً كاملاً. لم تغب عني، فقد تصاعد الحديث عنها في كل مكان يقصده. واجبي المهني أن أقدم تقريراً لما حدث. النوم طوع عينيي سوف يتناثر وهو يتقلب في الفراش. بدأت تراودني احلام مزعجة قصيرة. حدثت زوجتي فقالت: **شغلك وانته عارفه كويس، وإلا ما كان ادوك ليه**.

نورس اسم جميل لفتاة طائشة وغير مسئولة. وجدت آخر اسم اتصل بها نفيسه بت الباشا. اندهشت من وجود اسمها، فهي أمرأة ثرية ومعروفة ولها اقارب عدة في كل مكان في الدولة. كعادتي قرأت كل ما استطاع عنها، سألت صولات المباحث، كما إستطعت الوصول لملفها لدي الأجهزة. اقتربت من المنزل الكبير، والمنطقة هادئة ويغطيها السكون والصمت. امام المنزل شجرة ضخمة كتب عليها بالدهان الرذاذي، شجرة بت الباشا. لأول مرة في حياتي أحس بالتوتر.

رحبت بي، عندما أخبرتها عن نفسي ودخلنا صالون المنزل. لاحظت فوراً أنها ترتدى الملابس السوداء، وعلى الحائط صورة كبيرة لاتشبهها، معلقة على الحائط وعليها شارة الحداد، وصور اخرى لنفس الشخص في أرجاء المكان. حزينة، المكان حزين وغمرني أحساس ألحزن. أخبرتها بمهمتي بالسوال عن علاقتها بالقتيلة ام فضل. **الشهيدة نورس لو سمحت**، جاء صوتها كأنه خارج من بئر عميقة. صححت وصفي.

تساقطت دموعها تأتي من نبع لايجف. أحسست بثقل في صدري، وجفاف في الحلق. حاولت أن أهمهم ببعض الكلمات لعلني أحول إتجاه المناقشة. قالت: **التحقيق ده عن نورس والله عن دلدوم**. تذكرت فوراً اسم دلدوم عوض كوكو كأحد القتلى. **ده ولدي**.

دخلنا غرفة واسعة، يبدو كغرفتين تم فتحمها على بعض. الاثاث كأنه قد استل من متحف في ايطاليا، لامعاً ونظيفاً بشكل لا يصدق. اربع فازات بحجم الرجل في الاركان الاربعة، بألوان مائلة إلى ألوان متعددة يصعب تحديدها. في الوسط منضدة من معدن لم اعرف نوعها، عليها اسطح زجاجية لامعة، تنعكس عليها صورة السقف بجلاء شديد. هناك مفارش متنوعة الألوان

على الارائك والمناضد وستارات عديدة في كل النوافذ الاربعه، تنزلق من اعلى الغرفة.

طوال عملي أحقق في جرائم جنائية عادية، سرقات، مشاجرات، انواع مختلفة ومتنوعة حتى جرائم قتل، لكنني لأول مرة أكلف بمثل هذه. عندما جلست احضروا لي جك ماء بالثلج، من الكريستال اللامع عليه نقوش صغيرة باللون الكبدي، تتساقط قطرات الندى عليها، فتعطي الأحساس بالبرودة والانتعاش. ونحن نتحدث أحضروا جكين من عصير الليمون والبرتقال واكواب من نفس شكل الجك. ثم جاء الشاي والقهوة في أواني كما رأيتها في المنازل الارستقراطية في افلام انجليزية.

عندما تفرست في بت الباشا، جميلة، ناعمة وجليلة. كل شيء فيها في مكانه. تجلس مستقيمة وهادئة. وجودي في حضرتها مريح ولكنه في نفس الوقت وسط جو عام محير وموترً. رددت في نفسي طوال الاسبوع حاجتي للحيادية، المهنية والبعد عن الانفعال. المكان يحتويني ويتسرب. نمل يزحف في داخل جلدي ببطء شديد.

اتصلت بنورس عشان تجيني عشان كنت عايزه اتكلم معاها عن خطوبتها لهباش. تدخل بسرعة: **عثمان هباش.** فاومآت. عثمان هباش أحد الملفات الشبه فارغة في غرفة نومي. **دلدوم كان مفروض يمر عليها عشان تيجي معاه، اتصلت بيه لقيت تلفونه مع رباب. رباب قالت اتصل بالبير عشان دلدوم معاه.** كنت أغرق في بئر عميقة. **البير ده منو؟. بيرقدار سعد سليم بيرقدار.** بيرقدار كان الملف الرابع. عميقاً أتهاوى في البئر.

رن هاتفاها، فاجابت عليهما معاً. **اتصبري يا داريا، جنابو المتحري معاي.** تساقطت دموع من عيناها. أجابت التليفون الآخر واسنانها ترتعش: **ابو هباش انشاء الله حنوديهم المحكمة.** كانت تنظر لي بثبات. **انشاء الله بعد عشره سنين، أأولادنا فدا....** لم تكمل وهي ترمقني بعيونها مباشرة. **دي داريا ام داود وشوكت، وابو عثمان هباش.** كانت الدائرة تضيق عليي. قلت في نفسي عندما كلفوني: سوف يحاول أن ينهي هذه المهمة في اسبوع وبالاكثر اسبوعين.

علمت أن بت الباشا قد بذلت جهوداً قاسية ليقبل فتح بلاغ حول ملابسات دلدوم عوض كوكو. احتاجت هذه لتحركات يومية لمدة عام كامل في وجه **"ملاواة شديدة"**. صرحت في عده مناسبات أنها قد نذرت حياتها لهذه المهمة. لن تكتفي بذلك فهي داعمة دائمة لأسر سبع قتلى لفتح بلاغات مماثلة. سوف توصف بإستهزاء شديد في اوساطنا **"المره المجنونة"**.

تساءلت بت الباشا عن ود مليط ولماذا ليس في المجموعة، عندما لاحظت دهشتي قالت بابتسار: **حسب الله محمد أزرق.** أخبرتها أن حسب الله حالة خاصة ويتم التحقيق فيها بمفرده. عندما نظرت إلى الصورة، رأت بت الباشا السؤال في عيوني. التبس الامر عليه، فالصورة المعلقة لشاب تقريباً غرباوي. قالت عنه أنه ولدها. ابتسمت بوهن وهي تحاول استجماع ذاكرتها.

نفيسه بت الباشا

عندما دلفت نفيسه بت الباشا إلى دكان المكوجي، لاحظت وجود صبي جديد في الدكان. سالت عنه فقيل لها أنه قادم جديد من الجبال. كان في حوالي الخامسة عشر من العمر، لامع الوجه، املساً، يتحدث العربية ويمطها. من حينها اصبح عوض كوكو مرسالها الخاص. كان لنفيسة خادمة لاعمال المنزل، ويحضر محمود ابوسنون، كل خميس، ليعد لها حلل الاسبوع من طبائخ، مشويات، اطباق السلطة المختلفة وغيرها.

كان بيت نفيسة بت الباشا اكبر بيوت الحي واجملها، ورثته وتقيم فيها هي وامها. فيه قسم الرجال وهو مكون من غرفتين وصالة كبيرة، المنزل الكبير به ثلاث غرف، مطبخ، غرفة مخزن، ثم يوجد جزء منفصل مكون من غرفتين صغار بينهما صالة صغيرة للخدم، المكوة وغيرها. يشغل هذا الجزء سعيد عرجون وزوجته وابنيه وبنتةً. هنا ولد كل اخوانها وترعرعوا وتفرقوا، ووزعوا ورثة والدها ووالدتها. نصيبها كان هذا المنزل ولها نصيب من دكاكين في السوق، ومخازن واراض زراعية.

نفيسة زينة فتيات الحي، تتقافز في الازقة والحواري في فستان المدرسة الثانوية، الطرحة البيضاء، الشراب الأبيض والحذاء الأبيض. البنت الصغرى لأحد اكبر تجار المدينة وأحد اركانها الاجتماعية المرموقة. منزلهم الكبير محط الزيارات، والدعوات والعزومات اليومية، التي تستوعبهن طوال اليوم. كل عام سوف يسافرون للقاهرة، بيروت او لندن وذهبوا لباريس والمانيا في سنوات. دولابها ممتليءً بالملابس المتنوعة والمختلفة، تشتريها اثناء العطلات، ومن اسواق المدينة حيث يخيطها لهم اشهر الخياطين، ولأنها الاصغر فقد درج اخوانها الكبار أن يجلبوا لها الهدايا من رحلاتهم المتنوعة.

وهي في العطلة بين السنة الثالثة والرابعة ثانوي، المحت لها والدتها أن زواجها قد أزف، وسوف يصرح والدها بما المحت له والدتها. اجلسها بقربه بعد صلاة المغرب وأخبرها أن ابن صديقه، وهو متزوج وله ابناء، في منتصف الاربعينات يريدها زوجة. وجمت نفيسة، وكانت تظن أنها سوف يكون لها زوج اكثر شباباً، كما حال اخواتها. لم ياخذ الحديث وقتاً طويلاً، ولكنها عرفت بعد ذلك أن والدها في ضائقة مالية حادة، واراد وصل حبائل العلاقة مع شريكه اكثر عن طريق الزواج. صفقة اخرى في حسابات والدها.

برغم الغصة التي أصابتها، مثل زواجها اكبر حدث في العاصمة باسرها. حضرت الزوجة الأولى وابنها وبنتها منذ الأيام الأولي وأصبحت جزءاً من الاسرة وبمثابة والدة ثانية لها، رقصت وبشرت وشاركت في كل الطقوس. تجمعت كل الاسر الكبيرة، الشخصيات الاجتماعية، ابناء كل الاحياء، زميلاتها في المدرسة. غنى في حفلتها كل الفنانين والفرق الموسيقية في النادي الكاثوليكي. نحرت الذبائح واعد الطباخين ما لذ وطاب، ووفر الشراب الفاخر في كل الموائد. عندما تصاعد البخور وفاحت الروائح الذكية، غنوا لها

هوي يا جاهلة وطيبك عبك سنك براقاً يسوي بق
ترنحي تشبهي مهر السبق وبين ارداڤا سديرا انطبق

عندما تمايلت على اللحن وقد حف بها أهلها، صديقاتها واصدقائها هي تتمايل على النغمات

وسط الدايره يا اجمل نايره خلي قلوبنا تطير
وارحلي بينا فراشه حنينه بين زينات وعبير
لما الخصلة تتوه طربانه تبقى حريرفي حرير

سوف تستمر الافراح لخمس أيام كاملة، لن ترى فيها زوجها إلا في المطار. سوف تسير بها الحياة مع زوجها في وداعة ويسر، مع زوج إنسان وطيب، كريماً لحدود بعيدة ومجاملاً. سوف يصر والدها أن تسكن معهم في المنزل، بعد ان تفرق كل الابناء واصبحت والدها ووالدتها بمفردهم، لكن زوجها اشترى لها منزلاً مستقلاً وفرشه لها. تعيش في توتر دائم، فبعد ثلاث سنوات لم تنجب نفيسة. سوف يقودهم هذا إلى الكثير من المستشفيات في عواصم كثيرة، زيارات استمرت حوالي العقد. سوف تحدث تحولات تجعل حياتها تتبدل لوضع جديد. عندما بدا أن لديها مشكلة انجاب، اشترى لها زوجها بيتاً ودكانين واجرهما وكانت اجرتهما تعود لها كل شهر.

توفي والدها، وورثت المنزل ضمن توزيع ورثة والدها. سوف يصبح منزلها هو مكان الحفلات، العزومات ولقاءت البزنس التي تخص زوجها، وفي احيان كثيرة سوف تحضر الزوجة الأولي لتشاركها التحضيرات. حاولت اقناع زوجها أن يسمح لها بالتبني، لكنه رفض لأنه لدية أبناء، وكترضية لها أخبرها أنه لن يفكر في أن يتزوج عليها لأنه يحبها. لكن عوض عنها وجود ابناء وبنات اخوانها واخواتها المغتربين في دول عديدة، فى المنزل في هذه السنوات للدراسة وغيرها.

عاشت نفيسة حياة سعيدة طوال اكثر من عقد، مع زوج ودود رحيم، لم يبخل عليها بأي شيء. احبت زوجها ببطء ولكن بعمق شديد. اكثر ما يسعدها أن علاقتها مع ضرتها بدأت، بفضل حكمة زوجها، بشكل سلس. اصبح أبناءه كابناء لها، يتواجدون في منزلها لأيام وينادونها بماما نفيسة. لم تستكن نفيسة لظرفها المؤلم، إلتحقت بكورسات للخياطة والتطريز، الديكور، الطبخ، كما شاركت في انشطة الاتحاد النسائي بحماسة في الحي، وأصبحت مرجعاً لأقاربها وصديقاتها في هذه المجالات. معظم نشاطها كرسته للمنظمات الخيرية واعمال الأحسان. حلت مشاكل من قصدوها، ودعمت اسراً وافراداً في مواقف شدة.

شعر زوجها بالم قليل في منطقة الرقبة ونصف الرأس، رغم أنه حاول علاجه عن طريق الادوية البسيطة، اكواب الجنزبيل وغيرها، استمر الالم في التزايد. بعد اسبوعين من لحظة وصولهم للطبيب، حجزه في المستشفى، سفرهم لالمانيا بعد حوالي الاسبوع، سوف يلفظ زوجهما انفاسه وقد استند ليديهما. بعد حوالي العقد، حياة سعيدة وممتلئة ودافئة مع زوج احبته، سوف تترمل نفيسة بنت الباشا وهي في الثلاثين من عمرها. حزنت عليه لحوالي سنتين.

لم تتوقف الاحاديث اليومية، بعد أن مر عام كامل، عن ضرورة زواجها مرة اخرى، حتى ضرتها ناقشتها كثيراً. نفيسة أحست أنها قد عاشت حياتها الكاملة في سنواتها العشر. سوف

تتصاعد نشاطاتها الاجتماعية خارج نطاقها التقليدي، وتزداد في البذل وحل ضائقة من يحتاجها ويقصدها. سوف تشرف على املاكها المتنوعة، تدرب النساء على الفنون التي تدربت عليها وخلقت حياة ليست مختلفة كثيراً عن سابق حياتها لكن اكثر إتساعاً.

مرت عدة سنوات منذ توفى زوجها، مات سعد عرجون حارس المنزل وغادرت زوجته وأبناءه، خلا المنزل سواها ووالدتها. عندما وقع نظرها على عوض، أحست بشفقة ضاجة في كيانها. سوف تتفتح مشاعر امومة دافقة فيها، غادرها ابناء الاخوات والاخوان بعد أن قضوا سنواتهم في الجامعات. سألت عنه وكيف وصل للمكوجي، فاخبروها أنه جاء للدكان يبحث عن عمل، اخبروها أنه يتكلم العربية جيداً. سوف يصبح عوض كوكو مرسالها الخاص، ويحضر في الليل ليبيت في المنزل ليحرسهما هي ووالدتها.

دخلت اوضة عوض لتبخرها كما تعودت دائماً. وجدت على الفراش آثاراً بيضاء، فعرفت أن عوض قد بلغ. عندما عاد للمنزل في أول المساء، لاحظت أنه قد فرع طولاً، تكونت عضلات في ذراعه بلعب الكورة مع فريق الحي، وبعدها أنتقل لفريق في الليق. كل شيء تغير في عوض كوكو سوى مط الصوت الذي اخشوشن.

سوف تستمر الحياة بهما، عوض قد جلب الدفء لحياتها، الحقته بكورسات للغة العربية والانجليزية، تعلم الطباعة على الآلة الكاتبة. بدأ يقرأ الكتب من المكتبة في المنزل، يذهب للسينما مع ابناء الحي وحتى المسرح. اصبح مسئولاً عن كافة شئونها المالية، يذهب لجمع ايجارات الدكاكين والبيوت، يقوم باعمال الصيانة او يشرف عليها. تعلم قيادة العربة وصار سائقها، و يستعملها في انجاز المتطلبات اليومية. احبته والدتها كأحد أبناءها، ويجلس معها ساعات طويلة يؤنسها عندما تغيب نفيسة عن المنزل. اتفقت معه منذ البداية أن تودع مرتبه في حسابه في البنك، وعرفته كيف يسحبها. لكن عوض لم يحتج يوماً لسحب أي نقود من البنك، فقد كانت والدتها تعطيه من مالها بدون حساب.

عندما بلغ عوض الثانية والعشرين، قررت أنه قد حان وقت زواجه. طلبت بت الباشا من أحد اقاربها من ضباط الجيش أن يحاول الوصول لحلة عوض. اجتمعت لديها كافة المعلومات عن أهله، حلته وموقعهم. أخبرته أنه قد حان الوقت ليتزوج وينجب أولاداً ويكون اسرة. وأخبرته أنهما سوف يذهبون إلى قريته ونختار له اجمل فتيات القرية زوجة له. **والله عندك راس كبير خلاص**!. بكى عوض كوكو في تلك الليلة فقد كان دائم التفكير في اسرته ووالديه ولم يظن مطلقاً أنه سيراهم قط.

اعادت بناء جزء من المنزل، فقد تم بناء غرفتين اكبر حجماً بينهما فراندة كبيرة، وراكوبة امامها. عندما اكتمل البناء فرشت المنزل حسب اختيارات عوض مع بعض التدخلات من جانبها، وتبرعت له والدتها بمكيف ماء صحراوي كما شاع في تلك الأيام. كانت تلك الأيام قد شهدت هدوءاً في العمليات الحربية في اواخر الثمانينات. فذهبوا مجموعة من أهلها واصدقائها في بص مزركش جميل عبر الفيافي، السهول والطرقات الوعرة، تتبعهم عربتان من الجيش حتى وصلوا قريتهم. من الصعب عليها التعبير عن الذي حدث، لكنهم في خلال اسبوع، ومن خلال مشاورات

عديدة وجمع الفتيات في احتفالات صغيرة إستقر الرأي جميعاً على نجوى التي كانوا يدلعونها نونا.

إستقر عوض كوكو ونونا في المنزل واصبحت الحياة اكثر دعة وسهولة. بعد اقل من عام اطل دلدوم. طفل جميل، ضاج بالحركة، فضولي يحرك عيناه لأي لفتة اوحركة. سوف يتابعوه وهو ينمو، زاحفاً من غرفة لاخرى، نشيطاً لايستقرعلى حال. عندما بدأ التحدث قالت لها نونا انها تريد أن تعلمه ان يسميني امه، وكانت قد انجبت زينب التي سمتها على اسم والدتها. لكن دلدوم لم ينصاع لهما واسماها نونا واسماها نفيسة، واطلق على والدتها حبوبه. في ذلك العام ذهبت نفيسة بت الباشا إلى الحج وعادت الحاجة نفيسة.

أعطت أحد الدكاكين لعوض، واصر على أن يؤجرها. سوف يصبح عوض صاحب محل ويتغير نشاطه تبعاً للظروف، لكنه بشكل عام سوف يركز على الالكترونيات، الأجهزة الكهربائية والخردوات الاخري، في وقت آخر سوف يعمل في الموبايلات واحتياجاتها، ثم ينتقل لاحتياجات الكمبيوترات. في كل مراحله صنع عوض نجاحاً لنشاطه وعلاقاته التي نسجها. رغم ذلك كان عوض المسئول الأول عن احتياجات المنزل، ثم بعد أن تعلمت نونا العربية جيداً تولت هي كافة اموره.

دلدوم نشأ في المنزل وله ثلاث امهات يتنقل بينهن كيف شاء، يقضي القيلولة مع حبوبه، يتفرج على التلفزيون معي، ينام مع نونا او معي. سوف يتضجر عوض من دلعنا له لكننا لن نأبه له. طوال سنوات دراسته تولت متابعة واجباته المدرسية، القراءة معه وتحفيظه القرآن. عندما بلغ دلدوم الرابعة عشر رحل عوض باسرته التي كبرت، واحضر والدته لتقيم معهم. رغم اعتراضها على هذا الرحيل، اقنعها أنه يريد منزلاً خاصاً به وقال لها: **بت الباشا عندك دلدوم الولد حقك**. كان دلدوم حاضراً في كافة جوانب حياتها، وعندما بلغ السادسة عشر استخرجت له رخصة قيادة واصبح يرافقها في كل مشاويرها.

دلدوم عوض كوكو

لم ير نفيسة غاضبة مثل ذلك اليوم في حياته. كان قد بلغ السادسة عشر، في منتصف المرحلة الثانوية. عندما تضجر لمكوجي الحي عن تعب القراءة والسهر، أعطاه حبة صغيرة اخبره أنها للسهر والتركيز. سمع عنها من قبل من اصدقاء المدرسة، بل وجربها مع أحدهم لمرة واحدة. أصابته بالاعياء وطمام في البطن. أخبره عنها فسألنه عن لونها، وقال أن تلك خرشه، وانها مخدر، لكن هذا النوع خاص للدراسة. لم يقتنع بما قال وسأل أحد الاصدقاء الاكبر منه، وقال أن هذا نوع خفيف. كان في فترة امتحانات وبحاجة لهذه الحبوب.

رويداً رويداً سوف ينزلق في الطريق للمخدرات. فترة عصيبة عليه عندما يذكرها حالياً. يجد نفسه ميالاً للعزلة، وبدلاً من مساعدته على السهر والتركيز فقد هذا التركيز. كان همه الاكبر أن يخفي هذا على نفيسة. لم يكن لديه مشكلة في النقود فحبوبة، نفيسة وعوض يعطونه ويستمتعون بهذا. سوف يفتح عالم الحبوب عالماً من العلاقات، وسائل التواصل، الاصدقاء وقضاء اليوم. لاحظت نفيسة التغييرات التي بدت ظاهرة عليه، بدون أن تغضب منه او تحتد، جعلته يعترف لها بكل شيء. بعد نصف ساعة رأيا تاتشر الشرطة يقف امام دكان المكوجي، اعتقلوه واغلقوا الدكان.

نفيسة، الغاضبة من نفسها، برطمت بكلمات طويلة ونائحة عن اهمالها وسوء مآلها. سوف تتصل بأحد اقاربها من لواءات لشرطة للقبض على المكوجي، في اليوم التالي سوف تتصل باخوانها مما يعملون في السوق ليحضروا غسالاً محترما جديداً ليفتح الدكان، اما هو فقد حذرته من أن يصل أي خبر لعوض كوكو. في تلك الليلة قادته لدكتور عبد الباسط ميرغني الذي سوف يتولى علاجه لمدة ثلاثة اشهر. طيلة هذه الشهور منعته من الخروج لوحده. الوحيدة التي اخبرتها رباب لأنها لابد أن تعرف، بحكم تواجدها معه معظم الاوقات. جعلت رباب تذهب معه للمدرسة، وتاخذه نفيسة بعد الانتهاء. جعلت اصدقائه يزورونه في المنزل بتعليمات **"الكنداكه"** كما اطلقوا عليها.

دبرت نفيسة أن يسافر لقريتهم في جبال النوبة مع والده، وقد حل السلام بعد اتفاقية نيفاشا، ليتعرف على أهله. راي القرى المدمرة، وحكت له جدته القصص، قصص تم تناقلها في سنوات الحرب، عبر اركان النقاش الطلابية في الجامعات وتتسرب لهم عن طريق زملائهم ممن لهم اخوان في الجامعة، او عبر مواقع التواصل. سوف تواصل نفيسة اهتمامها بالجرائد السودانية والمصرية ويحضرها لها ابو داود صاحب المكتبة يومياً، كان اصدقائه يقرأونها معه.

توجهوا، سبعتهم إلى حيث يتناولون **"البوش"**، وبت الباشا لاتنفك تعنفنه كل مرة يخبرها فيها أنه ذاهب للبوش، **خلاص من قلة الاكل، جيبهم كل يوم يتعشوا معاك**. كانوا مجموعة من ستة تربوا مع بعضهم في الحي، لعبوا العاب الطفولة معاً، أول رحلاتهم خارج حدود حيهم خططوها ونفذنوها معاً، تعاركوا وتصالحوا، ذهبوا لنفس المدارس، دروس العصر وجلسوا لنفس الامتحانات.

اشتركوا جميعاً في فريق الكرة واشترت لهم بت الباشا الشورتات، القمصان والكدارات. اكلوا فطور الجمعة من صينية بت الباشا، وشربوا الشاي باللقيمات في العصريات في راكوبة نونا.

كان ابائهم يصلون في نفس الجامع، يجلسون معاً تحت الشجرة امام بيتهم عند نقاش امورهم المشتركة، يخرجون الصواني بما لذ وطاب تحت نفس الشجرة في رمضان.

بلغوا الرجولة تقريباً معاً، وحكوا منابت الشنب بالليمون، وتابعوا نموها، غازلوا نفس الفتيات وهاموا بهن. كلهم كانوا يطلقون عليها خالة بت الباشا، ويسميها نفيسة، ويطلقون على والدته، نونا، كما يفعل. بعضنا يحب القراءة مثله، وكانت نفيسة تقرأ معه كتب مختلفة منذ الصغر، بل وجَمَعَت عبر السنوات مكتبة خاصة له، يستلفون منها وتطاردهم حتى يعيدوها، بعضهم يحب الفيديوهات التي يشاهدونها بالفيديو في منزلهم. سابعهم عثمان هباش، ابن عم أحدهم، وقد انتقل من كوستي للسكن في الحلة، وعمل في أحد المطاعم، وكالعادة اصبح جزءاً من مجموعتهم. الليلة عادية، سوف يتناولون البوش ومن ثم ينطلقون لاكل الفطائر ويعودون. البلاد منشغلة بالانتخابات التي سوف تجري في ابريل عام 2010.

عند عودته من البوش سوف يطلب منهم عثمان هباش أن نذهب لبيتهم لأنه يريد عرض شيء علينا، وبرغم أنهم سخروا منه، واستفزوه ليخبرهم إلا أنه اصر على أن التحدث في المنزل. حمل في يديه بياناً برتقالياً من نصف صفحة. لأول مرة في حياتهم سوف يسمعون عن "قرفنا" في تلك الليلة. البيان واضح في أنها تنظيم سوف يعمل على إسقاط المؤتمر الوطني.

اباء ثلاثة منهم قد احيلوا إلى الصالح العام، والده عوض كوكو يشتكي ليل نهار من الضرائب، الجبايات، رسوم المحلية ومفروضات أجهزة الامن، حتى نفيسة بدأت في الشكوى من الظروف والمضايقات، وأن كانت قد قلت في السنوات الاخيرة عندما أجرت بيتها في الخرطوم بالدولار.

ورقة برتقالية صغيرة سوف تغير حياتهم إلى الابد.

من تلك الليلة تبدلت احاديثهم، تفكيرهم في الاشياء، مجالات تحركهم وحتى سوف يتغير اصدقائهم ونوع الفتيات التي يلتقون بهن في الكافيهات، محلات الايسكريم، حفلات الاعراس واعياد الميلاد. سوف تتغير حفلاتهم التي يحضروها ويركززن على حفلات الحوت، نادر خضر وعقد الجلاد. أنشأوا نادياً لمصطفي سيد احمد بالتعاون مع رابطة معجبيه، واشتركوا جميعاً في منتدى ودعوا كافة الشعراء. لاحظت نفيسة هذه التغييرات التي حدثت ببطء لكن بوضوح، وسألته ذات يوم. بعد أن استمعت له للنهاية، كعادتها، قالت بهدوء: **بس اعملوا حسابكم ما تتهوروا!**. لكن نفيسة سوف تزيد من ملاحظتها له، وسيحرص على أن يبلغها بما يفعل، فقد علمته الأيام أن نفيسة ملجأه حين تدلهم الخطوب.

اتفقوا جميعاً ان يكون حلقة الاتصال مع الحركة الشعبية، إعترض واتهمهم بالعنصرية، فاقنعونه أن المسألة ترتبط بسهولة أن يثقوا فيه. عندما حدث نفيسة، قالت له: **دلدوم انت صاحب مصلحه،** وفوراً عرفته على أحدى العضوات المهمات في الحركة الشعبية، اللواتي يعملن معها في تنظيماتهن النسوية. ايقاع الأحداث سريع ومربك، يجلسون دائماً مع نفيسة ويطرحون لها افكارهم

البسيطة، فتناقشهم كالانداد وترتب افكارهم المضطربة، وتكبح جموحهم.

بدأوا في جمع التبرعات، وقد دفع ابائهم ما استطاعوا، المبلغ الاكبر دفعته نفيسة وعوض كوكو، وسوف قرروا أن يدفع هباش خمسة بالمائة من راتبه، كما سمعوا يحدث في بعض الاحزاب. جلسوا وصنفوا شابات وشباب الحلة، وبدأوا في ايصال البيانات لهم، واشراكهم في المناقشات اليومية التي تعقد كل ليلة تحت شجرة بت الباشا. بدأوا بخمسين بيان ومع تصاعد الطلب وصلوا لتوزيع اكثر من خمسمائة بيان. سوف يبدأون في الاعتماد على ذاتهم في توفير الورق البرتقالي، نسخها عند أحد شبان الحي الذي يعمل في دكان في السوق، انتقلوا بعدها لعمل مجموعة في قوقل وصل المشاركين فيها ثمان وثمانين مشتركاً ويزيدون.

عندما سمعوا عن أول مخاطبة عامة، بدأوا في تنظيم مخاطبات خاصة تحت الشحرة وأحياناً في منازلهم. تنوعت انشطتهم وتمددوا في الاحياء المجاورة كلها. لم يكن هناك شاب في المنطقة كلها لم تصل اليه رسائلهم من تنظيمهم المحلي، او عن طريق الموقع الذي اغناهم عن الطباعة المكثفة. سوف ينتشر اللون البرتقالي في طرح الفتيات، التي شيرتات، الاساور البلاستيكية التي استوردوها من مصر وباعوها لجمع المال، اغطية الموبايلات وغيرها كثير.

التحق بالجامعة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، واشترت له نفيسة عربة تيكو صغيرة بهذه المناسبة، واشترى له والدي موبايل آيفون وآيباد. مضت الشهور على الانتخابات المخجوجة، انفصال الجنوب، انفجار الربيع العربي في تونس، مصر، اليمن ليبيا. وتوطد ارتباطهم بشكل واضح مع قرفنا وظل هباش صلتتهم، و تعرفوا على المجموعات الاخرى وتفاعلوا معها. بعد أحداث يونيو- يوليو 2012، والتي سوف تمثل أول مواجهات حقيقية مع الانقاذ، والمرجل العاصف الذي سوف يخلق تجربتهم، ذهبوا في زيارة لمصر للتعرف على التجربة، والتعرف على التجارب الاخرى.

عبك رباب

المتحري

عندما فتح المتحري عينيه، شم رائحة الدخان. زوجته قد جهزت حفرة دخان عصرية بوضع جرة فخار كبيرة دفنت في الارض، في مكان خلفي من المنزل. لم يلتقط الرائحة في ليلة امس. تستلقي بجانبه، نائمة. حدق فيها وهو يحس بجسده كله مضعضعاً. فتحت عيناها ببطء وابتسمت له. فهمت من نظرته تساؤله. **لمن انتهيت من الدخان لقيتك في سابع نومه.** تذكر أنه لم يلامس زوجه منذ اسبوع. **أول مرة تهضرب، وتقول اسامي. نورس دي منو؟**. من كل الأسماء لم تسأله سوى عنها، ضحك وهز يديه، فضربته على كتفه برقة ودلع.

مرر المعجون على اسنانه، صب الماء من الجردل عليه حتى نفذ، فملئه من البرميل واستأنف الاستحمام. طرقت الباب. **مالك طولت. انت كويس.** في حياته تحرى عن مئات الأحداث عجيبها وغريبها، كل حدث يحمل المفاجأت وتعرجات التفاصيل. فتح الباب فدخلت. طلب منها ان تسكب عليه الماء حتى يكتفي. لم تتركه يغرق في حياته، غازلته، لمست جسده ومالت عليه والتصقت به.

اقنعته أن يطلب اجازة لمدة اسبوع. سافرا لبورتسودان. سوف يقضي وقتاً رائعاً، احتوته بقوة واحكام، إن غاب عنها للحظات كانت تعيده اليها بسرعة. عندما جلسا في المطعم المطل على الميناء. اضواء المكان والسفن الكبيرة تشع، داخلة خارجة. الشتاء الدافي يحوطنا وأصوات اغنيات تصل اسماعنا من بعيد. تحدثنا الليل كله، حتى بعد أن عدنا لمنزل أهلها في حي الترانسيت، عن التحري.

عدت بعد اسبوع من بورتسودان، وعندما توجهت للمكتب مشتاقاً لبت الباشا. لوجهها السمح، ابتسامتها العذبة. حدث نفسه ساخراً منها: **انت فاقد حنان والله، المره دي جرتك تعوض امك.** المشاعر داخله متباينة، هل حنانها الدافق ما يشتاق اليه ام الانثى العارمة؟. إتصل بها من هناك وحدد مواعيداً معها. عندما دخل رأها. العذوبة والحسن كله. **دي رباب، خطيبة البير**. متشحة بالسواد وحزينة.

رباب دي كانت صاحبة دلدوم مما كانوا صغار، بعدين شافتهم بيقتلوهم دلدوم، البير وداود. داود منو؟ داود ابراهيم عبد الحميد. سالت دموع رباب ببطء وغزارة. لم ار في حياتي عيونا تخرج كل هذه الدموع. استأذنت منا وخرجت لغرفة مجاورة. **سنه ونصف ولسه ما قدرت.** من نظرتها عرفت حماقة سؤالي وعدم لياقته، لكنني كنت اود أن اعبر بحيادية. **هسي البيت ده فاضي، مافيه ناس. خليت رباب تيجي تقعد معاي ثلاثه أيام كل اسبوع عشان تونسني.**

ترتدي فستاناً أسوداً يكشف عن عنقها، ثوباً اسوداً بدون أي اضافات، شبه شفاف. داخل هذه الثياب جسد متناسق، ناعم ومعتنى به. تلبس طرحة سوداء تحيط بشعرها الاسود الناعم، الذي يراه في خصل منفلتة تحت الاذن. تحتويه اليها كمغناطيس عملاق. صوتها الم الروؤم يذكره بصوت امه التي توفت منذ عقود، وفي نفس الوقت تربض انثى محتجزة في غياهبها. عندما

تبتسم تظهر الام وعندما تكشف عن اسنانها المنتظمة البيضاء تطل المرأة.

عادت رباب وهي تعتذر، وعيونها حمراء وانفها متورم. كانت التحريات السابقة سهلة، اغلبهم ارتكبوا جرماً ما. عدا مرة واحدة، جعلته يؤجل زواجه لنصف عام. ذهبوا في كشة لبيت مشبوه، وضمن المضبوطين تاة مدارس صغيرة. نظرت له برجاء واستأمنته. اخذها في سيارته وذهب بها لمنزلها. ما قالته الفتاه قلب كيانه وعذبه. والدها يعلمان بما تفعل ولايعترضان للحاجة والمسغبة. تأكد من هذا بسؤال الام.

عندما استلقي في سريره البارد في حوش المنزل، السماء نجومها تلمع وقمر شاحب يتساقط ويتوارى. غالب النوم ولكن لم يصل اجفانه. تقلبت على الفراش وتقلبت. فكري خالي وتوقف التفكير. على تلة عالية لم يتبينها، يقف على فراغ ورجليه في الهواء. يسقط من مكان ما، يهوى في فضاء مفتوح. يشعر ببطنه تتقلص، صدره يضيق ويختنق. وجد والده جالساً بجواره: **اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، استغفر الله**. لم يدر هل هو مستمر في الحلم. تلك أول مرة يبدأ فيها الارق، النوم المتقطع وبعض الكوابيس.

سأل رباب عن أهل حسب الله محمد أزرق ونورس. رباب تعرف الظبية ام نورس والصفية ام حسب الله. الصفية تعيش مع زوجها في انجمينا، ولها بنت تعيش في الخرطوم. الظبية قد عادت لكردفان بعد استشهاد نورس. قالت: **بت اليه اتصلت بيهم وكلهم قالو ما دايرين تحقيق. تارهم بياخده بيدهم.**

رباب ذات الاثنين وعشرين عاماً تبدو في الاربعينات. روح زهقت وروح تتعذب. جاء افطار شهي اعدته بت الباشا والتي عرف أنها طباخة معلمة. أراد استعادة رباب من حزنها العميق ليستطيع أن يجمع معلوماته. بعدها جاء الشاي ومن ثم قهوة. استعادت رباب روائها ورونقها، وبدت مستعدة للحديث.

رباب

تراه رباب من بعيد، يسخن السيارة بمهل، عندما يقرب منها يخفض السرعة وينظر لها من البعيد حتى يتعداها. سكن بيرقدار الحي المجاور قبل اكثر من ثلاث اعوام، مع جده، والتحق بالجامعة. تراه على البعد، أحياناً قليلة في الحفلات. لفتتها اناقته الشديدة وحذائه اللامع المصقول. تلاحظ ألوان ملابسه، عندها تعرف أن اللونين متناسقين، وتشتري ملابسها من انسجام ألوانه، علمها البير ذوق الملابس وهو لايعلم. عندما أخبرته لاحقاً، ضحك بسعادة كعادته وقال أنه تعلمها من والدته.

الفتيات يتحدثن عنه، لكنه بعيد دوماً، يخرج ولايعود سوى في الليل، حتى أن زملاء الحي يلومونه لأنه لايعطيهم من وقته. هامت به العديد من الفتيات على البعد، وهو ولا هنا. يقولون أن غرفته في منزل جده غير، اثاثها من ابوظبي وبها كل ما يحلم به الشاب، انيقة، نظيفة دائماً وكبيرة. أحد اصدقائه قد صور غرفته ورأيناها. يحب الاغنيات الغربية، اغاني الحقيبة وفنانه المفضل مصطفى سيد احمد، حيث يحتفظ بكل اغانيه في الايفون وسيديهات.

ذلك الصباح، وكنت قد اجتهدت لالتحق بنفس الجامعة التي يدرس بها، رأيته يركب الحافلة التي مرت بنا مسرعة وقد أمتلات في المسافة بيننا. من الاحاديث، الصور، متابعه رحلته اليومية بالسيارة من منزلهم لحيث اقف، حكاوي البنات والاصدقاء أصبحت متيمة به. كل ليلة الوذ فيها في سريري الوم نفسي على تسرعي واندفاعي في حب شخص لا اعرفه.

لي حياة ضخمة، صديقات واصدقاء نلتقي في شارع النيل، الكافيهات، حفلات الزواج، اعياد الميلاد وعشرات المناسبات, في العطلة الصيفية بين الثانوية والجامعة، احضرت اختي سواراً برتقالياً قالت أنها اشترتها من أحد اصدقائها. عندما لبست الاسورة سألتني أحد صديقاتي عنه ولم اكن اعرف عنها. سوف اسمع في ذلك اليوم عن "قرفنا" وسوف تتغير حياتي بعد ذلك للابد. سوف تتسرب الينا عبر الاحاديث، الونسات، جلسات شارع النيل، احاديثاً لاتنتهي.

كان والدي موظفاً كبيراً في المالية وتم احالته للصالح العام قبل مولدي. من حكاياتهم عرفت أنهم قد عاشوا أيام عصيبة وقاسية، وعندما جاءوا بعربتهم الكبيرة وفتشوا المنزل، واخذوه لعامين، شهور في بيوت الاشباح، ثم حولوه لسجن شالا في دارفور. اضطرت والدتي أن تبيع ذهبها، حتى الدبلة، لنواصل الحياة. أيام ضنك شديد، كما تقول والدتي، **لكنك جيتي خففتي علينا**. انتهت اماله العريضة وهو في بداية الاربعين.

رفض والدي كل اغراءات اصدقائه، أهله وكل شخص يلتقيه للاغتراب. عندما سألته عن ذلك قال بصرامة: **ما بسيب ليهم البلد!**. سوف يرفض كل العروض التي انهالت عليه آنذاك من اطراف في السلطة ليشغل مناصب اخرى، قال لمن جاءه: تطلعوا قرار جمهوري يلغي الصالح العام وتعتذروا علانية. والدي قد عاهد النفس على أن لا يشارك في **"مقطوعة الطاري"** بأي شكل.

عشنا حياة عادية، قاسية أحياناً كثيرة. اري والدي أحياناً ملازماً البيت لعدة أيام، متجهماً وحزيناً

عندما يكون وحده، ضاحكاً حين يرانا، هذه هي الأيام التي نحس فيها بالنقص في كل شيء. عندما اطلب ملابس، كتاب او حتي زجاجة بيبسي: تجيب السرة، والدتي تقول بحدة: **امشي لابوكي، روحي لابوكي**. والدي حلال المشاكل وجمل شيلنا، الذي اعتمدنا عليه طوال السنوات، كالأشجار الصامدة التي لا تنكسر، سعيداً بارضائنا باشيائنا الصغيرة، يلحظ فرحتنا، فيضحك في حبور، يحضنني وهو يقول لي **"بتي السمحة"**.

بلغت الثامنة عشر، عندما حضرت حفل زواج، جالسة مع صديقاتي في الخلف كالعادة. جاءت اخت العروس وادخلتنا جميعاً ساحة الرقص. سوف يبدأ الفيديو يركز عليّ، ويراني الفنان، يبحث عني في الساحة.

الشال منام عيني وفؤادي جارحو
ان شاء الله يلاقيني وبي هواي اصارحو

بدأ شبان يتحلقون حولي، يرقصون معي وينبهون آخرين، يحيطون بي وكونوا حلقة، وأنا اتقافز واركز على الرقص، وكنت ماهرة.

نتقابل الاثنين واشكي له مر البين
يعطف على المجروح والروح تناجي الروح..
والعين تشوف العين والايد تصافحوا

سوف يبدأ أبناء الحي والاصدقاء، وقد بلغتهم انباء تلك الليلة، في مناداتي الشال منام عيني، وأحياناً فؤادي جارحوا. سوف يبدأ الفنانين في التركيز عليّ إذا كنت حاضرة، ويوجهون اغنياتهم ليّ. رغم ذلك كان بيرقدار سارحاً في ملكوت آخر، لايرى الفتاة التي يراها الجميع.

رأيته يركب الحافلة، صعدت وجلست في مقعد خلفي. لمدة خمس أيام اراه كل صباح، نسير من حافلة الجامعة للتي سوف تذهب بنا للحي، اراه في انتظاري عند نهاية اليوم الدراسي. بعد الخمس أيام سوف يتقدم ويعرفني باسمه.

كدت اقع من طولي وتمنيت لو ابتلعتني الارض. البير كما اسماه اصدقائه، جريء وصريح وسوف تسير علاقتنا وتنسج بدون تفاصيل أو اسئلة كثيرة. اصبح بيرقدار حبيب القلب ومنية النفس ورفيق أيامي. تعرف على اصدقائي وصديقاتي، وكذلك عرفني على شلته. كانوا يسمونه البير، اصدقائي يسمونه **"جكس رباب"** عندما لا يكون حاضراً. حتى والدي بدأ في استعمال الاسم عندما عرفه.

طرق الباب ذات يوم، فتحت له وكنت منذهلة من حضوره الفجائي. جلس مع والدي وتحدثا، وعندما احضرت الشاي، اجلسني والدي معهم. جاء البير، كما قال والدي من الباب. اخبر والدي أننا على علاقة، وفي نفس الجامعة، وهو لديه سيارة ولايستطيع أن يقلني من وراء أهلي. اوضح لوالدي أنه فاتح والدته، لكنه يريد الانتطار حتي يتخرج لكي يكون هناك ارتباط رسمي. عندما خرج البير قال والدي وهو يضحك: **ده لقيتيه وين يا بتي السمحة، اخلاق كنا مفتكرينها انتهت**. واخبرت والدىّ أنه لم يحدثني بمجيئه، فعلقت والدتي: **ده ولد جريء، مش زي ناس!**. عندما يوصلني في غير

أيام الجامعة يصر أن يدخل المنزل ويخرج معي، ومهما تاخرنا كان يصر على الدخول وتحية أهلي.

لم اكن اشبع من حبيب العمر، وكنت بعد أن اراه طوال اليوم، اتصل به واطلب منه أن يحضر لرؤيتي، أول أيام أستغرب، كنت جائعة دوماً له، شغوفة، واصابني وله. ومع مرور الأيام اصيب بنفس الوباء. لدي أحساس دفين بفقدانه، وكنت احاول بقوتي أن اقاوم هذا الأحساس. البير رقيقً، عطوف، مهذبً غاية التهذيب، حتى أن والدي قال لي ما جعلني اعيش مرعوبة لعدة ليال، قال أن البير a person too good to be true.

حكيت له عن حياتنا وأن والدي عمل بعد الصالح العام في اوائل التسعينات، سائقاً لعربته في النقل الطاريء، وبعد ايقافه، فتح محلاً لبيع الغاز في الحي. وبعد حوالي العقد وقد بدأت المصانع تنشأ، عمل في أحداها موظفاً. قلت له ونحن جالسين على شاطيء النيل، الليل يحضننا والضجيج يؤنسنا:

الانقاذ كانت الاكثر كفاءة في تحويلنا لفقراء. الانقاذ جات وهي عارفه عايزه تعمل شنو، عارف الحجاج ابن يوسف لمن ودوه حاكم للعراق، أول يوم نزل بغداد وكل مايشوف قصر، بسأل ده بتاع منو، يقول ليهم انزعوه، سالوه الماشين معاه، قالوا ليه ليه بتنزع القصور والبيوت قال: افقروهم فالفقر مدعاة للطاعة. عشان كده الانقاذ الما معاهم طردوه من العمل، التاجر الما معاهم فلسوه. ابوي قال الانقاذ خلت ليهم تلات خيارات، تموت غبن، تبيع نفسك ليهم او تغترب.

قال لي: **ابوك ما سوى ولا واحده من التلاته**. قلت له أن الثمن كان غالياً جداً، عشنا حياة ضنك وفقر، غاب اللبن عن منزلنا لمدة خمس اعوام كاملة، مرات وجبه في اليوم. وأنني كنت املك فستاناً واحداً طوال عام للمدرسة. البسه بعناية طوال يومين، بعدها تغسلها السرة وتكويه بمكواة فحم قديمة.

حكت لي السرة أنني كنت احب الطماطم، اتوجه للتلاجة التي غالباً تحوي ماءاً فقط، افتحها واصرخ طاطم. في أيام كانت الطماطم سعرها مرتفعاً، وعندما صرخت، قالت أن والدي بكى في ذلك النهار، ورفض الاكل لثلاث أيام حتى يشتري لي الطماطم. **تخيل يالبير طماطم**. وأنا احكي، مال البير على صدره وانخرط في نشيج حار.

سوف ارفض من تلك الليلة أن احكي له عن حياتي، ذكريات مؤلمة لي لكنها كانت فاجعة بالنسبة له. سوف اقترب منه واحضنه بكل عذابات أيامي، مخاوفي من الأيام المقبلات وجروح هزيمتنا المستمرة. استمر في نشيجه حتى وضعت راسي في صدره، احتضنني بشدة كأنه يود مسح كل تلك الذكريات. منذ تلك الليلة سوف لن يتحدث البير عن والدي سوى باحترام وتقدير كبير، وتغيرت معاملته معه، الامر الذي سوف سوف يلاحظه والدي ويسألني وقلت له: **عارف المغتربين وامورهم**.

كنا عائدين من أحدى الانشطة، اربعتنا: البير، دلدوم، هباش وأنا. بقلوب مليئة بالفرح والاينـاس دخلنا مطعماً نتحادث جميعنا ولا أحد يسمع الآخر. ونحن نأكل والبير أمامي يطل علي بعيونه

الذكية، العالم يومذاك صغير، ممتلئ ورقيق ولايزيد عن النصف متر هي المسافة بين يدي ويداه. كنت آكل في طبق فول وسلطة أمامي بطريقتي السريعة. انهيت طعامي بسرعة فقال: **السمح ما أكال، أنا سمحه؟**.

تركنا اصدقائنا وهم يحتجون ويهددون البير بتغريمه ثمن عشاء فاخر في أحد مطاعم الرياض. ذهبنا لشارع النيل واخترنا مكاناً قصياً ولزمنا العرية. شم شعري واخذ نفسا عميقا، دارت يده في انحاء شعري وهو يشم ويشم: **البير كملت ريحة شعري، الريحه غاليه**. ضحك حتى استلقى وهو يقول: **غايتو يا رباب الشعر عندكم انتي حبوبتك هندية؟**. حبيب العمر يحضنني، وصوت نادر خضر يصلنا من حفل بعيد، كنت امتلك العالم بين يدي.

تلقى الريد معاي لحظة مانسيتك ولا نسانى
ومابنساك ومابقدر ولا عايز بعد حبك احب تاني

بيرقدار سعد سليم بيرقدار

بيرقدار سعد سليم بيرقدار بلا اصدقاء طفولة او زملاء دراسة ولا يعرف اقاربه بشكل جيد في السودان. ولد في نهاية الثمانينات في مدينة ابوظبي، في مستشفي الكورنيش للنساء والولادة. حياته كلها امضاها في تلك المدينة، درس مراحله الأولى من الحضانة حتى امتحان المرحلة الثانوية.

يزورن السودان كل عامين في العطلات الصيفية، ويقضونها في منزل جده سليم بيرقدار. عندما جلس للامتحان ونجح، خيره الوالد بين أن يدرس في الجامعات الاماراتية الخاصة، ماليزيا أو أن يدرس في السودان لأن جداه كبار ويحتاجان لوجوده معهما. كان الخيار صعباً جداً، لكن تحدثت حبوبه معه طويلاً عبر التلفون، وجده كذلك واقنعوه أنهم سيوفرون أي شيْ يريده، واهمها عربة جديدة اشتراها جده قبل أن يتحدث معه.

هكذا ترك، بيرقدار سعد سليم بيرقدار اغراءات الدول وحزم امتعته مع أهله للدراسة في السودان، معتبراً هذا تضحية كبيرة من اجل اجداده. كانت تربطه علاقة قوية وطويلة بجده، اقرب للصديق ويعرف بعض ابناء الحي منذ زياراته في العطلات.

امضي شهرين في الاستعداد للجامعة من اجراءات قبول، تبديل رخصة القيادة الاماراتية بسودانية، زيارات لأهله مع جده، مناسبات عديدة وكان هذا موسمها عند عودة المغتربين في عطلاتهم. سوف يكون جده هو رفيقه الدائم في اكمال الاجراءات. كان يذهبان بعربته وعند سفر أهله عائدين للامارات كان قد إستقر تماماً.

الشهور الأولى قاسية. فقد تعود واصدقائه في ابوظبي للخروج للمولات يومياً، تدخين الشيشة في المقاهي، التجول في الكورنيش بعربة أحدهم. كل اسبوع سوف يجدون انفسهم مدعويين لعيد ميلاد، رحلة لدبي، حفلة عرس ويمضي الاسبوع وهم يتبادلون الصور على الفيسبوك، البلوتوث، ودخول غرف الشات حيث يحلو الشمار.

يلزم غرفته المكتملة من كل شيء الكمبيوتر، شاشة تلفزيون عريضة، مسجل سي دي وحتى الثلاجة الصغيرة. بعد أن يجلس مع حبوبة لتحدثه عن أهله سوف يعطيه جده محاضرات طويلة في التاريخ، ذكريات واكثر ما يحبه الحديث عن ثورة اكتوبر وانتفاضة ابريل: **تصور يا البير شعب اعزل اسقط نظامين عسكريين بس بالمظاهرات.**

الأيام مملة. يذهب للجامعة ويقضي يومه هناك، وربما يلتقي بصديقين من زملاء الامارات، ياتون من جامعتهم ويذهبون لأحد الكافيهات المنتشرة في منطقة الرياض. انضوي تحت شلة من هؤلاء الاصدقاء وبعض زملاء الجامعة، واثنان منهم يسكنون في شقة مفروشة. سوف يتعرفون في شارع النيل على مصادر الفتيات. الكود عايز ولعه، تعطيك ست الشاي علبة كبريت بها ورقة بها نمرة تلفون، عندما يرن جرس الهاتف، سوف تظهر الفتاة، إذا اعجبتهم يجلسان لاتمام

الصفقة، او تطلب ولعة اخرى.

ليس مرتاداً للحفلات في الحي، رغم حبه لها، لكن يرتاد اعياد الميلاد، حفلات الاصدقاء، احتفالات النجاح ومثل هذه. رأى رباب لأول مرة بعد حوالي العامين من عودته للسودان. رأها على الشاشة والكاميرا تدور وتعود لها. عندما تفرس في الحضور، رأها وهي في طرف القاعة تطرف بعيونها وتنظر له. كان الفنان متحمساً والأصوات تطن في رأسه.

سلميلنا على عيونك يوم تسهي تغروديها
ويبقو تفاحتين خدودك بس خدودك وين شبيها

تحمس الشباب وقد دلفَتَ إلى ساحة الرقص، احاطوها وهي تتثنى، تميل يميناً وشمالاً. كانت الحسن تجسيداً، تحيط بها هالات من الروعة الإنسانية. كل كلمات الاغنيات، قيلت فيها، مفصلة عليها وتستدعيها. سوف تشغل رباب باله لأيام معدودة، ثم استغرقته الحياة.

ماكان خطر بالبال القاك ويسكرني تعبيرك
او حين اراك تختال اهواك وافوز بتقديرك
نتلاقى في الأحساس والحب يهنينا وكاس الموده يدور
بالبهجة والاياناس والليل يغنينا والبدر لينا سمير

انتقل لرابعه جامعة. في أول يوم له للدراسة رأها ، في الحي المجاور، في الشارع الذي يسلكه يومياً في طريقه للجامعة، تقف في انتظار الحافلة التي سوف تقلها لوسط المدينة ومنها تقلها حافلة محظوظة للجامعة. أول ما رأي شعرها المتمرد وعيونها الناعسة القلقة. تتلفت، تتثنى، تتأرجح وتتعطن من نصفها الاعلى. قابل المئات من الفتيات في حياته في منزلهم، المدارس الاجنبية التي درس فيها، المولات، آلافراح، شارع النيل. اجنبيات، عربيات، افارقة. لكن لم ير مثل هذه الفتاه التي يفوق ضجيج بهائها ضجيج الطريق.

يمر عليها كل صباح، وقد عرف أوان خروجها. يراها واقفة في البعيد هناك، مشعة كافق هاديء مستعر من الداخل. لا تنظر مطلقاً للسيارات المسرعة، لكن عيناها القلقتان تتنقل. في ثلاث اسابيع عرف كل شيء عن رباب. والدها يعمل موظفاً كبيراً في أحد الشركات الخاصة. تملك تسعة لبسات، ست طرح تبدلها اثناء الاسبوع، حقيبتي يد أحدهما جلدية تحملها أيام الاسبوع، والثانية كبيرة من القماش، تحملها يوم الخميس لأنها لاتعود للمنزل مباشرة.

قادراً على التواصل مع كافة **"الجكس"** في الجامعة، قريباته في الحفلات، لكنه مع رباب عاجز عن الاقتراب. بحثه عنها في القصائد، ودله البحث عن قصيدة عمرو بن أبي ربيعة، ودله أحد اصدقائه من محبي الشعر على ديوان **"تعليق على ما حدث"** لشاعر مصري اسمه امل دنقل. ارسل القصيدة لأحد اصدقائه في الامارات حيث كتبوها له بخط تشكيلي ووضعوها في اطار جميل، علقه في غرفته.

ألمحُ وجهكِ المّضيءَ..يا ربـاب
في مستطيل النور عندما يشعُّ في انفراج باب

في وهجِ اللفافةِ الأخيرة
في لمعةِ المنافضِ المزوّقة
في لمسات اللوحةِ المُعلّقة
في دورةِ الفَرَاشِ في السقف
وفي انغلاقة الكتاب

بعد ثلاث اسابيع، ترك السيارة وانتظر حافلة نصف ممتلئة وركبها. في منتصف المسافة أمتلات الحافلة، وضاع يومه. بعد ذلك اليوم ترافقا في الحافلة، التي تقلهم لوسط البلد حيث يركبان حافلة اخرى لنفس الجامعة، حيث يدرس. يومه اقصر من يومها الدراسي، لذا ينتظرها حتى تخرج وتستقل الحافلة. بعد خمس أيام وهما يهبطان من الحافلة ليركبا الحافلة التي تقلهما لاحيائهم، استجمع شجاعة راكمها بقوة وعنف طوال الاسابيع الفائتة، مد يده وقدم نفسه. عندما مدت كفها، قالت اسمها بصوت هاديء خفيض، كانت يداها رطبة ناعمة والتصقت بيده، عبك طيبها ظل هناك لآخر النهار.

ألمحُ وجهكِ المّضيءَ..يا ربـاب
في ذوبان الثلج في الأكواب
في رنّة الملاعق الصغيرة
في صمتةِ المذياع برهةً قصيرة
في ثنيات الظل في الثياب
في غبش النوافذ الصامت..
بعد ساعة الضباب

لاحظ جده أنه لا يستعمل السيارة لذهابه للجامعة، اخبره أنه يحضر ورقة بحثية عن المواصلات العامة، لذلك يستعملها ليعرف بعض الحقائق. ورغم عدمه تصديقة، فقد قال: **أحسن عشان تودر دلع أولاد المغتربين**. بعد نحو الشهر سوف تسأله رباب عن عربته. وهما في بواكير العلاقة، فقال لها نفس السبب، ضحكت غير مصدقة، سعيدة وعيونها تضحك. لاحظ أنها في أحد الأيام تلبس سواراً برتقالياً، سألها عنه وظنه شعاراً لمحبي الفنان محمود عبد العزيز **"الحوت"**. قالت أن هذا شعار، وكان يراهم في حلقات النقاش، المخاطبات داخل الجامعة وأحياناً تصله بيانات.

بعد اسابيع قليلة، دعته رباب ذات نهار ليوم شعري لشعراء لم يسمع بهم من قبل. فستانها الاخضر المورد ينسدل على قوامها برقة، يحضنها شعرها الغزير تحت الطرحة الخضراء شلالات من الليل البهيم في الزحام، تتدافع اجسادهم معاً، فيشم رائحة ندي عينيها. يزدهر فيهما الفرح المنثور من المناخات حولنهم تتشابك ايديهما معاً، كأن القاعة المزدحمة اختصرت فأصبحت نحن. يصبان من منبع واحد والعالم من حولهما يضيع فيهما. تركزت امواج الحنان في ابهامه، نسيجاً منقوعاً في مطر الحب والمستقبل ويرى كلمات الشعر مرايا. في ذلك النهار الحار وقد توسدا كلمات سحرية علم أنه يريد أن يعيش ويموت بين يدي هذا الإنسان الرائع الجميل.

عبك داريا

داريا

انتشرت الانباء عن زيارة داريا محجوب ابوبكر داود شوكت للمدرسة ضمن المفتشين. هذه أول مرة سنراها في مدرستنا. داريا هي اجمل المفتشات في نطاق السودان، ويقال نقلاً عن من رأوها عن قرب أنها ربما تكون ملكة جمال المفتشات في العالم. سوف تحط كأحد احلام ايقونات المراهقين في كافة المدارس الثانوية في العاصمة. كنا نترقبها كلنا والمعلمون وقد شعروا بتوترنا تسابقوا أن تدخل فصلهم أولاً.

عندما اتصلت ببت الباشا لزيارة داريا في منزلها، رفضت حتى يتم قبول بلاغها من السلطات. حاولت أن اقنعها عن طريق بت الباشا، أن هذه فرصة جيدة لكي تضمن في التقرير وبعدها عسى ولعل. بت الباشا لم تدخر جهداً حتى اقنعتها بالتحدث معي. **داريا ده متحري ما عنده علاقة بالبلاغ، بعدين هو بيحقق فيهم كلهم، يمكن الفرج يجي على يده.** عندما جائني صوتها الدافيء الهادي الحزين، حاولت كسر الغضب والتوتر باخبارها أنني شاهدتها وتحدثت معها عندما زارتنا في المدرسة. لان صوتها قليلاً.

عندما دخلت الفصل، ساد صمت نهائي. تحاوم عطر خفيف واخذ طريقه إلى شغفنا. عندما جاء صوتها الدافيء لمست احلام قلوبنا، قوساً يَلُمُّ الأرضَ من أطرافها. مضت اسرع حصة في حياتنا وداريا ملأتها بما سوف يظل في عقولنا الصغيرة ويترعرع. كانت تتحدث عن اساس المعرفة. **الحكمة الغربيه بتقول راجع افتراضاتك والحكمة الصينية لخصتها في فضي كبايتك.**

أول مرة نسمع فيها عن هذه الاشياء، وسألتها عن الكوب الفاضي. ابتسمت وجاءت بجانبي، معها هاجرت كل العطور الىّ. لم استوعب ما قالت جيداً، وفهمت حين شاهدت فيلم المملكة المحرمة لجاكي شان. حين وصف تمسك البطل بافتراضاته المسبقة حول تعلم الكونغ فو بالكوب الممتليء.

رضخت حين سمعت حكايتي، واتفقنا على لقاء بيننا، لكنها رأت، ووافقتها فوراً، أن على الحديث مع زوجها ابراهيم عبد الحميد علي داود شوكت أولاً. عرفت منها بعد موافقتي، أن ابراهيم في القرية وتركها تتابع امور البلاغ ثم تلحق به.

الاجواء خريفية منعشة، مررنا على سهول، وهاد، جبال وصحاري ممتدة. يميل الطريق أحياناً فنرى النخيل والمنازل باهته من بعيد. عندما وصلنا كان هناك جمع من الناس في استقبالنا. اخبرني ابراهيم عبد الحميد علي بن الحاج داود شوكت أن هذا عادة القرى في استقبال ضيوفها. دخلنا منزلاً من الطين لكنه يحوي أثاثاً حديثاً. حسب رأي ابراهيم أن لاتقل زيارتي عن ثلاث أيام، وقد رتبت نفسي لذلك. انقضى اليوم الأول كله في الاستقبالات، الزيارات من أهل القرية، وفي المساء نظم لىّ جلسة طرب، رقصت فيها بعض الفتيات.

جلسنا تحت ظلال رطبة يتساقط علينا من مجموعة نخيل في باحة المنزل، كنا قد شربنا الشاي بالمنين وبعد مدة جاءت اكواب عصير البرتقال الطازجة. المنزل في حركة دائبة منذ الفجرية، فهو دعا أهل القرية لوجبة الغذاء على شرفي. ركبنا السيارة وذهب بي إلى تلة مرتفعة تطل على

منظر نيل ساحر، أشجار النخيل تحيط بنا، امامنا جروف خضراء ممتدة على الجانبين، وهناك جزيرة طويلة تحفها على طول الشاطيء أشجار كثيفة وتنتهي بشاطي رملي خلاب في الطرف الجنوبي.

فرش برشاً كبيراً، رمى عليها مساند جائني منها رائحة عطور داريا. انزل حافظة الماء، حافظة شاي وقهوه، عدد من الاكواب المتنوعة. خلع جلبابه الانيق وعلقه على أحد النخيل وظل بالعراقي والسروال. قال أنه حدث أهل القرية أنه **"عندو كلام"**، ويأمل أن لايقاطعنا أحد بالسلام الكثير في هذه الانحاء. صب ليّ وله من القهوة، ارتشف منها وتحدث.

بعد صلاة العشاء اخبرهم حاج داود، أن يفطروا معه بعد باكر. كانت هذه عادة الحاج إذا كان لديه موضوع هام يود اخذ رأيهم فيه. كان الحضور دائماً ابوبكر، وهو، علي، عثمان، عمر، الحسن، زوج اختنا فاطمة، واضيف منذ سنه داود بن ابوبكر وإبنه عبد الحميد بن علي بعد أن بلغا الثامنة عشر.

كان الحاج داود يقلب الموضوع في ذهنه لعدة أيام وليال وبعدها يبلغهم بآلافطار. كانت الموضوعات غالباً حول الزواجات ونادراً مشاكل البيوت واندر قضايا الطلاق، مرتين في العام كان الموضوع يدور حول الاعمال، الانتاج والتجارة.

عندما يحدد الحاج داود شوكت موعد الفطور كانت القرية كلها ترخي سمعها وتصيغ، وكانت تطلق علي هذه **"عندهم كلام"**. اللقاءات ليس أثرها على الاسرة فقط، لكنها تترك بصماتها الواضحة على مجمل حياة سكان القرية والقرى المجاورة. ففي هذه الجلسات تحدد اسعار المحصولات وكيفية تسلمها، تحديد الزيجات ونوع احتفالاتها، توزيع الأراضي سواء للسكن لأن منهم شيخ البلد، او تحديد الانصبة في الجزر الجديدة التي تتكون على طول السنوات.

كانت الحرب قد وضعت اوزارها، وكان الحاج قد ذهب لتهنئة إلى الخرطوم لتهنئة الحاكم العام بانتصار الحلفاء، ويرى أن السودان في طريقه للاستقلال، أن آجلاً او عاجلاً. ربما تستمر الوحدة بين مصر والسودان، لكن الحاج يرى أن الانجليز لن يسمحوا بهذا. اغلب تجارتهم تنحصر بين القرية، حلفا ومصر، وإذا استقل السودان سوف ينتقل مركز الاعمال لداخل السودان.

سمع الحاج بعض تعليقاتهم. يعرفون أن هذا مجرد تمهيد قبل أن يدخل في الموضوع. قال أنه فكر في الموضوع وسأل عنه اصدقاء له، تقصى عن كل شيء، حتي استشار سكرتير الحاكم العام. الحاج يفكر في التوسع داخل السودان، في الجنوب ودارفور. صمتوا جميعاً، يسمعون عن دارفور من الجمالة الذين يمرون غرب النيل عبر طريق الاربعين لدراو في مصر، اما الجنوب فلا يعرفون عنه شيئاً.

لاشهر ظلت هذه القضية مدار البحث، تم معارضتها من كل اخوانه، اخواله، والدته ومنهم لكنهم لم يصرحوا بها مثلهم. اعتادوا السفر لمصر، لأنهم يعرفونها منذ مئات السنين ويوجد في جنوبها اكثر أهلهم من النوبيين. والدتهم كانت اكبر محرض على عدم الذهاب. صبر الحاج داود على كل هذه المحاولات بدون أن يلين، لكنه رضخ لرغبة والدتهم أن يذهب الاحوان الاربعة مع عمر

للجنوب ويتركوه بعد أن يطمئنوا عليه، وإلى نيالا ليطمئنوا على وضع الحسن. لم تشهد القرية دموعاً، كالتي ذرفت في ذلك الصباح، حتى عندما مات الحاج شوكت نفسه.

عندما ابطأ القطار من مسيره، رأته داريا، واقفاً على سلم القطار، طويلاً، مائلاً للنحالة ووسيماً وسامة لاتخطئها العين، يقال أنه ورثها من جده داود شوكت.

كنا نعيش في منزلين متجاورين في قريتنا موجوداً في حياتي منذ وعيت للدنيا. اعيش حياتي كأي فتاة في قرية، أذهب للمدرسة، أحياناً يردفني إبراهيم على حماره، ويعطيني بعض البلح الذي اشتهر بحمله في جيبه، اعود للمنزل ويكون في انتظاري بعض الواجبات المنزلية، ولأنني الاصغر، غالباً تقوم بها والدتي او أحد اخواتي الاكبر مني.

في طفولتي كنت ارافق إبراهيم كثيراً، حيث يردفني على حمارته لنذهب لحش القش في العصارى، ويجعلني امتطي الحمار فوق القش ويسير هو، اذهب معه لصيد القماري، حين يذهبون للسباحة في النهر وقد علمني السباحة ذات نهار كان فيها البحر خالياً من المتطفلين. اذهب معه لطحن القمح في الطاحونة، والعب معهم في الليل. رغم أنه اكبر مني بحوالي السبعة اعوام فقد ربطتنا صداقة حميمة.

سوف تستمر هذه العلاقة المميزة حتى بدايات بلوغي وتبرعم نهديّ.

ذات ليلة وقد بلغت الرابعة عشر وقد تواترت الانباء عن عودة إبراهيم في الاجازة الصيفية من الجامعة، رقدت معي والدتي واخبرتني عن القسم المغلظ. لم اكترث كثيراً لأنني لم اكن افكر في الزواج آنذاك، لكنني قبل أن انقلب لانام قلت لوالدتي: **أهلك عايزين يحكمونا من القبر!.** لكن سوف يدفعني هذا لاخراجه من حساباتي، فنحن نعرف ثقل التقاليد وسيطرتها وجدية أهلنا في الالتزام بها.

طوال صباه لم يبد إبراهيم اهتماماً بي، سوى العلاقة الاقرب للصداقة، له عالمه الخاص. برغم أن الفتيات ومن ضمنهن اخواتي يتحدثن عنه ويتمنين أن يبدي اهتماماً بهن كفتيات، إلا أن هذا لم يحدث قط.

عندما بلغت الخامسة عشر، جالسة كالعادة مع رفيقاتي في الصفوف الخلفية في عرس، مفسحة المكان للفتيات الاكبر سناً، وامهاتنا. هذا مكاننا المفضل، منه نتابع نظرات الشبان والتفاتات الفتيات، نعلق ونقرقر. عندما يصيب التعب امهاتنا من الرقص، وتكون فتياتنا الاكبر سناً قد نسجن الخيوط الخفية مع احبائهن، نُدَعَى للساحة. عندما دلفت لساحة الرقص، اوقف الفنان الغناء واقترب مني ليتفرس في جيداً. بدأ أعنية اخرى سوف تفتح سيل القصائد التي سوف يؤلفونها عني.

سوف تتدفق القصائد، الاغنيات والحكايات منذاك، تابعوا تفاصيل حياتي اليومية، وصفوا كل تفصيلة في جسدي، وعندما بدأت السفر للمدرسة الثانوية سوف يتابعون رحلاتي. في باديء الامر يعطيني شعوراً بالفخر والسعادة، لكن مع محاصرتها لحياتي بدأت تخنقني. رغم كل هذا لم

ينشغل إبراهيم بكل هذه الزخم العارم، وأظنه اعتقد أن لي دوراً في هذه المسرحية كما عبر عنها لأحد اصدقائه. رغم ذلك اجد نفسي منجذبة له، وأنا اعلم جيداً أن هذا طريق بلا نهاية.

سوف يطل علينا إبراهيم بين الحين والآخر ليلبي لنا مطالبنا المتنوعة، وكنا ثمان فتيات في قمرة القطار، سوف يتغامزن، ويبسمن وأحياناً سوف يصرحن بالقول. وقالت لي فتاتان أن اعلن تنازلي عن ود الجامعه اللذيذ لكي يحاولن معه. سوف يجلس معنا في القمرة او عندما يقف اللوري في القهاوي، ويستطيع أن يجذب الفتيات وهو قد عرف كيف يخاطبهن من الجامعة لكنه بين الحين والآخر سوف يسترق النظر ناحيتي ويخصني بنظرة متمعنة طويلة.

في تلك العطلة سوف ينثر القلب في القلب سنبلة، تنام العيون على العيون ويعتصر الفؤاد مشاعر دافقة مثل فيضان النهر الجبار.

عندما ودعناه، بعد حوالي الشهر، تيقنت أنني احب هذا الرجل وأنه مهما طال الزمن سوف اتزوجه حتى لو انتظرت العمر كله.

ابراهيم

حل على البلاد ليل قاتم كئيب، غرقت حلفا ورحل أهلها للبطانة، ومن بقى منهم سوف يصارعون البحيرة التي تمتد كافعى هائلة، وتجعلهم يترحلون.

غرقت في المدينة وقلبي صديء، اعتصرتني مجالس لعب الورق، تصاعد ابخرة الكحول في يافوخنا، زمن فارغ، ساعات طويلة وشمس بعيدة الغروب. خوف غامض، مبهم ولانهائي يجعلني اتحاشى التفكير في داريا. كقنبلة مخبوءة تحت حجر تلتهمنا التفاصيل. دأبت على الكتابة لها عن مستقبل يضمنا معاً، لم نستطع تبينه معاً.

ربما لو جاء الناظر عبد الباقي محمد مبكراً، لما حدثت ثورة أكتوبر.

عقب الدكتور حسن الترابي الذي عاد لتوه من فرنسا، وعميد كلية القانون، في ندوة اتحاد جامعة الخرطوم في 30 سبتمبر 1964، عن مشكلة الجنوب. قال الترابي إن مشكلة الجنوب لن تحل إلا باطلاق الحريات حتى يتمكن المواطنون من الجلوس ومناقشة كل القضايا وأن النظام العسكري لا يمكن أن يحل المشكلة. جرى استفتاء للطلاب حول الخطوة التالية بعد هجوم البوليس على الجامعة، وتقررإقامة ندوة اخرى. يوم الأربعاء 21 اكتوبر 1964. اصيب القرشي في فخذه، وعندما انحنى لتحسس مكان الضربة جاءته الاصابة القاتلة في رأسه. تم تهريبه عن طريق مدرسة الخرطوم الثانوية حيث جاء سائق سيارة تاكسي، قام بإنزال الركاب من عربته واخذوه للمستشفى.

بدأ صباح الطلاب في الخرطوم الثانوية، التي كانت بجوار داخليات الجامعة، وهم يلبسون – كعادتهم كل خميس- لبس التدريب العسكري **"الكديت"**. من في الداخلية قد حكوا للطلاب عن تهريبهم للشهيد القرشي للمستشفى الذي قتل في تلك الندوة.

كثير من الطلاب عرفوا أن الناظر عبد الباقي سوف يعيد النظام ويرجعهم للفصول، خاصة المترددين. في سباق مع الزمن للخروج والتوجه نحو المستشفى، قرر بعض الطلاب منع الناظر من النزول من عربته الفلوكسواجن.. من هناك سمعوا أن هناك تجمعاً في ميدان عبد المنعم – نادي الاسرة حالياً– التي بني حولها سور كعادة كل الميادين في الوطن.

خاطب الجمع العديد من المشاركين، لكن خاطب الترابي الجمع المهيب وفي آخرها طلب من الجميع التفرق بهدوء. لكن بدلاً من التفرق، تحرك طلاب الخرطوم الثانوية الى داخل الخرطوم. نجحت الثورة، عشنا أيام كالحلم، آمالنا ملئتنا وتدفقت وسالت على أرجاء الوطن. احلام منكسره، امال ضائعة وامنيات لن تتحقق ابدا.

تقف هناك. سامقة، وادعة وعيناها تنامان في ضوء النهار.

فستانها المشجر بورود خضراء لها زوائد حمراء، ينسدل عليها توب ناصع البياض. قطار متعب يهديء من مسيره في حضرتها، وركاب كثر غابوا من خيال الرصيف من بهاء طلتها. عائداً في

عطلتي الصيفية من جامعة الخرطوم، حيث ادرس، ارسلوا لي تلغرافاً مستعجلاً أخطروني فيه أن إبنة جدي، داريا محجوب ابوبكر سوف تستقل القطار من مدينة مدرستها الثانوية.

داريا، القلب عليل مشتاق، والدنيا من فرحتي وسعت كل آلافراح.

عندما وقعت عيناها اللامعة علي، ضحكت عيونها وترسمت غمازتيها على خدودها. في رفقتها عدد من طالبات المنطقة، وكنت قد حددت أماكن حجز كل منهن. ادخلنا الحقائب وبمساعدة طلاب من المنطقة من زملائي في الجامعة. سوف تشهد تلك الرحلة، هجرة الطلاب لحجرات الطالبات، تحت دعاوي متعددة، تحيرت في تنوعها وابداع بعضنا.

نبتت داريا امام عيني من طفلة تلعب امامي، ننطلق لشاطيء النيل وتنام بجواري على الرمال الرطبة في الليالي القمرية. في بداية الصبا، ترتدي فستان المدرسة الازوق، وتحاصر شعرها الاسود تحت طرحة بيضاء، تتقافز على جداول السواقي التي تمتد على الطرقات، الريح تعبث ببقايا شعرها المتمردة على الطرحة ويهتز نهديها البرعمين. سوف اراها في منازلنا المتلاصقة، وهي تكنس الحوش الواسع وهي تبرطم او تغني بصت خفيض.

اراها وهي تجلب الماء من البئر وتجاهد لحفظ توازن الصفيحة فوق راسها، تليس ارضية المنزل بالطين المخلوط بالروث، تقلب في حلة الملاح ، تتذوق الطعم، تنثر الملح او البهار أحياناً او تضيق الماء اخرى. داريا في العصاري، مع ثلة من الفتيات سوف يتوجهن إلى السواقي لحش الخضار، لقط حبات البامية او الاسود، او إلى الجروف لياكلن الفول الخضر النابت او البطيخ من الشواطيء الرملية. يتقافزن، يضحكن ويفطرن قلوب الشبان. سوف يسرن في الجروف، يحملن القفاف المزخرفة والملونة، يتمايلن ويهتزن وهن يتدحرجن من مكان عال لمكان منخفض، يقدمن رجلاً ويؤخرن اخرى ولا ينظرن مطلقاً خلفهن حيث تتابعهم اعين حادة من شبان على طول الطرقات.

كل الاغنيات التي نظمها الشعراء، رددها المغنيين واستخدمها شبان وشباب للتلميح والتصريح بمشاعرهم، تنظم في نساء بعينهن. ساحات الرقص البوتقة التي سوف تبدأ فيها حكايات الحب والغرام، ومسرحاً لتبادل الرسائل المستقبلية. سوف يصف المغني بعضهن، والكل يعلم لمن الفت القصيدة، الشاعر الذي هواها وربما تفتتح الرقص وقد تزوجا وانجبا البنين والبنات، لكن القصائد لا تموت وتستمر في انديا دوائر المشاعر.

منذ بداية تفتحها، داريا الجوهرة التي تسابق عليها الشعراء، مؤلفي الحكايات وغنى لها المغنيين. سوف يصفونها أنها ولدت في جزيرة لوحدها، فرشت لها أوراق الموز لتنام عليها، رش عليها ماء الورد لحمامها، وركزت لها عصير كل الفواكه وجاء جبريل ليضع يده عليها ويقول لها كوني ملاكاً.

وصفت باجمل الجميلات، الرطب النيء، لايملأ العين غيرها. سوف تغني أعنية وردي عندما تكون حاضرة، يصفون عيناها كنجوم في ليلة صيف صافية، تنعكس بوجهها على النهر المضيء بالقمر، قدميها كأنها ارجل عنقريب صنع بالمخرطة ولونها كسمن تمت صناعته عن طريق هز

اللبن في قربة جلدية.

برغم أنني **"مكيدها"**، أي كفيلها الرسمي، في رحلة استغرقتنا معاً لثلاث أيام وليلين، تفرست في وجهها الجميل العذب، عنقها النحيل واصابعها المستدقة الناعمة الرطبة. أكلنا سوياً، ضحكنا وتسامرنا كثيراً، تفتَّحَ لنا ربيع الأرض وتوسدنا عطش النهر للجروف المورقة لكن توقفت دوماً.

داريا تتأرجح وتتمايس امامنا وهي تغذ السير للنهر، وأنا اغيب في خيال انسج غيمتين تظللان مسرح الغزلان في الحدائق. نظرت امي لخيالي الجامح وقالت بهدوء: **ما تمشي بعيد، أنت عارف ما ممكن!**

عينت مساعد استاذ في الجامعة. داريا قد اكملت المدرسة الثانوية والتحقت بكلية المعلمات في امدرمان حيث أراها دائماً، ثم غبت لسنوات في الخارج لتحضير الماجستير. اضمحلت داريا في القلب واقتعدت زاوية بعيدة في الفؤاد. ارسلوا لي خطاباً مع أحد الأشخاص، أن داريا سوف تحضر معي في القطار من مكان عملها في أحد المدن الصغرى. السنوات الطويلة بيننا كادت أن تصبح ذكريات في زمان فاقد الذاكرة، قليل من الود وكثير من الغياب.

في تلك الليلة، عندما ذهبنا لاغتسال عروس في ليلة فرحها في النيل، كان القمر جالساً على الضفة الاخرى، ضوئه يعبر المياه على جسر من الفضة. الخيط يصل مباشرة اليها، فتلتمع عيونها الذكية، وينطبع خيط الضوء على شعرها المفرق المدهون بزيوت مختلفة التراكيب. شعرها هذا تغنى به الركبان. عندما رقصت تلك الليلة، رقصت لي وحدي..اعطتني الشبال الكبير، انامت شعرها الاسود على كتفي كطائر مقرور وعندما التمعت عيناها على اضواء الرتاين كانت تلتمع رداً على تحياتي للعيون.

داريا

مرت سنوات عديدة، اكملت فيها كلية المعلمات بامدرمان ونقلت للعمل كمدرسة في مدينة صغيرة. منذ أن دخلت المدرسة الثانوية سوف يتوافد الخطاب شهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام. كنت قد تحصنت بأنني اريد اكمال دراستي. سوف تنتهي الحجة بعد انتهائي من كلية المعلمات، ويتزايد الخطاب من اقاربي، أهل القرية ومن المنطقة كلها.

في ذات ليلة جلست مع والدي، والدتي واختي الكبرى وأخبرتهم أنني لن اتزوج غير إبراهيم عبد الحميد. أنفجرت امي ببكاء مر وهي تقول أنها كانت تحس بهذا منذ أن علقت عليها عندما حدثتني عن القسم المغلظ. سوف أحسم في تلك الليلة موقفي للابد رغم التهديدات، الرجاء والتوسل.

رأيته وهو يطل من باب القطار، طويلاً، مائلاً للنحالة ووسيماً وأنا احبه.

سوف يشتعل القلب ويئن من الفراق الطويل، وتمتصني ليالي الوحدة القاسية. كانت اشواقي العارمة قد فاضت بي بعد سنوات طويلة لم يكن بيننا سوى خطابات لم تحسن أن تحوي حلمنا الدائم. عندما مد يديه، تلهفت كفاي لتنام كحمامة في الدفء، قلبي موجوع وتتوفز اعصابي كلها.

كان إبراهيم قد نحل اكثر، ولفته مسحة من الحزن وبدا عاجزا عن بدء أي حديث. مع اهتزاز القطار هدأت اعصابنا المتوترة خرجنا لنقف في الممر المترب في ناحية باب القطار الذي سمح لنا بفسحة من مسافة تجاورنا فيها وتحدثنا.

كان عطر خفيف يصل أنفي مختلطاً بعطري، لكني كنت اشم رائحة جسمه التي كانت أول ما جذبني قبل اكثر من عقد. حكيت له عن المدينة الصغيرة، حياتي، ليالي الطويلة، طالباتي والمدرسات وأهل المدينة. تحدثت كثيراً كانني استعيد سنوات الصمت بيننا، وبعد وقت طويل انتبهت أنه لايتحدث سوى بكلمات قليلة مشجعة.

كان القطار قد توقف في محطة خلوية لاتحوي سوى عدد قليل من منازل العاملين، صهريج ماء وعدة مسارات لقضبان السكك الحديدية. سأل إبراهيم أحد العاملين عن سبب التوقف، فاخبرنا أن هناك قطار قادم من الإتجاه الآخر وسوف ننتظر حوالي الثلاث ساعات.

سرنا على الرمال وابتعدنا عن المحطة وجلسنا على رمال ناعمة باردة. ساد صمت مقيت بيننا وكنت مصممة على أن نناقش مستقبل علاقتنا. عندما توجهت بوجهي لابدأ السؤال، وأنا جالسة بجواره كتفي ملتصق بكتفه، جاءت كفي بجوار يديه، امسك باصبعي الصغير وضغط عليها، حرك يديه على ظهر كفي وبروية غير متعجلة حضن يداي.

وضعت كفي في كفه، لتنام كطفل شبع، اتكئت بكتفي على جانب صدره لاغرق في بحور الليالي الملتاعة ورائحة جسده الدافيء.

ظللنا لفترة طويلة ونحن نمتص رحيق اللحظة ونخزنها، استمر الهدوء الشامل بيننا ولم يجسر أي منا على قطعه. كانت قد شاعت مواقفنا، اعلنتها على روؤس الاشهاد في الاسرة، أنني لن اتزوج

إلا إبراهيم عبد الحميد، وكعادة قرانا صار سراً معلوماً من الجميع. سوف تنسج القصائد، ويغني المغنون ويتناقلون الحكاية وَحَبيبُ النّفسِ مَفقُودُ. وكان إبراهيم قد اعلن موقفه منذ أن انتهى من الجامعة أنه في انتظار أن يميل الغبيط بنا معاً.

كان شبح القسم المغلظ هو محور ما تحدثنا... وتحدثنا به. كنت قد حسمت امري أن علينا أن نذهب مع صديقين لأي مأذون ليعقد علينا ونحطم إرادة من يريدون أن يحكمونا من القبور. سوف ابدأ حديثي أنه لو لم تستطع معارفنا، شهاداتنا العلمية وتجاربنا أن تخترق هذا الجدار فلا فائدة. قال أنه بعد ثورة أكتوبر كان قد أمتلا حماساً وجسارة وكان على اعتاب أن يضغط أهلنا للزواج، لكن سرعان ما تراجع، وأضاف بحزن عميق يبدو أن ذلك الفوران الكبير لم يعطنا قدرة التغير وإرادة الاقتحام. رغم عدم فهمي لنقطته تلك، آنذاك، وعدم القدرة على ايجاد علاقة منطقية، ألا أنني سوف ادرك ما عنى بعد العقد تقريباً من منتصف السبعينات.

ربما بلا إتفاق كنا قد رسمنا مسارات حياتنا، وأنا انام كطفلة ناعسة، في محطة خلوية بعيدة، كما كنت افعل في طفولتي حين انسل من سريري وانام على طرف عنقريبه العالي. سوف لن يتكرر ما فعلناه في تلك الليلة واقتنصناه في العتمة القاسية، يد على الكف واتكاءة على الصدر، إلا بعد عقد كامل.

ابراهيم

وحيدة، في المحطة التي كانت تعرف بالسندة، حيث لاتقف القطارات إلا إذا وجد راكب. من البعيد رأيت داريا، فستانها الاخضر ينسدل برقة على قوامها، التوب الأبيض وشعرها الغزير شلالات من ليل حالك السواد. الكثبان الرملية كلوحة تشكيلية لعب الزمن، الريح وفوضي المناخات فيها وجعلها خلفية تقف امامها الإنسانة الجميلة. توقف القطار لهنيهة في المحطة، وكنت جاهزاً للنزول ومساعدتها للركوب.

السنوات الطويلة قد ابحرت في بحر العمر. على ارصفة المدن المبقورة البطن، الفارغة الاحشاء، اقف ليضيع ليلى. المدن الثرية، الجائعة الاطراف تأكل كبد حبي الذي لم يأت. آلافاق المشتاقة، ايقاعات الموسيقي، كتب الحب والكتابة، حصاد المدائن المزدهرة، فرحة طفلة في لعبها النشيط، تتواتر داخلي ويجوع القلب. الفرح قليل في العالم.

كنت في غرفة نوم في القطار، وهي غرفة تحوي سريرين لشخصين، وأوصلتها لغرفة نوم مجاورة مع امرأة اخرى. عندما احتضنت يداي اصابعها المستدقة الناعمة الرطبة، اصطكت ركبتاى، انقبض بطني بمغص حاد، كأن احشائي فارغة. تمتمت بكلمات قليلة وجاوبتني بكمات اقل. بعد مرور بعض الوقت ذهبت لغرفتها وخرجنا معاً لنقف عند فسحة باب القطار، الذي كان اكثر اتساعاً. ساد بيننا صمت قليل داكن، لكن ونحن ننظر لبعضينا انهمر نهر الاشواق. ثلث الرحلة قضيناها ونحن واقفان امام الباب، عندما يقف القطار ننزل ونجلس على الرمال الناعمة الرطبة، ونحن نتحدث، ونتحدث ونتحدث بدون انقطاع. اعدنا تشكيل الماضي من خلال ذكرياتنا التي كانت قد اصبحت مثل خيوط العناكب في الحفر المهجورة، هروباً إلى تلك الذكريات الناعسة الاحلام، ظلت بداخلنا تقاوم تشتت الذكريات ونثار الغبار.

من كل اللحظات التي جمعتني بداريا، تلك التي حفرت في داخلي. البنت التي الف لها الشعراء عيون القصائد، الحكواتية الذين نسجوا من خيالهم بناءات مستحيلة، المغنيين الذين تابعوها في حلها وترحالها من السواقي، الجروف، الاحتفالات، سفر العربات والقطارات وكل تفاصيل حياتها. كانت قد تركت القرية والتحقت بالتعليم في أحدى المدارس في مدينة صغيرة، لكن اشواق الاغنيات لم تتركها وسافرت معها في كل الدروب التي سارتها. قلت لها أن تأريخها مكتوب في صدور القصائد وروح الاغنيات الشهيرة.

درت حول السؤال، من طرقات خلفية، ازقة المماحكات ودروب التذاكي، لكنها حاصرتني حتى سألتها بوضوح حول عدم زواجها، وهي من هي. اجابتها ما لم يطل على خاطري في ماضي أيامي القاسية، او جال على بالي طوال جوساني في المدن البعيدة.

كنا جالسين في أحدى المحطات الخلوية، الليل كثيف حولنا، في انتظار قطار سوف يمر قادماً من المحطة القادمة. الرمل الناعم الرطب يتخللنا ويعطينا أحساساً بالبرودة والاسترخاء. من داخل ظلام كثيف، وبصيص ضوء من غرف القطار البعيد، سوف تمد داريا اصابعها المستدقة الناعمة

الرطبة، تبحث عن كفي وتقع عليها كحمامة هادئة، ثم تتكيء بكتفها علي لتغرقني في انهار من الاشواق والعطور الزكية.

سوف لن تضع داريا كفها في كفي وتنام كطفل شبع، بعد تلك الليلة في المحطة الخلوية إلا بعد عقد كامل.

مر عقدان على وفاة الحاج محمد داود شوكت. ابوبكر وعلي يديران تجارة الاسرة في القرية، وقد توسعت وشملت بساتيناً وحدائقاً وآلاف آلافدنة. مات الحاج محمد داود شوكت وقد اكتمل تأسيس تجارته التي امتدت من القرية، إلى حلفا، مصر، الحسن في زالنجي، عمر في جوبا وزوج بنته في القضارف. لم ندري نحن الاحفاد لماذا استقل جدي علي عن تجارة الاسرة واصبح لنا دكاكيننا الخاصة، مزارعنا الخاصة وبساتبن منفصلة.

سوف نشب نحن من الطفولة والصبا وندخل مدارج الرجولة ولانرى أي انقطاع في علاقات البيوت المتجاورة، فاجدادي يصلون في مسجد القرية معاً، يفرشون البروش ويملئون قربة الماء ويجهزون العشاء من كل البيوت امام منازلنا، سوف يسافرون للحج معاً وتراهم واقفين عند وفاة أي من القرية يستقبلون المعزين ويجهزون الأماكن والبيوت والطعام والشاي. رغم أن لنا مزارع وبساتين، إلا أننا نشترك في حصاد البلح، ويفرز لنا نصيبنا مثل الآخرين.

سوف يستدعي ماحدث، والذي قبر في ذلك اليوم في صدور الذين حضروا الاجتماع. حضر عمر من جوبا، الرحلة تستغرق حوالي الشهر سفراً بالباخرة النيلية، القطارات والعربات السفرية. تلك أول مرة نرى فيها أبناءه من زوجته الجنوبية، داود وشوكت. لم تقل رحلة الحسن عن الشهر من زالنجي مستقلاً القطارات والعربات. حضر اللقاء أيضاً جدي ابوبكر، جدي علي وزوج جدتنا فاطمة قادماً من القضارف. وكان جدنا عثمان قد فارق الحياة قبلها بعام. لم يسمح للابناء وكان منهم من جاوز الخمسين بالحضور.

ذكر هذا الاجتماع كل اهالي القرية، باجتماع الحاج محمد داود شوكت مع أبناءه وبعض احفاده، اجتماع شهير، قبل اكثر من عقدين، اسماه أهل القرية "عندهم كلام". رغم أن هذا الاجتماع استمر ليومين كاملين، فقد اوصد على ما قيل رتاج من القسم المغلظ الذي اختتم به اللقاء. ورغم أن النساء كن دائماً يستطعن الوصول لاسرار الرجال، إلا أنهن اعلن فشلهن في اغراء رجالهم غلى مشاركتهم ما جرى.

عندما لاحظت والدتي بداية خشونة صوتي، الشعيرات الدقيقة في منبت الشنب، ابقتني بجوارها ذات مساء ونحن وحدنا جالسين على مصطبة المنزل، وبصوت اقرب إلى الدامع اخبرتني أن خلافاً كان قد نشأ بين اجدادي ابوبكر وعلي، تم على إثره الاتفاق بين الاخوان أن يمنع زواج أي من ابناء اوبنات الاخوين جدي ابوبكر وجدي علي من بعض. ولأنني لم اكن مهتماً بالزواج فلم اسأل عن السبب.

لم يكن عدم سؤالي فقط لعدم اكتراثي بهذا القرار، فقد كانت انباء الخلاف قد سرت في أرجاء قريتنا سريان الهشيم، جزءاً من ونسات الميادين، شائعات بيوت العزاء وأحياناً مجالاً لإشتعال

العراكات. سوف تصير هذه الحكايات مثل سائر اساطير القرية، طبقة تتراكم فوق طبقة، يضيع اصل الحكاية وتخلف لنا تصورات واحاسيس من يتناولونها. كان اجدادي ابوبكر وعلي قد فارقا الحياة، كما بعض أبناءهم، وتركوا لنا خلافاً ابعدنا داريا وأنا.

أثناء مراهقتي لم اكن مشغولاً بداريا او غيرها من الفتيات، ليس لهن متسع في حياتي. منغمساً في لعب الكرة مع فريق المدرسة، الاهتمام بحماري الذي يجعلني ادور حول القرية واجوس، السباحة في النيل ومحاولات عبوره من الشط إلى الغرب، التجول في القرى المختلفة وراء حفلات الاعراس، المغنين والرقص في ساحاتها، تجربة تدخين السجائر اللف وتناول الدكاي في الخفاء، تسلق النخلات الطوال، اصطياد القماري بواسطة الاشراك والسمك بالشباك، جلب القش للبهائم، ليالي عاشوراء والمولد، رحلات إلى الجبل لاصطياد الحبار والارانب، درس القمح والاستلقاء في الميدان بعد نهار شاق للاستماع للحكايات، الشائعات، آخر النكات والاغنيات. عالمي ممتلئ لطاقته يمنعنب من التفكير في النساء. حتى عندما داريا ذات عصرية تتأرجح، تتمرجح، تتثنى وتتمايل مرسلة ارادفها ذات اليمين وذات الشمال، كأنّ أخمصنها بالشّوكِ منتعلُ، وعندما ذكرتني والدتي أن لا افكر فيها، كان تفكيري كله منصباً أنها "بنت إستعراضية".

سوف تمر السنوات علينا كخيول مسرعة، لا تلوي على شيء، وتدفعنا رويداً رويداً حتى رأيتها واقفة في المحطة سامقة، وادعة وعيناها تنامان في ضوء النهار. عندما رايتها انقبض القلب، واهتز كياني كله. اخترقت داريا نافذة القلب واقتعدت فيها. ما حدث بعد ذلك كان حواراً بين روحين التقيا في سماء الاحلام. سوف تتحدد في ليلتين وثلاث أيام مستقبل أيامي، وترسم صورة ستنقلنا من عصر لآخر.

ثنايا تلك العطلة الصيفية قد سحبتنا كسيل هادر، سرنا الطرقات المنزلقة ليهب نسيم الحب، ويهز القلب هزه. واعياً لاساطير الاسرة التي تحاصرني، فتمالكت نفساً، ليس لدية سبيل، لكن الحب تفضحه العيون، الايماءات، الابتسامات المبتسرة، النظرات العجلي وعيون تسرح في العيون. في قرية صغيرة لن تنجو قصة تطاحنها الاساطير من الطفو والظهور. بدأ شعراء من القرية وخارجها في نسج القصائد التي محورها هذا الحب المستحيل.

منزلنا مكوناً من جزئين، المنزل الكبير ويحوي العديد من الغرف، المطبخ، المخازن وبراندة، الجزء الاصغر كانت المضيفة وهي تتكون من غرفة عالية وامامها مصبطة، وغرفة مقابلة تحتفظ فيها الوالدة باشيائها الثمينة. كان والدي ينام في الحوش الكبير، لكن في بعض الأيام كان يظل في المضيفة، وتلحق به الوالدة بعد أن تطمئن أننا قد غرقنا في النوم. لما تسامعت والدتي ما بيني وبين داريا، دعاني والدي إلى المضيفة، وقد فرش لي عنقريب مجاور له في المصطبة. كانت هذه اجازتي الصيفية وأنا في ثالثة جامعة.

أدري وهو يدري أن عليه أن يقدم لي اجابات واضحة حول ما حدث. عبر حديث طويل، في ليلة صيفية هدأت فيها القرية بعد وعثاء النهار، دار والدي حول الحدث وفصل حول الاتفاق المغلظ بالقسم وقراءة الفاتحة. بعد أن فرغ من حديثه قلت له مباشرة أنني اريد هذه البنت زوجة لي، وهي تريدني زوجاً لها، أنني بلغت من العمر ما يسمح لي أن اطلع على الحقيقة كاملة حول سبب

هذا الاتفاق. ليس من حق اجدادي – مع احتراماتي لهم- أن يحددوا حياتنا او يتحكموا بها لاسباب اريد أن اعرفها لاقيم موقفهم.

عندما عقد الاجتماع، بدأ ابوبكر اكبر أبناء الحاج محمد داود شوكت بعرض وثيقة من المحكمة في المدينة القريبة، تم بموجبها تسجيل حوالي ثلث أراضي الحاج محمد داود شوكت لاكبر أبناء علي بن الحاج محمد داود شوكت. حصل جدي علي على توكيل عام من الاسرة حول كافة أراضي الاسرة، وقد استعملها علي كمسوغ قدمه للمحكمة للتسجيل. تبودلت اتهامات ابرزها ان ابوبكر مكن لأبناءه في الاعمال التجارية، أن الحسن وعمر قد استقلا بتجارتهم في زالنجي وجوبا. لعب زوج عمتنا الدور الاكبر في تهدئة الامور وعدم حرف النقاش لمناطق الاحتكاك. لم يأخذ الاتفاق حول استقلال الابناء كل بموضوع عمله، حددوا المناطق المشتركة، لكن النقاش استمر ليوم ونصف بعد أن اقسم ابوبكر عن عدم السماح لابناء عمر واحفاده بمصاهرته. رغم النقاش المطول لم يستطيعوا اقناع ابوبكر عن التراجع. اتفقوا على أن يتم احترام قسم ابوبكر، ويتم تبليغ القرار بشكل مخفف للاسرتين. اقسموا جميعا على القرآن الكريم أن لايتسرب هذا الامر سوى لاكبر الابناء في كل الاسر وهكذا.

داريا مسافرة لمدرستها غداً، جلسنا على العنقريب البارد الرطب، طفلة تطل بعيونها الذكية على العالم، وكان العالم آنذاك صغيراً يحتوينا معاً، ممتلئاً ورقيقاً لايزيد على نصف متر، هو ما يفصلنا ولاتسع احلامي الوثابة العارمة التداعي. والدتي تسكب لنا الشاي، تنظر لنا بحزن شديد ودموعها تفيض. غالبها الحزن وغلبها فجلست بيننا واحتضنتنا واطلقت العنان لنشيج مر.

غبت عن القرية لسنوات طويلة، ابتلعتني المدن المستطيلة. كنت قد عينت مساعد استاذ في الجامعة. كانت داريا قد اكملت المدرسة الثانوية والتحقت بكلية المعلمات في امدرمان حيث كنت أراها دائماً، ثم غبت لسنوات في الخارج لتحضير الماجستير. اضمحلت داريا في القلب واقتعدت زاوية بعيدة في الفؤاد.

كانت السنوات الطويلة قد ابحرت في بحر العمر. على ارصفة المدن المبقورة البطن، الفارغة الاحشاء، اقف ليضيع ليلى. المدن الثرية، الجائعة الاطراف تأكل كبد حبي الذي لم يأت. آلافاق المشتاقة، ايقاعات الموسيقي، كتب الحب والكتابة، حصاد المدائن المزدهرة، فرحة طفلة في لعبها النشيط، تتواتر داخلي ويجوع القلب. الفرح قليل في العالم.

كانت قد مرت سنتان منذ احتضنت داريا كفي ووضعت رأسها المتعب من وعثاء الطريق، الاشواق المجهضة والمستقبل المبهم.

كنت قد تحدثت في تلك العطلة مع اجدادي عن كسر الطوق. لعقود كانت المصاهرات بين الاخوين قد توقفت تماماً، استسلم لها الابناء والاحفاد وأصبحت جزءاً من حياتهم. سوف يشيحون بوجوههم عندما تحدثت مع جديّ، ويسوقون الحديث للعلاقات الطيبة والود المتبادل. ابواب مغلقة لن يفتحوها قط، وبديلاً من ذلك سوف يبالغون في اكرامي والثناء عليّ. سوف يتم التضييق على داريا أن تقلل للحد الادنى لقائها بي وسوف يجلبون لها صفوفاً من العرسان المحتملين. اوصدت داريا مغاليق قلبها، وبدون أن تصرح كانت قد حددت مصيرها. في تلك العطلة سوف تحاصرني

الوالدة والوالد والعمات والخالات، ليل نهار، وسوف يفيض المنزل بفتيات اسرتنا الطامحات للزواج.

كتبت لي داريا أنها قد ملت حياتها في المدينة الصغيرة، يئست من الانتظار ونيتها الرجوع للقرية. تحركت في ذلك الشهر واستطعت تدبير قبولها في جامعة القاهرة الفرع، ترتيب السكن ونقلها للعاصمة معلمة في مدرسة الديوم الشرقية الأولية. بعد نقاش طويل وتهديد مني أنني اريد زوجة خريجة جامعة، خاصة وأنا في طريقي لنيل الدكتوراة فوافقت. داريا تأتي في القطار، تنشر الفرح الخرافي على الارصفة، المحطات والليالي الممتدة.

خرطوم ما بعد منتصف السبعينات، مجهضة للاحلام ومولعة بالسهر وآلافراح، تتوشح اطياف التواريخ القديمة، تنسى الاحلام الجبارة والشوارع الفائضة واشواق العالم الآتي. داريا تعطي الحياة معناها وتوقد نار القصائد. أراها وئيدة في مسيرها للمدرسة، يزينها ثوب ابيض. سوف اراها كل يوم طالعة من غابات ومن وديان ومن صحية جروف النيل مع الموجة الصباحية. أسارع في الليل والمحلات قد اغلقت، اضواء اعلانات عن شركة طيران، صراخ عربة تقطع الصمت، لاحضنها بعيوني وتلفني بعيناها.

كانت داريا سعيدة بحياتها الجديدة، وقد عبرت لي كثيراً انها تسعد بالانشغال لكي لاتحس بالوحدة. كنت جزءاً كبيراً من هذا الانشغال. كنت خطيبها المعتمد وسط زميلاتها المعلمات، وسط طلاب الجامعة وتسربت قصتنا في اوساط عديدة، كتب عنها الصحفيين، الفت حولها اغان شهيرة وقصائد. وصارت داريا مركز احاديث اصدقائي في جلسات السمر ومصدر التعليقات الذكية والغبية. سوف نستسلم معاً لوضعنا وبدا لنا أن هكذا عادية الحياة، بل اعتبرنا أننا محظوظين لأننا دائماً معاً. وعندما أسال نفسي بعد كل هذه السنوات لماذا صبرنا كل هذا الوقت لا أجد اجابة.

حانت ساعة رحلتي التي سوف اغيب فيها ثلاث اعوام في تحضير الدكتوراة، وكانت داريا في سنتها الثالثة في الجامعة. طوال سنوات كنت اراها كل مساء، وأحياناً مرتين في اليوم. كنا في الانتظار وننسج حياتنا التي تتسرب من بين ايادينا وندمن الرحيل في الخيال. طوال السنوات لم تسمح لي داريا أن اهرع لكفها وصار طيب لقيانا الاحاديث. سوف تعيش داريا في تفاصيلي اليومية والتي تسأل عنها بشغف وود، وسوف اجد نفسي إنطلق في أرجاء حياتها لتصبح كأنها ذكرياتي الخاصة.

كانت داريا قد درست الفرنسية، ضمن كورسات الجامعة، وبعدها التحقنا سوية بفصول المركز الثقافي الفرنسي تمهيداً لسفري لفرنسا. سوف امضي سنواتي في فرنسا طولاً وعرضاً، وكانت هي معي، في الرسائل. كنت ارسل لها يومياً تقريباً، رسائل مطولة، كتابات قليلة على ظهر الصور التي التقطها من انحاء فرنسا، على اطراف صفحة من جريدة، ملصقات صغيرة من دعايات آلافراح، نتيجة امتحاناتي وعبر نشرات من مواد متنوعة. كنت مصمماً أن تعيش معي باريس كما اراها.

التقينا خلال الفترة مرتين في القاهرة، حيث حضرت مع رحلة للمعلمات. سرنا على كبري الجامعة، الضجيج على جانبي الطريق، البصات مزدحمة بالركاب والوقت ربيعي الظلال. داريا

تتقافز كظبية مزدحمة بالحركة وشعرها الاسود الناعم يتراقص على جانبي وجهها. سوف تمانع داريا ، لكنها ضاعت بين تلمس الاصابع في لهفة مذهلة. نحن نسير ونتحدث، ترنحات مراكب صغيرة وعوامات مضيئة، صوت مكتوم لفرقة اجنبية ومسرح يموج بالحياة.

ونحن نجلس في جزء من الشاطيء خال من الحركة سوف تلتصق شفتاي بشفتاها واضيع في الرحيق. سوف يمر اكثر من نصف العقد لكي اعيد الكرة.

كادت الثمانينات تتنتصف، وكنت قد عدت من فرنسا حاملاً الدكتوراه، وداريا تعمل في مدرسة الخرطوم الثانوية للبنات وتحضر لماجستيرفي جامعة القاهرة الفرع. يوم 6 ابريل زال النظام، انتهت اللعبه، تدفقت الاحلام وسرعان ما سوف تنحسر. كنا جالسين في دار اساتذة جامعة الخرطوم، بدأنا في الحديث حول ترتيبات زواجنا. كانت الأيام في خلال العشرين عاماً قد تغيرت. ابائنا قد فارقوا الحياة، وكذلك والدتها ولم تبق سوى والدتي. كان الناس قد نسوا القسم، تشتت بهم البلاد ولم يعودوا مهتمين. اصبحت تجارتنا وزراعتنا مجرد بقايا ماضي مجيد. في تلك الليلة، ذهبنا وجلسنا على شاطي لسان طلعت، متكئين على ضوء القمر، حتى الشروق. وفنان معجب بنفسه، بأتينا صوته مكتوماً.

العشنا فيها غرامنا أيامنا
في الفؤاد ذكراها أيامنا
وما بحن لسواها

داريا وابراهيم

جاءوا من كل فج عميق لليلة سحرية، تحت الاضواء المتناثرة، الازهار والشجيرات العتيقة.

تجمع في تلك الليلة معظم أهلي من القرية، جاء ابناء واحفاد الحسن من زالنجي، وعمر من جوبا، وكانت أول مرة نرى فيها زوجة عمي الجنوبية، وابناء واحفاد عمتنا فاطمة من القضارف. حضر اخواني واخواتي وأبناءهم من الخليج، مصر، اليمن وليبيا. انهمر سيل طلابي وطالباتي، اساتذة من كل جامعات السودان واصدقاء. حضرت طالبات المدينة التي درستهن في اوائل عملها في التعليم، طالبات تفتحن وتوردن من عهد المدرسة الأولية، زملاء الجامعة، فصول كاملة من طالبات مدرسة الخرطوم الثانوية.

حضر كل السياسيين، اعضاء النقابات وطلاب من جامعات مختلفة. تداعى للحفل كل المغنيين من منطقتنا، كل الشعراء الذين اشعلت نيرانهم ونسجوا من قصتها رحيق الروح. سوف تصبح حفلة عرسها استعادة ذاكرة للاغنيات التي قيلت فيها في اوائل شبابها، الذين تابعوا قصتنا الطويلة عبر السنوات، اغنيات ارتبطت بها مما غنوها في مناسبات مختلفة. لم يحدث من قبل في حفلات العرس أن القيت كلمات، القيت عشرة قصائد حولها او حول ما حدث ونصب معرض تشكيلي يضم كافة البورتريهات التي رسوها لها على مر السنوات. عندما غنى وردي إختار اغنيات كان يغنيها الفنانون عندما تكون موجودة في أي حفل.

عندما رأيتها وهي تدخل على المكان، انقبض البطن وارتجف الفؤاد. كانت كما رأيتها قبل عقدين تقف هناك سامقة، وادعة وعيناها تنامان في ضوء النهار. رغم تجوالي في العالم فقد ظلت داريا في عيوني كما وصفت من قبل اجمل الجميلات، ارقهن واذكاهن وجوعي المستمر.

عندما جلست بجواري، ابتسمت، ضحكت عيناها، دست في يدي منديلين كانت قد غزلتهما لىّ على طوال السنوات، كان عليها آثر حناء، قطرات كحل، عبك طيبها، مخابيء التاريخ وسيول الذكريات. قالت بصوتها الدافيء: **مبروك عليك داريا يا دكتور**. فقمت وذهبت لغرفة مظلمة فارغة واجهشت بنشيج مر وبكاء طويل.

في خلال اربع سنوات، وكانت داريا قالت لي أنها لاتملك رفاهية الانتظار، انجبنا أبناءنا الثلاث داود، زهره وابوبكر.

عبك نورس

المتحري

بحثت عن نورس حمدان عبد الرسول في اضابيرنا. واضابير الحكومة اسرار مغلقة كثيرة، يظن الناس أنها لاتعلم عنهم سوى القليل بينما تتجمع الخيوط من مجار عديدة لترسم صورة كاملة عن كل مواطن، من الأوراق الكثيرة التي يوقع عليها الشخص في مسيرة حياته حتى مماته. اضافت لنا التكنلوجيا ابعاداً اخرى من سيل المعلومات من احاديث الهواتف، الرسائل النصية، البريد الالكتروني، التنصت المباشر، زرع الكاميرات وغيرها. مشكلتنا أصبحت في سيول المعلومات لا شحها.

عندما دخلت المدرسة بعد أن بلغت السادسة من عمرها، وقد توافد اخوين صغار، وبنى والدها زريبة كبيرة بطول حائط المنزل لتربية بعض الاغنام والدجاج. سوف تصبح الزريبة مقر لعبها طوال اليوم، تراقب الاغنام وهي تاكل القش وتصدر الأصوات، وتستمتع بحركات الدجاج السريعة، ورؤيتها تخرج البيض. عندما ذهبت للمدرسة كانت في الأيام الأولى لاتفتقد سوى رؤية الاغنام والدجاج وكوب اللبن الساخن عند الظهيرة.

أخاها الاكبر كان قد درس الخلوة، وإنطلق مع والده خلف القطعان. ولما كان قد بلغ العاشرة آنذاك فقد استمع لنصحة زوجته، التي علمت بها من ونسة نسوان الحلة، أن يلحقه بفصول محو الامية ليلاً وورشة سيارات يعمل بها أحد ازواج جاراتها ليتعلم الصنعة. عندما التحقت نورسبمدرسة اليوم الشرقية، سوف يوصلها أخاها كل صباح ويعطيها مصاريف زيادة من ماله.

منزلهم مقصد أهلها حين يأتون للاستشفاء، التجارة، ممثلين في البرلمانات المختلفة، وأحياناً كثيرة لزيارتهم. في كل مرة يأتي شخص من بلادنا للمنزل يعانقه والدي ويجهش بالبكاء. رغم مرور السنوات سوف لن تتغير عادته. وسوف تسأله نورس في كل مرة عن السبب ولن تتغير الاجابة: **بحن لأهلي وبكاناتي**. ظبية بعد أن تعلمت لغة الخرطوم كانت تقول لهم: **ابوكم فاقد حنان، بالله أنا مقصره**. كانوا يعلمون مدى حبها لحمدان، حرصها عليه وتدليعها له.

على طول الديوم وعرضها، تصاعد صيتها. عندما التحقت بالخرطوم الثانوية بنات، يتوافد طلاب من مدارس مجاورة ويحملقون فيها. يرسلون لها الرسائل في موبايلها النوكيا، وبعضهم يوسطن زميلاتها في التعارف. سوف تمتليء الساحه عندما تحضر حفل زواج او احتفال في المدرسة. بشكل ما ورثت ايقاعات أهلها الذين لاتراهم كثيراً، وتسمع موسيقاهم في راديو والدها أحياناً، ومعها ورثت فن الرقص والتطريب. تنتزع لفتات العيون في كل ساحة رقص تدخلها، تتثنى، تتمايس ويتناغم جسدها مع أي لحن بسرعة، يتسابقون لمشاركتها او يطلبون الشبال. كغيرها من المراهقات كانت تهوى الاغنيات، وتذوب وجداً في الفنانيين.

كسهم محكم الاطلاق سوف تصل نورس إلى كلية التربية. تعلم أنها يوماً ما سوف تعين والدها على تحمل الصرف على خمس اطفال اصغر منها ويتدحرجون في مراحلهم التعليمية. أخاها الاكبر تزوج من ابنة عمه، ولأول مرة رأت نورس ما الذي كان ينتزع الدموع من مآقي اباها.

قضوا في حلتهم شهراً كاملاً، ارتبطت بها نورس بشكل كبير، جعلهم يترددون عليها كل عامين، وأحياناً لوحدها. توافد الابناء على اخيها وسكن في أحد اطراف الخرطوم.

ضغوط الحياة تزايدت على الاسرة، مع تزايد مصروفات المدارس، الرسوم على العلاج والغلاء الذي ينهش جيوب المواطنين، جاء قرار منع تربية الاغنام في المدينة ليحرمهم من اللبن. عندما التحقت نورس بالجامعة، احيل والدها على المعاش بالغاء الوظيفة. كارثة كبرى حلت بالمنزل. والدها الذي ارهقته حياة المدينة وعاش سنواته الخمس عشر وهو يتذكر بواديه الشاسعة وسعن اللبن والسمن التي حرم منهما، ولا تملأ أذنيه خوار الأبقار وثغاء الشياه.

إنتقلت نورس الجميلة من الاغنيات إلى العمل العام. هنا سوف تتفتق مواهبها وتتفتح مداركها. سوف تنتمي كما والدها لشباب الامة، وبحضورها اللافت سوف تنطلق حركتهم وتتمدد. جعلت من شعار إسقاط النظام محوراً لفت حوله العشرات. بعضهم من تماسك منطقها الذي تعرضه بلكنتها المحببة، بعضهم من طيب معشرها وأناقة لفظها، اكثرهم من جسارتها وتحديها وقليل من أماني اللقاء بهذه المهرة الطويلة، ذات الاطراف المستدقة والعيون الكبيرة اللامعة الذكية.

كل الذين اقتربوا منها من الشبان، تراجعوا. فقد ورثت صلابه حمدان وتوقه لفضاء حر، وديان ممتدة ومجار مياه في داخل اجمات خضراء وحشيش اخضر، ومن ظبية حنكتها التي تربت عبر الاجيال، حكمتها البالغة وحنانها المبذول. نورس تريد حاضراً مغموساً بالماضي والذكريات، وبلا عَطَب للروحَ، حكمة وفتوة بلا أسئلة عن عبور النهر وبحراً يشرب كل الانهار ولا يمتليء.

عادت من الجامعة بعد عراك مع المواصلات لتجد الزحام حول منزلها. شرب حمدان عبد الرسول الشاي، وبرطم من قلة السُكر، جلس على كرسيه في ظل الفراندة، ومات. عملت نورس مساءاً في فصول تقوية لطلاب محصولهم من العلم ضئيل من أساسه، وتواصل في الجامعة صباحاً. تقدم خطاب كثر لزواجها، لكنها رفضت رغم رجاءات ظبية ونصائح أخاها. مع نهاية العشرية الأولى في الالفية الجديدة سوف تتخرج نورس وتبكي لأن حمدان كان دائماً يتمنى أن يحضر هذا اليوم.

نورس اسم جميل. اسمها اكثر اسم يرد في التقارير المتنوعة. حصرت كل ما تم رصده. لها صفحة في الفيسبوك وتويتر ممتلئة بأعداد مهولة من الاصدقاء والمعجبين. قبل اسابيع من الأحداث تناقلت شبكات التواصل علاقتها مع عثمان هباش. كانت صفاتها في التقارير **"منظمة، لها كاريزما مشعة وصفات قيادية واضحة"**. لم يرد في التقارير أن لها أي علاقة مع شاب، رغم جمالها وامكانياتها، وكانت تلخصها جملة تعول اسرتها بمساعدة قليلة من أخاها الاكبر.

كتبت نورس في الواتساب في رسالة لعثمان هباش **"المعاناه البتكلم عنها ..بدت بى مرض ابوى الله يرحمو ....ابوي شديد لحدى ماوصلته تانيه جامعه، ابوى مات ومن هنا حياتنا اتلخبطت فوق تحت، التركيز كلو كان على الوالد، قصدى من الناحيه الماديه، يعنى مرات بكون قاعده بى وجبه واحده طول اليوم. يعنى الموضوع كان صعب شديد ونقله من الاستقرار المادى والنفسى، لى توتر شديد على كل المستويات حتى اثر على اكاديمياتى ....لكن الحمد لله اشتغلت ووقفت جنب أخوانى لحدى ماخلصته الجامعه"**.

تبدو في الفيسبوك فتاة عادية لها اهتمامات بالاغاني، بتفاصيل الحياة اليومية، ارهاق المواصلات، شكاوي من قطع الماء والكهرباء، المعتقلين، التجمعات والوقفات. في داخلها حنين لاينتهي للبوادي الشاسعة، صور المطر والخريف. تملأ صفحتها، قطعان الأبقار والحشيش الاخضر. أحياناً تورد اشعاراً من اهازيج البقارة، لكنها تتابع كل اشعار القدال وتحضر كل امسياته، وتتحدث عنها بشغف بالغ. لم يكن هذا هو المهم، ما يلفت النظر أنها ما أن تكتب خاطرة ما حتى تتوالى مئات التعليقات والاعجاب والتشيير.

نفير نورس

ذهبت إلى بورتسودان كما نصحتني بت الباشا. فرحت بي زوجتي، احضروا الذبيحة، بخرتني واشعلت دخانها. كنت مشتاقاً لها ولكني اكثر إشتياقاً للسرير الدافيء. انظر للسقف فلا ارى سوى بت الباشا، وأحياناً رباب. زوجتي من اصهارنا وصديقة اختي. تحضر معها في نهاية الاسبوع وتقضيها معنا. عندما بلغت الثلاثين وقرروا أن علىّ أن اتزوج، وضعوها على رأس القائمة، وهكذا تزوجنا. عندما ذهبت غاضبة، شعرت اختي بالانقباض. حدثتها عن المهمة الكبيرة الملقاة على عاتقي، اهم شيء يمكن أن يحدث لي في حياتي، ردت بإستهانة: **اهم من مرتك**.

الناس اشرار وصالحين. وأنا اتحرى الأن عن اشرار. لم اعد واثقاً تماماً. وجدت نفسي فجاءة في وسط حيوات، اغوص فيها وتجذبني إلى بحار عميقة. بدأت اعرف أنني اسير في طرقات خطرة. جاءني عبق طيبها البعيد، اذوب فيها واترنح. دخلت وهي غارقة في رائحة الدخان وروائح اخرى صعبة الامساك.

ارقد في الفراش، القلب حائر، الخوف انيسي عاجزاً تماماً. كانت ساهمة وقد رقدت هناك لا تدري ماذا اصابني. تركتها عند والديها، اتفقنا أن حالتي لن تعود لسابقها إذا لم اكمل هذه المهمة الثقيلة. حاولت اقناعي أن اصبر على نفسي قليلاً، لكني صممت. قبلت على مضض: **اضرب لىّ تلفونات كتير، خليني معاك دايماً.**

خريفنا يدنو من الابواب والحياة مشعة. أتصلت بزوجتي وتحدثنا، تونسنا وضحكنا لوقت طويل حتى اغلقت التلفون لزيادة الحرارة. رغم ذلك وجد نفسه منقاداً كالنائم نحو منزل بت الباشا. رغم اصرارها أن اواصل أولا في قضية دلدوم وبيرقدار، إلا أن ترتيباتي كانت قد بدأت بنورس. سوف تحضر رباب لنلتقي في منزلها.

عندما دلفت للمنزل كانت هناك رائحة مختلفة. عبق بخور سميك في الفضاء، يخترق مسامه للعمق. أوصلتني بت الباشا للصالون لاجلس مع رباب لوحدها. لأول مرة ارى رباب. كنت قد رأيتها كثيراً في حضرة وجود مكثف ومحتوي لبت الباشا، لكني لم اراها حقيقة. مرآة لمرآتها، جالسة في حزنها العميق، اجمل من رأيته في حياتي. **أنا كنت حاضره لمن اول مره اتصلت نورس بهباش.**

كانت ليلة مطرية كاسحة من ليالي اغسطس 2013. كان الخريف متأخراً، حتى أن صلاة الاستسقاء صليت في مناطق متفرقة في البلاد. كلهم قد لزموا منازلهم، ادخلوا المراتب من الحيشان، استعدوا لتفريغها من الماء، حفر المجاري. ليلة بلا نوم. انقطعت الكهرباء، كالعادة، وقام دلدوم واوقد الجنريتر. استمرت المياه تتدفق من ينبوع السماء والبرق يضيء أرجاء المكان وأصوات رعود بعيدة. عندما توقف المطر، ساد صمت مفاجيء وعاد الجو الحار.

تجمعوا تحت الشجرة، حتى البير جاء. كنت رباب قد عرفتهم عليه واصبح من المجموعة. جلسوا

يستمتعون بمراقبة مجاري المياه، حتى استدعوهم للمساعدة في حفر مجاري داخل بعض البيوت. عادوا وهم منهكون وناموا. اتصل بهم دلدوم ليشربوا معه الشاي عندما شم رائحة اللقيمات وانتعش. عندما دخل ليخبرها أن تزيدها، وجد بت الباشا وقد ملأت خمس جرادل ولازالت تعمل عليها. سألها باستغراب: **عندنا مناسبة**.

ضحكت بت الباشا، وأخبرته أن يرسل **"للعصابه"**. أخبرته أنها سمعت في الاذاعة عن تضرر كثير من المناطق بالعاصمة بفعل السيول والامطار. فوجئوا جميعاً بكميات اللقيمات. علق هباش: **بت الباشا دي مطره والله طوفان نوح؟**. وهم يتناولون الشاي ويتخاطفون اللقيمات، سوف تبدأ بت الباشا في تجهيز اللقيمات، الفطائر والسندوتشات والعديد من ترامس الشاي وحفاظات العصير والماء. **الناس هسي بيكونوا ما لاقين ياكلوا**.

وحدها رباب من كانت قد تنقلت بين وسائل التواصل الاجتماعي، وهي تتناول قطع اللقيمات الصغيرة التي اعدتها لها بت الباشا. كلهم تابعوا نظراتها الناعسة القلقة، وهي تلف البير وتحتويه بروحها وتنظر بحب. أخبرتهم بأماكن التضرر، وانه قد افتتح مركز لتجميع التبرعات العينية والمادية في العمارات. رباب كعادتها وضعت برنامجهم من جمع بعض المساعدات العاجلة، وخطة التوزيع وكانوا قد اصبحوا خبراء في هذا المجال.

جمعوا مبلغاً من المال من ابائهم، اخوانهم. تبرع سليم بيرقدار، والد رباب، اخو هباش وعوض كوكو بمبلغ كبير. بت الباشا لم تكتف بالمال، ذهبت للسوق واحضرت معها بوكس مليء بانواع البضائع والملابس المتنوعة. علق البير: **انت يادلدوم امك دي حقوا نرشحها رئيس للسودان، عارفه تدير الامور تمام!**

استلف البير عربة جده الكبيرة، حملوها بما استطاعوا حمله مع التركيز على مايؤكل كما اوصتهم بت الباشا. عندما وصلوا كانوا أول من جاءوا. طرق موحلة مكدسة باثاثات بيوت، أشجار، عوائق والمياه تنصب من سيول جانبية سدت امامها المنافذ، ببيوت متهالكة. بين الحين والآخر تهدر موجه من مياه غزيرة، تسقط المنازل، تنهار السقوف وتتناثر المحتويات. ليس هناك من مصارف لتوزيع هذه الموجات. إتخذنا من أحد المنازل السليمة مركزاً للعمل. انزلوا المأكولات وبدأوا في التوزيع. كان هناك نقص في كل شيء في هذه المآوي، المفقرة أصلاً.

أتصلت بها نورس وجاء صوتها الحنين: **أهلاً رباب، أنا نورس من نفير. فيه واحده اسمها نفيسة بت الباشا اتصلت واتبرعت وقالت لينا انكم بديتوا شغل طوالي. ما عندكم ناس يجوا يساعدونا في المركز**. سوف لن يروها لاسبوعين كاملين. بعد ثلاث أيام استأذن منهم البير لأنها هددته بترك نفير إذا لم يحضر لها هناك. **أي عارفين رباب جنها تشتاق للناس**. اتصلت به نورس: **اهلاً عثمان هباش، أنا نورس**. كانت هذه أول مرة يسمع عن الاسم. شرحت له ماتم حتى الأن، وأن الاتصالات والتبرعات تتساقط عليهم.

سوف تتسع الحركة وتكبر وينشأ لنفس الغرض نفير كندا، البحرين، السعودية، جنوب السودان، الامارات، استراليا من متطوعين هبوا لنجدة ودعم نفير السودان. توسعت الحركة، نظمت عملها

وكونت مراكز اتصال، جمع وتوزيع في انحاء البلاد. سوف تضم سجلاتهم اكثر من اربعه الف متطوع بكل بياناتهم.

جاء هباش ودلدوم لرؤية رباب، وكان يآمل في مقابلة نورس. كان دلدوم قد قال له: **نمشي نحقنهم، بعدين والله أنا ذاتي مشتاق لي رباب**. عندما سألها عن نورس ضحكت**: شنو يا فرده، هي تسألني عنك وانت تسأل، ورونا الحاصل شنو.** كانت الإتصالات بينه وبين نورس قد تواصلت منذ ذلك النهار. يسمع صوتها فيرتعش وتصيبنه حمى وعرق وتوتر. يرسمها في خياله، يمرر ريشة احلامه في ثناياها وتطير كعصفور طليق في سماء حياته.

عند الامسية سوف ترن له او يتصل بها. يبدأ بالحديث عن اليوم وأحداثه، تتداعى في تفاصيل ما مر بها. صوتها متموج، يرتفع أحياناً قليلة وخفيض في معظمه. نورس بدأت تتخلل مسامه وتتداخل في عروق مدامعه. لها حكايات لاتنتهي تقطعها دائماً: **عليك الله احكي قصتك مع العسكري لما مسكوك في الكشة**. هذه الفتاة، تركته، عثمان هباش، المعروف بحكاويه وقصصه ونكاته التي لاتنتهي، عبداً فقيرا إلى الله، خاوياً من الحكاوي والاقاصيص. غمرته بفيضها ودوائر حديثها العذب.

عندما ينساب في الحديث تأتيه حكايات مطمورة في اركان الذاكرة، خيالات ظنها قد تلاشت وروايات مستكينه. طوال شهر كامل عرفت عنه هذه البنت الحديقة جميع اطراف حياته. وصف لها شكله، نوع شعره، شامات في أماكن مختلفة من جسمه، آثار ضربات اصيب بها في عمره. كانت تحب أن يحكي لها عن ملابسه، كيف اختار ألوانها، من أين تحصل عليها، ألوان احذيته وملايين تفاصيله. حاول مرتين أن يلتقي بها ولم ينجح، وحاولت تدبير موعد لكنه لم يجدها في المنزل.

كل مواعيد رباب طرشقت للقاء. واصلا الاحاديث الطويلة في الليالي. كلما حاول اللقاء كانت أما في مخاطبة ما في مكان ما، اجتماع مع مجموعه في اقاصي المدينه، وقفة احتجاجية وهكذا. نورس منسقة عدة مجموعات في مناطق متفرقة من الخرطوم. رفضت أن تحدثه عن نفسها كثيراً، وكان ينتزع منها تفاصيل صغيرة ترسم دنياه التي اتسعت واتسعت في زمان الوصل والرحيق الحلو.

هباش عبقري في الهبيش. في خلال شهر استنطق من يعرفونها عن قرب او بعد، حتى أن رباب قالت له ضاحكة**: هباش خلاص نشفتني وشفطت مني كل شي.** عرف شكلها، مشيتها، قدلتها في العصريات، نوع شعرها، ماذ ترتدي، حتي ادق التفاصيل. أمتلا تلفونه بصورها، صور غرفتها، محتويات دولابها المكسور من الجانب، نكشة مفاتيحها، شبشب البيت، قعدة شاي العصر. عندما رأيا، ثلاثتهم، الصور، اندهش البير، والذي كان حديث عهد بهم وبقدراته على الهبيش.

اتصلت بهم وأخبرتهم باعتقال بعض الشباب، كانوا يقدمون المساعدات في حي مرابيع الشريف بشرق النيل، تم منعهم من التصوير وصودرت الكاميرات، تعرضوا للضرب والاهانة واحتجزوا لفترة في مبني جهاز الامن بالعيلفون. حذر المؤتمر الوطني من إستغلال ازمة السيول والامطاروالاصطياد في المياه العكرة. قال امين أمانة العمل الطوعي **"معظم قيادات مجموعة نفير**

تتبع للمؤتمر الوطني".

بعد اسبوع من العمل منذ الصباح في توزيع المساعدات، كانوا قد استعادوا البير معهم، بعد أن هددوا رباب بايقاف العمل لعدم صلاحية سياراتهم. نظرت لهم بغيظ وساومتهم على خمسين في المائة من الوقت وتحمل تكاليف العشاء في المطعم يومياً. سوف تخبرهم بت الباشا انها تعتقد أن يتوقفوا لأن الموضوع تحول نزاعاً سياسياً. كعادة السودان، الذي لايرد في الانباء سوى عند الكوارث والمحن، خصصت المحطات التلفزيونية جانباً من تغطيتها. سوف يطلق القدال رباعيته

البحر اللغف قيفو وسما الانقدا

شوف صبيان نفير في الكرياب وامبدة

شمارة عريس في الخور وبيتوا انهدا

ما ناموا الضحى فوق قرقراب ومخدة

سوف يقود الارتباك، الخوف والتخبط أن تبدأ الأجهزة، بعد الاسابيع الأولى في تخطيط الضربات الاستباقية. كانت المجموعات التي عملت في أنشطة نفير، من سجلوا انفسهم كمتطوعين، التفاعل الشعبي معها، الحشد الاعلامي المكثف والمتنوع من كافة انحاء العالم يضيق بحلقاته على النظام. سوف يبدأون في حملة اعتقالات كبرى. كان دلدوم أحد ضحاياها. كان خريفنا يدنوا على الابواب ويقتربون من سبتمبر 2013.

عثمان هباش

يحضرون للمطعم الذي يعمل به. يذهبون فوراً من الكاشير إلى الفطائر. يعمل في قسم السندوتشات، لكن يسترق النظر للعامل المصري وهو يدق العجينة، يديرها، يحوطها ويفردها. سوف يضع عليها أما الاشياء الحامضة، أو الحلوة وتخرج من الفرن منتفخة، برائحتها الشهية ولونها اللامع. بعد ذهاب الفطاطري واغلاق المطعم، سوف يهبش العجينة، ويتدرب على فتح الفطيرة. عندما غاب لمدة خمس أيام مريضاً بالملاريا، بدأ في عمل الفطاير. عندما جاء المصري صار مساعده.

عندما جاءوا في تلك الليلة، جاءت معهم. رأي هباش مئات الفتيات في حياته، في كوستي وحفلات العاصمة. رأها في أحدى الحفلات، والفنان يوجه اغنياته لها. اعتبرها اجمل فتاة في العاصمة كلها. كانت تحمل الماركة وقالت بصوت خفيض وهاديء، وعيونها الناعسة القلقة تبحث في الاصناف. طلبت فطيرة حامضة كبيرة، وواحده حلوه اصغر وطلبت فطيرة اصغر لو ممكن بها كاسترد وفول. سالها وهو يضحك: **دي بتاعتك والله شنو؟**. ضحكت والانوار في المطعم، الفرن ويداه اللتان بدأتا بالاصغر ضحكوا.

سوف يتعرف عليهم، اصدقاء خمس وهي سادستهم. من الاحاديث التي يتبادلها معهم وهم في انتظار الفطائر عرف أنهم يسكنون في الحي المجاور، ويتجمعون كل ليلة عند شجرة بت الباشا. يعمل اسبوع حتى الخامسة، والآخر من الخامسة حتى منتصف الليل. سوف يصير، عثمان هباش سابعهم.

سوف يحتل مكانه معهم طوال اسبوع عمله الصباحي، ويمرون عليه في المطعم مرتين في الاسبوع عند عمله الليلي. عندما علمت بت الباشا أنه فاتح فطائر شاطر، بدات تجهز العجينه، ويدخلان المطبخ لعملها. كانت بت الباشا **"معلمة"** في اصناف الطعام وعلمتنه الكثير. كانت قد قالت منذ اليوم الأول وهم يفتحون الفطاير: **اعمل واحدة صغيرة كاسترد وفول لرباب، الاولاد اكالين وبيظلموها.**

ربطته علاقة صداقة عميقة مع رباب. تحب قفشاته، تنشرها على الفيسبوك وترسلها بالمسجات. لم تكن علاقة وسط العلاقة العامة، لكنها تمر عليه لوحدها في المطعم وتجلس لتبادل الاخبار. لرباب علاقة خاصة مع كل افراد الشلة. رباب لكل منهم الاخت التي يخافون عليها، يحب **"ونستها"**، ويشتاق اليها.

اغلبهم مهووسون بكرة القدم، يشاهدون آلافلام في حوش بت الباشا، ولدي دلدوم **"ابو التكنلوجيا"** كما أسموه، كل انواع الأجهزة التي تشتريها له بت الباشا، ومن دكان والده. كنا يشاهدنها بجهاز العرض على الحائط. كانوا يذهبون للندوات، حفلات الاعراس وغيرها.

زبائن في المحل. جلسوا في ترابيزة في الخارج. طلبوا سندوتشات ويتحدثون بصوت عال. رأي معهم ورقة برتقالية يقرأون فيها. عندما قرروا المغادرة جاء أحدهم وأعطاه الورقة وقال بصوت

خفيض: ده بيان من قرفنا.اخذها ودسها في جيبه. كانت البيانات والأوراق كثيرة تلك الأيام.

قرأ عثمان هباش البيان البرتقالي في اثناء جلسته للراحة. هناك شعار غير واضح بعلامة النصر، ثم حملة قرفنا لاسقاط المؤتمر الوطني. اتصل بدلدوم وطلب منه المجيء. جاءه دلدوم وأعطاه البيان واخبره أنه تأثر به جداً. اتصل به دلدوم عند العاشرة وقال له أن يحضر لهم بعد العمل ليخلصه من رباب.

استأذن من العمل عند العاشرة. عندما وصل شجرة بت الباشا، كانا يجلسان ونقاش محتدم بينهما. وجهت له رباب عشرة اسئلة في وقت واحد. **والله كلاشنكوف ما يعمل كده**. ضحكا وهدأت. وصف لهما كل ما يعرف. توافدت الشلة وبدأوا في التفكير فوراً في ماذا يعملون؟. اثناء حديثهم يقولون قرفنا هباش، رباب هي من استعملت الكلمة لأول مرة.

بعد يومين من البيان، احضرت رباب صورة لصحيفة الشرق الاوسط وعنوانها العريض: حركه جديده تطالب بإنهاء حكم البشير، تحرض المواطنين على عدم التصويت للبشير وحزبه **"حزب المؤتمر الوطني"**، في الانتخابات المزمع إجراؤها في نيسان (أبريل) المقبل. وعقّب أحد أعضاء حزب المؤتمر الوطني على **"قرفنا"**، بالقول: **"إن هذه المجموعة تنتمي إلى الحزب الشيوعي، ومعهم حشد من اليساريين"**، أما مفوضية الانتخابات، فكان ردّ فعلها **"أن هذه الأعمال تعد في هذه المرحلة من الانتخابات أعمال تخريبية"**. وقالت إن الأجهزة الأمنية الخاصة بتأمين الانتخابات عليها مسؤولية وقف مثل هذه الأعمال، إلى أن تبدأ الحملة الانتخابية الرسمية.

عندما رن جرس هاتفه، ارتجف وفرح. جاءه صوتها الدافيء الندي. أخبرته نورس أن ظبية تريد أن تتحدث معه. نورس كانت تريد حباً مثل حب حمدان لظبية، طول عمرها حلمت بشاب طويل ونحيف، مورق القلب ومشتعل الفؤاد مثل والدها. حمدان يحب ظبية في كوب شايها، في غسلها للثياب وطيها بعناية، في قهوة العصرية، عندما ترتب سريره في المغارب وعندما **"يحنسها"** لتتذكر شعرها فيه. كل حب حمدان للبوادي، السهول، الوديان الجارية والسماء المفتوحة أعطاهم لها ولهم.

هباش قاد نقاشها عبر خبرات اكتسبها في حياته وعمله، ليخبرها أنه واخوه الاكبر ذهبا في عطلة نهاية الاسبوع لكوستي وناقشا مستقبله. هباش يريد أن يستقل بمطعمه وحياته. والده أحس فسأله مباشرة إذا كان ناوياً على الزواج. سوف يزوغ من السؤال بنكتة اضحكتهما طوال اليوم، وفهما الرسالة. سوف يسكن في الطابق الاعلى في منزل أخاه حتى يدبر اموره بعد زمن طويل. ظبية التي كان يملك صورها في موبايله، ام روحه وهي الخالق الناطق منها.

تأسفت ظبية لأنها لن تراه قبل سفرها باكر: **لكن والله ياولدي دعاي معاك الله يوفقك في كل خطوه.** سوف ينتزع منها هباش بضع بيوت من الشعر قالتها في عشق حمدان حين كانت تقرأ في الأبيض ويتحفها بشعر حلمنتيشي اسعدها واضحكها. طالت مكالمتها معه، قالت له نورس بعدها: **ات سويت شنو للمرية دي، اليوم كله تشكر فيك، ما بعيد تكون قطعت فيك شعر.**

إتصلت به نورس، وقد سافرت مع أهلها الى مجاهل كردفان قبل أن يراها. أراها كيف تبحث

عن الشبكة في اي مكان. جاء صوتها طازجاً ومفعماً بندى الصبح. الساعة حوالي الرابعة صباحاً وهو **"مساهر"** في انتظار أن تسمح لها الموجات والشبكات أن يصله صوتها. صوتها عبير الفجر عقب ليلة دافئة وموجات صغيرات تتجمع حول اعشاب خضراء على النيل في ربى كوستي. قالت له أنها تنظر لذبالة قمر ناحل مال نحو الغرب. خرج للشارع ليرى قمرها الذي يكحل بضوئه الذابل وجهها الذي يراه آلاف المرات في صورها المخبؤة في اعماق صدره، في موبايله، في جزلانه والتي نحتوها له في خاتمه من الداخل. نورس تقتعد الفؤاد وتسكن الجوارح وتطل عليه من كل نوافذ عمره.

لم تدم المحادثة سوى دقائق قالت له أنهم في قوز النيران في مكان ما في البادية الشمالية. الارض مكسوة بابسطة من الخضرة والمياه المندفعة لكل مكان: **قالولي أنا وش خير، المطره جات على رجليك. أنا يا هباش قلت في نفسي اكيد هباش عنده دخل فرحني وخدر أيامي.**

عثمان هباش الذي لايغلبه حديث او رد تدهشه هذه البنيه الفنجرية. فلا يجد كلمات. سوف تقول عنها رباب بعد أن رأته وهو يتلعثم في التليفون وهو يتحدث معها: **عثمان هباش فالق راسنا بالكلام وملعلع لكن مع نورس، كأن الكديسة بالعه لسانك عدددديل.** نورس حكايات ناقصة في العمر الذي أنقضي ونشيد سحري للعمر الذي ياتي.

لاكثر من شهر كامل ينتظر هباش أن تسمح لهما موجات متطايرة أن يسمع صوتها. عندما قالت أنها عائدة. الشوارع الكئيبة، الزقاقات المظلمة، المطعم المزدحم، مشوار البوش وفطائر بت الباشا احتفلت وضحكت. لاحظت بت الباشا قفزاته، نظراته الباسمة ودورانه حول نفسه فقالت ضاحكه. **هباش البت دي مكهرباك عديل. لمن تيجي باجيبها البيت ونرتب معاها الامور، بعداك نمشي كوستي نشوف الامور مع عجوزك هباش.** كل هذه حدثت قبل أيام قليلة من سبتمبر 2013 حيث يبدا وعده وتزهر حياته.

المتحري

مضت اربعة اشهر منذ بدء تحقيقاتي. منهكاً تماماً بعد الجوسان في حيواتهم. أمضيت اسابيعي انتقل من طوفان من الحنان، المودة والايثار. هو يعيش ولايحيا. بيوت يطوف عليها الحب وراءً، أو أماماً ، أو جنوباً أو شمالاً. انتقل من غمرات الحميميه إلى عجزي. بت الباشا تدفعني لداريا وكلتاهما لرباب. طلبت من زوجتي أن تحضر. جاءت وأنا أحس بخلو منزلي من ذلك الدفق الباهر من الحب. واستقبلتها مصمماً أن تستوعبني في حماها، تبعدني من هذه الهوة الساحقة التي انزلق فيها.

عندما عدت للمنزل وجدته لامعاً، نظيفاً وتفوح منه روائح البخور والعطور. مائدة ممتدة فيها كل ما احبه، ما لذ وطاب. رائحة الدخان فاقعة تتخلل كل مسام الهواء وتستفزني بكل كياني. القهوة تتصاعد نكهتها الطازجة. رباب لاتضع العطور: **كده الناس ما مريحاني، لو عملت ريحة حازيد الطين بله**. عندما اقترب من منزل بت الباشا وقبل أن ادخل تفوح روائح لاتضعها.

لابحر ولا بر ليّ، لا قمر اجذبه بين يداي، المنزل معبأ بكا انواع العطور والروائح لا اشمها. انتقل من فراغ ألى لاشيء، تجذبني هوات عميقة. لاشيء يملأني، لاشيء يمسكني، يحضنني او يمد يديه. قلبي جائع والروح مشتاقة. وانا خائف. امد يدي فلا أجد حائطاً، اقدم خطواتي ولا ارض وانظر فوقي فلا أجد سقفاً.

افقت بعد ثلاث أيام وقد اصابني صداع جنوني. أصابتني حمى راجفة، ملاريا، لا، تايفود يمكن وافقت. كانت زوجتي تنتحب بصمت ووالدي يحرك في مسبحته. أنا مشتاق وعندي لوعة. تعاودني الكوابيس والهلاوس، ارى ناراً تنطلق من حولي، اقاوم في صدها فتخترق جمجمتي بلا هوادة. دمدمة، زوابع، طعنات ودماء. تناوشتني.

تعاودني الكوابيس، أعجز عن النوم ولاجد مآوى آمن سوى أن الوذ ببت الباشا. كانت بت الباشا خير انيس لي، أحدثها عن حياتي فتسمعني جيداً، تطمئنني وتعاود ترديد أنه ليس المجرم. تم الانفصال بيني وبين زوجتي ورغم تدخل الاجاويد من كل ناحية، لم اعد قادراً على الاستمرار.

دخلت منزلها، تفرس فيه الوالد بامعان. رحب به، جاملني ببعض الكلمات ثم تركني مع رباب. في الشهرين الاخيرين، التقى رباب اسبوعياً على الاقل عند بت الباشا. مشاعره متناقضة ومرتبكة لا أدري أبحراَ أخوض ام لشواطيء ألوذ. كانت صورتها قد اصبحت محط خيالي طوال الليالي الارقة. بعيونها الناعسة القلقة، وحسنها الباهر والضجيج الذي يلفها، أحسد البير على حبه لها وأتمنى لو اعطتني ربع مشاعرها.

عندما دخلت منزلها، قلبي يزمجر، احشائي تنقبض، يداي تلتف على بعضيهما وتخونني الارجل. كلما تعلمته في حياتي العملية اصبح هباءاً منثوراً، كأنما حياة سابقة لم أعشها من قبل. نظرت لي بإلفة شديدة، كأنها أحست بما يعتمل في دواخلي. رباب معروفة. عرفت كفتاة جميلة، يغني لها الفنانون في الحفلات، عندما تدخل الجامعة تتابعها العيون ويتمنون لو أنها نظرت لهم، مجرد

نظرة.

يجيء ذكرها في الملفات السرية بأنها **"ناشطة جداً"**. صفحتها في الفيسبوك يتابعها اكثر من عشرين الف، وكذلك التويتر. ينتظر اصدقائها أي تعليق منها، فتشير وتتناقل. لم تكن صفحتها جادة دائماً، أحياناً يطلقون عليها **"جكسوية البير"**، فلا تعلق عليها لكنها تضع زهوراً حمراء من نوع واحد. كنت من المتابعين لصفحتها في الفيسبوك وحسابها في التويتر. شهور طويلة ظلت خاملة، لا تفعل شيئاً سوى أن تشير بعض البوستات. مع بدء التحقيقات عاودت نشاطها بنقل اخبار التحقيق بتحفظ، وتبلغني بما سوف تكتبه وإذا لا يضر بي او التحقيق، وكنت ممتناً لذلك. عادت لصفحتها الحيوية وزاد من يتابعونها. متابعوها ومن يعلقون شديدي الحساسية في ما يتعلق بأي شان يتعلق بما حدث.

قاومت هذه المشاعر لشهور الان، كلفتني هذه المهمة انقلاباً مروعاً في حياتي، إنفصالاً من زوجتي، كوابيس في ليالي طوال وارق وسهاد. استرخت في مقعدها، ونشرت ثوبها واحتوتني وأنا طفل غرير في حضرتها. جاء صوتها عذباً ومنعشاً: **يا جنابو إنت وأنا ضحايا، المجرم أنت حتكشفه لينا وناخد حقنا كلنا منه**. هل حقيقة أنا ضحية. هذا هو السؤال الذي يعذبني ويمنع عني النوم.

غير رغبتي الدفينة بالجلوس معها، لاشربها غفلة من ظمأ أيامي، ارتوي من تكسّر المقلتين واتشهّي الطفوله فيها. محور اللقاء هو خالد صلاح، وهو الاسم الاخير بين أسماء القتلى. كلهم يرتبطون ببعضهم بشكل ما، إلا خالد. اخبرتني بت الباشا، أن كلهم دلدوم ونورس يعرفونه جيداً، ورباب وحدها الأن التي تستطيع أن تدلني عليه. لم تكن راغبة في الحديث عن القتلىء، فقد اتعبها حديثنا المتواصل لشهور، ارهقها ويمنعها من التركيز والنوم.

شيء في عيونها الناعسة القلقة اشتهيه، سعدت بخروجها من آسر النقاش الرسمي، احاديث من ماتوا ومن قتلوا ومن قتلهم. منذ أن اتفقنا على المواعيد، ملأت نفسي إصراراً على أن لا اخوض في التغييرات التي حدثت لي، لكنها رباب بدأت الحديث.

رباب

استلقيت على سريري في غرفتي لمدة شهر كامل، عاجزة عن استيعاب ما جرى حقاً. كأنني في حلم طويل. مشاعري خاوية، كابية، لا افعل شيئاً سواء الدموع التي تتساقط من مآقيي كما المطر الصيفي. اجل والدي عامي الدراسي، رغم اعتراض السرة، التي اعتقدت أنه آلافضل أن انشغل بالدراسة ومقابلة صديقاتي واصدقائي. رغم كثرتهم فقد مضى البير، منية النفس وشهقة الفؤاد، دلدوم، نورس وهباش. مضوا بعيداً ولايعودون.

توافد الشباب على ولكنهم لم يكونوا يجلسون سوى دقائق ويذهبون. بعد ثلاث اشهر نصحي والدي أن أذهب للقاهرة لمدة شهر. عندما وصلت القاهرة، مع السرة، وحاولت التجول في عمرانها الوسيع، وجدت البير امامي في كل مكان. كان لأهل البير شقة في شارع طلعت حرب اشتراها جده. برغم عدم زيارتي لمصر مطلقا في حياتي، زرتها مع البير في صوره عن المدينة، حكاويه عن معالمها، مطاعمها، مولاتها، شوارعها، رحلاتها النيلية. اصررت بعد اسبوع أن نعود.

بعد تسعة اشهر تحدث معي والدي. يظن أن الجرح قاس ومؤلم، لكنني شابة وسوف يفعل الزمن بسحره وطرقه الملتوية ترياقاً من النسيان والتلاشي، لتبقى الذكرى عالقة، جرحاً بلا إيلام، بل ذكرى دافئة. يظن والدي أن اصعب ما امر به هو شعوري بالخيانة لذكرى احبائي، وتمسكي بتفاصيل حياتي معهم لاقاوم أن يذوبوا في النسيان مثل غيمة في الريح. عندما تحدث والدي عن البير، اجهش بالبكاء الحار. سوف تخرجني دموعه التي رأيتها لأول مرة في حياتي، من شرنقة الذكريات التي حاصرتني، فلا املك سوى امس يفر مني، وغد لن يأتي.

بدأت اذهب مع والدي إلى عمله، يكلفني ببعض الاعباء فاقوم بها وأنا سعيدة، لانني استعيد حياتي وارجع روحي. في الامسيات اذهب الى بت الباشا او تحضر هي، بحر دافق ترحل إلى او ارحل. ساكنتني وساكنتها. قالت لي السرة، ذات مرة في وجودها: **غايتو بت الباشا طبيبتك النفسيه، امسكي فيها قوي. بت الباشا أنا معتمده عليكي تبدأ تنتبه لنفسها**.

نظرت لي وكنت مصغياً بكل جوارحي، احاول أن الملم اطراف نفسي، احاول أن اجد لىّ منفذاً في الدروب التي تقودني إليها، مجاهداً أن افهم ما وراء سطورها. جالسة على بعد امتار قليلة مني، زنبقة ووردة، تُشْرِقُ الشمسُ من ذاتها وتَغْرُبُ الشمسُ في ذاتها. البحار تضيق على جانبي حياتي، ورباب تفتعد الربيع والشوق منفي في عيناها الناعسة القلقة.

عبك رقية

عندما رأها جالسة، لون القهوة دالقة من عيناها، فكر في اكثر من أعنية سمعها، تدفقت الكلمات والمعاني ضاجة، صهلت الخيول، عربد الجو وتزاحمت داخله اقواس قزح سوف ينسج القصيدة فيها. امامه الاحلام، سماء مفتوحة تراقصت غيوم ونجوم وشمس ساطعة. جاءه صوتها وسط أصوات مجموعة الفتيات والنساء، ترانيم مختلفة.

كان القطار يدب في طريقه ملتوياً كثعبان طويل، يطوي المحطات، وهو لايفكر سوى في استراق النظر لرقية. كان عم العريس، سعيد، الذي اسميناه الناظر، حائلاً. فقد اجلس الفتيات في عدة كراسي وجعل الشباب بعيدين منهم. من واد مدني سوف يسود اللون الاخضر آلافق، ويغزر ويتكاثف ونحن نشق ارض مشروع الجزيرة. توقفنا في محطة سنار التقاطع، وسوف يناور قطارنا ليتجه للغرب في رحلة شاقة.

كان عم سعيد قد ذهب لاخذ قيلولته، اشرت لها بعيوني وكان قلبي يسبقني لنقف في فسحة الباب. وقفنا وقد اعيتني الاشواق، اخذتنا الاحاديث من الناظر، للمناظر المتسارعة، يدفعنا اهتزاز القطار نحو بعضينا، لمسة ذراع بالذراع، اختلاط الانفاس وقوع العين على العين واتكاءة سريعة على الاكتاف.

سوف تمتد وقفتنا حتى وصلنا كوستي، كانوا ينسجون لاحلام اكتوبر التي جاء الانقلاب على الدبابة الثقيلة ووعد بتحقيقها. كانت تلك أيام ما بعد ضربة الجزيرة آبا ومقتل الامام الهادي. توقف القطار طويلاً في كوستي. سوف تبدأ الفتيات في الغناء غير عابئات.

يا حمامه طيري طيري ركي في سريري
زعيمي المفضل جعفر النميري

نظر لنا بعض من كانوا في الرصيف بغضب، فقد كانت الدماء مازالت لم تجف بعد.

من كوستي سوف يدخلون فيافي الغرب، تختلف الطبيعة، تتنوع الأشجار من شجرة التبلدي، وهي من أضخم الأشجار وأطولها في العالم، أشجار السدر، السنط، الطلح، الهشاب والهجليج. تتشابك الشجيرات وتتداخل مع ارض سوداء، تلال رملية وجبال جرانيتية سوداء. من تندلتي وام روابة كنا نسير في الليل، ونجلس على جانب ازيار القطار، الضوء خافت، الظلال فرحة متراقصة والقلب سعيد.

عندما دخل القطار المتلوي محطة الأبيض في الصباح الباكر، النسمات منعشة في بداية الشتاء. المدينه نظيفة شوارعها، كبيرة البيوت وشوارعها هادئة. عربات التاكسي، الجميس واللاندروفر تتدافع على الطريق. كانت المدينة تصحو، القهاوي ممتلئة بشاربي الشاي باللقيمات.

عندما انتظم الحفل، في ساحة كبيرة امام منزل العروس، جاء رجال كبار، شباب واطفال، فتيات في فساتين مزركشة، شابات في فساتين سهرة لامعة، يعقصن شعورهن حسب موضات تلك

الأيام، نساء كبار وصغار، في ثياب متلألة، حبوبات كبار وبنات صغار. لم يكن الجمع مفرقاً لنساء ورجال، كانت هناك تداخلات. جلسوا على مائدة بقرب من جاءوا معهم من العاصمة. كانت رقية زاهية، القهوة تتدفق من عيناها. عيونها تضحك وشعرها يتساقط على جانبي وجهها. عندما قامت للرقص وقدميها فرحة، كان في لحظات قد توجه اليها، رمت بشعرها عليه وهي تعطيه الشبال. تناثر عليه طيب رائحتها، وتركته حيث لمستني بشعرها. عندما عادا من الأبيض كانت روحيهم قد تصاحفتا وذابوا في اللحن السحري.

جاءت رقية، بعد اكثر من عشرة اعوامً. كانت دعوة وهمية بعيد ميلاد حاجه حرم الستين. جاءت ومعها رفلت افراح السنين الضائعة. اعتقل صلاح في اوائل السبعينات، عندما خرج بعد سنوات، وسأل عنها اخبروه أنها قد ذهبت للدراسة في الخارج. عندما عادت، كان صلاح قد اسقطها من حساباته. رأها ذات صباح وهي تستقل البص من امام منزلها، اشتعل الفؤاد، داهمته وصرعته.

هاهي بعد وقت طويل، مر عليه كهنيهة تتساقط على زمنه الهامد وأيامه الموحشة. التقيا بعد ذاك في حدائق مايو فيما كان يسمى "السبعة ونصف" وهي تسمية اطلقت لوصف لقاء الحبيبيات في السبعينات. بدات مشاعرهما بالتفتح والانطلاق. يوف يطوفان حول الحدائق، يدان تذوبان في بعضيهما، يسرقان من رحيق الزمن وكالح الأيام. لكنهم جاءوا ذات ليل واخذوه لكوبر ومنها لشالا في بداية الثمانينات.

بعد شهور من الترتيبات، تم ايجاد طريقة لتبادل الرسائل بين المعتقلين واسرهم. في عصر بارد في الفاشر جاءته رسالة منها. كانت داخل رسالة الحاجة حرم وآمال. عرف بوجودها من رائحة عطرها الذي صارع في البقاء عبر الايدي التي تناولته. قرأ خطاب والدته بسرعة، وارتعشت يداه وهو يفتح طيات الخطاب. لشهور حلم بها، داعبها، ناجاها، كتب لها الرسائل الذهنية في الليالي الشتوية. حكى عنها لاصدقائه، قراءوا لها اشعاراً، وصفها ووصفوها واحبوها معه حميعاً.

إذا كانت المعتقلات مثلت مدرسة فكرية، اجتماعية ونفسية للاحزاب السياسية، فقد مثلت الخطابات إذا توفرت، شرياناً ضخماً ومسارب عميقة في تمتين العلاقات الاجتماعية والعاطفية. سوف تمثل الخطابات التي استمرت بشكل متقطع لسنوات معبراً لرسم علاقة عميقة، مفعمة بالاحاسيس ومليئة بالعواطف. تعرف صلاح على رقية من خطاباتها وتعرفت عليه. في الذكرى الثانية من الانتفاضة، والاجواء انتخابية والكل منشغل بها، تزوجا. بعد عام انجبا طفلهما الأول والذي اسمياه خالد على صديق عمره خالد الكد.

مع الانقاذ فصلا من العمل. عادا للسكن في منزل الحاجة حرم. عندما خرج من المعتقل، بعد أن ارتاحا من وعثاء طرقهم، لم تجد تدخلات الاصدقاء، اخته وحتى الحاجة حرم لم تستطع انقاذ زواجهما. اخرجت رقية نفسها من حياته. ارهقتها سنوات الانتظار والخوف الطويلة. انشأت رقية مشغلاً ونجح، ودرت عليها اموالاً كانت تسندهما به. رقية اشتياق ولوعة، موجه سرقت من يده، يحملها فراغه وانكساره. كانت طير البرق.

حدثت أحداث كبرى في البلاد. بعد كل تضحياتهم في المعتقلات زمن نميري، وبعد أن استعادوا الديمقراطية التي حلموا بها جميعاً، وجدوا انفسهم في نفس سجن شالا. خيم عليهم ليل الإنقاذ البهيم.

أخذت حمائم روحي في الليل
الى منبع هذا الكون
وكان الخوف يفيض
وكنت علي حزين
وغسلت فضاءك في روح أتعبها الطين

نشأ خالد صلاح في حضن الحاجة حرم ورقية. كل منهما تفيض عليه من حنين دافق. شهد منزل الحاجة حرم تغييرات كبرى عبر السنوات. غاب الاصدقاء في المهاجر البعيدة، وتساقطوا كالرمال من الذاكرة. أخرون دفعتهم الفاقة والمسغبة للسكن في الاطراف البعيدة، واصبح الانتقال مشكلة مالية باهظة. لكن الفعل المدمر كان في فرض حظر التجول منذ السادسة، بعدها للحادية عشر لعقود. بعد فصل الآلاف، اعتقالهم، تعذيبهم لكسر إرادتهم، محاصرتهم في رزقهم، مراقبتهم بواسطة اللجان الشعبية، حظر التجول أخطرها واعظمها اثراً. توقفت الزيارات التي تمتد في الليالي، الذهاب للحدائق والشرب واكل الكوارع، جلسات السمر في بحر ابو روف وتناول الفول في الهجرة. كل هذه الانشطة التي بداياتها من منزل الحاجة حرم.

هذا الوضع، تدهور حالهم المادي والتغير الذي طرأ على حي البوسطة، الذي باع اغلب سكانها بيوتهم وتحولت لدكاكين، مخازن وعمارات تكتم النفس، دفعت الحاجة حرم بالموافقة على بيع المنزل والانتقال. وفي آخر التسعينات رحلت الحاجة حرم من منزلها وتركت قلبها مدفوناً في طين المنزل وسوف يتحول نومها الوردي لارق سوف يصيبها طويلاً.

نصف حياته الأول قضاها خالد في حي البوسطة، وسوف يتوزع اصدقائه في أحياء مختلفة على مر السنوات. سوف تمضي رقية معظم وقتها معه، فقد رفضت الزواج رغم أن صلاح رشح لها عدة عرسان محتملين, قالت له ضاحكة: **لو عايزه اعرس اصحابك ما ارجع ليك**. لن يتردد والده ويقول لها: **ياريت..ياريت**. ورأى عدة مرات أنها كانت تنظر له بحب.

سألها عن الطلاق وكان قد بلغ الرابعة عشر، فأخبرته بعدم الاتفاق ولكنها اردفت أنها سوف تخبره بالتفاصيل عندما يكبر. سألها بعد عقد من الزمان، وهو على وشك التخرج من الجامعة. أخبرته باسباب لم تقنعه، حتى عدم زواجها لم تقنعه. يعتقد منذ زمن طويل أن والده قد اثر في والدته، وجعلها رومانسية مثله. كان والده قد تزوج، بعد ضغوط من حبوبته ووالدته.

طوال حياته حمل خالد الإنقاذ تعاسة حياته وتمزقها. فصلت والديه من العمل، شردتهم ودمرت حياتهم الاسرية. حتى رحيلهم من البوسطة، ورغم أن حياتهم تحسنت بعدها، ارجعها للتمكين والسيطرة على مصائر البشر، وارزاقهم. سوف يشارك في كل الجهود المناوئة للنظام، في اتحادات الطلاب، اتحاد الشباب السوداني، الجبهة الديمقراطية. بل كاد ينتمي للحزب الشيوعي لولا الضغوط الشديدة من الحاجة حرم ورقية.

عندما اتصل به اصدقائه واخبروه بمظاهرة امدرمان في ذلك العصر، اعاد الاتصالات، ارسل الرسائل ومر على بعضهم في منازلهم. عندما انضموا ومجموعته المكونه من اكثر من خمسين شاباً، علم أنه ذاهب للحرب.

عبك ود مليط

اتصلت بالصفية في انجمينا. جاء صوتها بارداً وحاداً وقاطعاً. **جنا محمد أزرق والصفية بت حسب الله ما بنكوس له حكومة، تارنا بناخده بى ايدنا**. لم يكن محمد أزرق والصفية وحسب الله مجرد أسماء في ملف. لكل منهم تأريخ طويل مرصود. محمد أزرق في السجلات منذ منتصف االسبعينات، يتردد اسمه في حروب تشاد وليبيا. اعتقل أزرق عدة مرات في حياته. في الجنينة، ابشي، ليبيا وفي مليط.

في منتصف الثمانينات فاز في الانتخابات ودخل عضواً في البرلمان عن حزب الامة. تردد اسمه كثيراً في تلك الأيام التي شهدت صراعات مستمرة بين أهله من جهة وأهل زوجته من جهة أخرى. لعب محمد أزرق ونسيبه حسب الله دوراً كبيراً في تقريب الفرقاء وتجميع الجيران.

الخبر الذي هز دارفور من أقصاها لأقصاها قبول الصفية بت حسب الله، اغنى شيوخ شمال دارفور قاطبة الزواج من ازرق. الصفية، غير أنها بت حسب الله، وعرفت بالجراءة وقوة الشكيمة، لها تجارة كبيرة ممتدة من مليط، الفاشر، النهود، الأبيض، سوق سعد قشرة بالخرطوم بحري. ويمتد نشاطها لجنوب دارفور، انجمينا وافريقيا الوسطى.

بعد الانقلاب تم تقييد إنتقاله، ضمن سياسيي ذلك العهد، في مليط لسنوات عدة. توسعت تجارته وتنوعت وجزء كبير منها في تشاد وتمدد حتى باريس. حتى ما بعد انفصال الجنوب سوف يكون مشغولاً باعماله التجارية. انتقل بعدها لتشاد وإستقر في أنجمينا. رغم تأكيد السلطات التشادية، والتي يرتبط بأطراف كثيرة منها بمصالح متعددة، فسوف تحوم حوله الشبهات بتمويل الحركات المسلحة الدارفورية.

أزرق بثروته الطائلة، وثروة نسيبه وقوتهما معاً، مثلا دائماً حالة دارفورية معقدة لسلطة تريد تفكيك الجسور بين الاطراف المختلفة، خاصة العرب والزرقة. وضع تحت المراقبة الدائمة سواء ميدانياً، اوعبر اتصالاته المتعددة. راقبت الأجهزة تليفوناته وتحركاته وسفرياته ولقاءاته وأفضلها جميعاً محادثات الصفية مع ابنها الموجود في الخرطوم.

حسب الله محمد أزرق موضوع لمراقبة دقيقة متواصلة. ورغم أنه وصل الخرطوم وهو لايزال في التاسعة عشر للجامعة، فهو حذر بشكل كبير. تمت مراقبة منزله بشكل دائم، اتصالاته، بل وتمت محاولة زرع أجهزة في غرفته اكتشفها محمد أزرق وتركها بعد تنبيهه. اخفقت كل محاولات زرع عملاء في طريقه، حتى محادثاته مع والدته كانت كلها ملغزة ولايتم فيها تبادل سوى الاحاديث العادية. يسافر حسب الله عدة مرات في العام لبلاد مختلفة يلتقي فيها باسرته.

عمل مع تجمعات شباب حزب الامة، وقد لفت أنظار الجميع بهدوئه الجم وتهذيبه الشديد، لكن

أكثر من ذلك بسعة اطلاعاته، فكره الناضج وتفكيره الموضوعي المترابط. حاول كثير من إنشقاقات حزب الامة استمالته، لكنه ظل يردد: **ظالمنا واحد، نداوسه سوا وما نشتت كومنا**. ربطته علاقة صداقة عميقة مع نورس وشكلا معاً العقل والوجدان، الفكر والميدان. بتكوينه المختلط قبل في كل مجتمعات دارفور ونال رضا الجميع. تنبأ الجميع، بمن فيهم نورس أنه سوف يكون له شأن في تأريخهم القادم. سمته الأساسية كانت رفضه الدائم لترشيحه لأي رئاسة، وعنها قال: **أنا داير اكون زي ولد الخواجه صاحب المصنع، ابوه خلاه يشتغل من بواب لحد ما وصل لرئاسة الشركة**. لكن كل من اقترب منه ظن أنه يلعب أدواراً تحتم عليه أن يكون خفياً تحت الرادارات.

تم إعتقاله بعد أحداث يونيو- يوليو 2012، والتي شارك فيها بحذر، والغرض التحقيق معه لانتزاع معلومات اكثر. عندما احضروه في أحدى منازل الأجهزة، وقد أحاط به خمس من العناصر مفتولة العضلات والشرسيين، أخطأ أحدهم ورفع عليه الخرطوش. ما حدث بعد ذلك سوف يحدد علاقة الأجهزة به. نفض عنه الاربعه، انتزع الخرطوش من يده، قربه اليه ثم دفعه وترنح الشخص وسقط على بعد ستة اقدام. سوف يمزق حسب الله كل ازرار قميصه وينتزعه ويستعد لهم. رأى أحد الضباط المناوبين ماحدث، فأمر باحضاره للداخل فوراً.

ما ادهش العناصر، أنه رغم ما فعل كان حسب الله هادئا جداً وبل مسترخياً. استمر التحقيق معه لمدة ستة أيام، لم يجعلوه يذوق طعم النوم سوى دقائق قليلة كل مرة. في كل مرة يجلس فيها امام المحقق، هادىء ومسترخي. يجيب على الأسئلة بانضباط شديد وكلمات قليلة. طبقوا كل نظريات التحقيق من الاستفزاز الجارح، ابداء الاحترام، المدح والذم، لكن كان دائماً محكماً التحكم في انفعالاته التي لا تظهر، هدوئه وتهذيبه.

أمتلات صفحات الاسافير بموجات وموجات من التضامن والدعوات لإطلاق سراحه، الوعيد إذا مست شعرة منه. أمتلات الصحف بإشارات وبالواضح، ادت لاغلاق عدة صحف لأيام متتالية وتوقيفها ومصادرتها قبل التوزيع. أصبح ايقونة التضامن القومي بين الوسط المتهم بالعنصرية، الحركات الطلابية الدارفورية، وتدخلت منظمات حقوق الإنسان المحلية والعالمية. لم تنتشر صورة لمعتقل سوداني اكثر من حسب الله. لم تسأل عنه اخته الموجودة في الخرطوم ولم ينبس محمد أزرق، أو الصفية ببنت شفاه.

كلما حققوا معه تأكدوا أن هذا الشاب خطير، شجاع لحد الاستهانة وغير قابل للكسر. اتهموه بأنه ينقل الاخبار بين الداخل والخارج، ينقل الاموال للحركات المسلحة، جاسوس لهم ويجند الاتباع ويهرب السلاح. هددوه أنهم سوف يحاكمونه بتهم تشيب من هولها الابدان وكلها حكمها الاعدام. يواجهها حسب الله محمد أزرق بهدوء بالغ وشبه ابتسامة تتراقص على جانب فمه الايسر. كانت يداه تشيان أنه مدرب على السلاح وهذا امر اعتيادي لكل الشباب في تلك المناطق.

تتولى اشعال حرائق التضامن رباب ونورس. وعندما تم اعتقال دلدوم عوض كوكو، دخلت اطراف جديدة من منظمة **"انف"**، وعبر الممثل جورج كلوني عن تضامنه التام وارسل خطاباً مفتوحاً للسلطات. اطلقوا سراحه بعد ست أيام.

حطت الطائرة في مطار الخرطوم قادمة من الفاشر. شاهد حسب الله محمد أزرق مطارات كثيرة في حياته: شارل ديغول في باريس، بروكسل، تونس، طرابلس، القاهرة وغيرها. استقبله زوج اخته في الخارج، سأل عن أهله ووالده وتوجها لمنزل اخته، محطته لمدة سنوات قادمة ليدرس الجامعة. قضى في هذا المنزل أول سنتين من عمره، وهاهو يعود بعد اكثر من عقد ونيف. منزل وسيع وجميل وله جناح خاص من غرفة كبيرة، مطبخ صغير، وحمام وبراندة بطول الغرفة.

عندما أستلقى على سريره الكبير في غرفته التي اختيرت كل قطعة فيها بعناية شديدة، تذكر ربى مليط فأحس بوحشة شديدة وحنين. سافرت الصفية لدبي واختارت كل قطع غرفته من افخر المتاجر، والمولات الكبيرة. عندما احتج قالت بلكنتها الجميلة: **ابوك رجل اعمال وامك تاجره عايز تعيش في الهتش**. لم تترك الصفية شاردة او واردة لم تحضرها. سوف يقول عنها خالد صلاح عندما يدخل غرفته لأول مرة: **امبراطور التكنلوجيا، تقول لاوضة دلدوم والبير قوموا واقنب مكانكم**.

احضرته اخته لغرفته مباشرة، وهي تخبره أن خالد صلاح جارهم وامه رقية جاءا للسلام عليه. كان يرتدي كامل ملابسه، فقد عودته الصفية منذ صغرة أن يكون في المنزل مرتدياً ملابس الخروج. **البيوت عندنا هني مفتوحه، خليك متشيك لحدت ما تجي للنوم**. علق خالد صلاح على غرفته وأنه سمع عنه من اخته وخالتو الصفية. بعد الاحاديث العامة سأله حسب الله: **جنسك شنو يا اخوي؟**. رد خالد تلقائياً: **من امدرمان**.

آخذ حسب الله بالرد فقد كان سؤال **"جنسك شنو"** أحد قضايا عمره. والدته هي الصفية بت حسب الله أحد شيوخ عرب مليط، حبوبته الاخرى خديجه كبرى ام أزرق وتعيش معهم بالمنزل. لكنه يحمل اسم محمد أزرق الفخور أنه من سانيه يعقوب في جبال تقابو شمال مليط، جده من البرتي، هاجر مع المهدي للبقعة وهناك تزوج تعيشية. عندما عاد جدهم بعد كرري للغرب مع سلطان علي دينار، وحارب معه الانجليز، تزوجت بنته من البرتي، واحد أبناءها تزوج برتاوية هي جدته من ابيه. انتبه حسب الله لسؤال خالد عن جنسه فقال: **من مليط**. سوف يلتصق الاسم به ويطلقون عليه ود مليط ويختفي اسم حسب الله. حتى الصفية بعد **"نقنقة"** من ضياع اسم والدها، تناديه ود مليط.

اعده والده منذ صغره ليخلفه في السياسة. سوف يذهب معه لاجتماعات كثيرة في انحاء الدنيا، ويجعله يقرأ كل تراث حزب الأمة وتاريخ دارفور وعندما كبر قليلاً سوف يحضر له كتباً متنوعة، قال عنها: **نحنا دخلناها بالرجالة، انته تدخلها بعلم وفهم وفكر**. في صباحات مليط الدافئة سوف يعود من المدارس، يتناول عصيدته بسرعة ويعدو من حيهم قافزاً من كثيب لآخر، ومن رابية لمجرى سيل حتى يصل دكان الصفية. سوف تطعمه مرة اخرى اطباق اللحم، والكمونية والجبن الأبيض. سوف يجد الموز وبرتقال جبل مرة وعنب ليبيا وخوخها وهي تقول: **زي ابوك تأكل زي الدجاج وما بيظهر عليك**.

لكنه لم يكن مثل والده سوى في شجاعته وعيونه الصغيرة. اعطته الصفية كل قسماتها ولونها ونحافتها. اعطته اعتزازه بنفسه وتوقه للحرية. تدخله خلف الدكان حيث جهزت له منضدة عليها مصباح جميل كان يحبه، وتجعله يراجع كل ما درسوه وبعدها تعطيه الكتاب الذي عليه الانتهاء منه. لم تكن الكتب هي وحدها ما يشبع شغفه للمعرفة، لكن حكايات الصفية وكلتوم وخديجة، الحاج ابراهيم، الشرتاي حسين احمداي، والمسافرين الذين يحضرون من ليبيا، ومن الجبل ومن المالحة.

عندما بلغ السابعة عشر كان ود مليط قد عاش اجيالاً في الحكاوي، المدن التي زارها، الكتب التي قرأها والافلام التي شاهدها. لما جال انداده في المراعي الشمالية التي خبرها في حولين وعاش متعتها وصعابها، ووصل حتى قوز بلا نار، سوف يأخذه محمد أزرق لكورسات لغة في الريف الانجليزي، وزيارات لمتاحف لا يستطيع أزرق نطقها، وبلاد وبلاد. تجول مع والده في أرجاء دارفور من الطينة، للجنينة، جبل مون لزالنجي لوادي صالح، من ديار التعايشة للضعين وبحر العرب. الصفية هي التي تتابع كل ما يفعل بأن يحكي لها ما رأه.

دخلت الحرب بيوتهم. أهل ابيه هاجموا أهل امه، وكلهم يطلون على ربى جبال الكلو وكلويات وكتول **"انتقد ... صمت حكومة ولاية شمال دارفور عن الأحداث منذ اندلاعها في فبراير. في وقت حمل بيان صادر عن قبيلة الزيادية حاكم ولاية شمال دارفور يوسف كبر مسؤولية الانفلات الأمني بالمنطقة وطالبوا الرئيس البشير بإقالته بينما اتهمت قبيلة البرتي الزيادية بتكرار الهجوم عليها وحذرت من أن صبرها نفد ونفت في الوقت نفسه أية صلة لها بوالي الولاية الذي ينتسب للقبيلة وأكدت في الوقت نفسه جنوحها للسلم"**.

بلهف وشغف سوف يلتقي نورس. اجتذبت ناظره من البعيد في اجتماع لشباب حزب الامة ضمهما معاً. صنو الصفية ومثيلتها، عيناها مغطاة بحواجب سوداء كثيفة. ود مليط يمتلك شجاعة والده أزرق وجراءة الصفية. تقدم منها وقدم نفسه. بصوتها الدافيء الحنين قالت: **ات ود مليط، عندك سمعه زي الجنيه الدهب**. بعد ان توغل في احاديثها سألها عن جنسها. قالت بتحد وشموخ. **أنا من المسيريه**. عزم ود مليط أن لا يرتبط بأي فتاة تقدم له اسم قبيلتها وضمها لقائمة اصدقائه. لكن صداقته مع نورس كانت عميقة حتى أنه عرفها على اخته وجعل اسرتيهما اصدقاء.

برغم معارفه الواسعة التي استوقفت زملائه في الحزب، حتى نورس التي كانت تضاهيه قالت له ذات نهار وهي تثني رقبتها الناعمة وترمي بشعرها الاسود الكثيف وراء ظهرها، فتنشر عبكاً ينساب على الاجواء حوله وهي تضحك: **ات ده كله عشته في عمر واحد**. سوف يخوضان نقاشات طويلة حول القضايا المتنوعة، لكنهما يعودان دائماً للديمقراطية داخل الحزب. لنورس الفضل في ادخاله للتجمعات، الدوائر السياسية، حلقات النقاش المتعددة واستاذته في امور التكنولوجيا.

الصفية وحدها عندما رأتها اجلستها بجوارها وخاضت معها في أرجاء الكون، وصحبته في المساء واشترت لظبية توباً فاخراً ومثله وبعض العطور لنورس. سوف تجادله طوال نصف ليل حول موقفه منها وقالت اخيراً وقد هزم منطقها: **ابوك لو كان سوى كدي ما كنا عرسنا**. احبت الصفية نورس وكانت تتواصل معها ومع ظبية بالتلفون، لن تتورع في كل محادثة تليفونية او لقاء أن تذكرها وتمدح في اخلاقها وجمالها ونحافتها. يقول لها: **غايتو يالصفية لو لقيتي تعرسيني ليها باكر**.

فترد مسرعة: **عجب بت السرور يا يمه، والله افج ليك العاصمه فج واخلي كلتوم ذاتها ترقص ليك الجراري**.

تعريف خالد صلاح في ذلك النهار الحار، جلب له الراحة وأعطاه الطريق. لن يكرر طريق والده الوعر وسكة والدته المؤلمة. في ذلك المساء التقى رقية وبصحبتها نفيسة بت الباشا والقمر جالس على يسارها. دعته بت الباشا للجلوس معهم. شذى زهور تتدلى من ضفائرها المتدلية على جانبيها، رائحة الياسمين تتناثر من رباب. قالت له بت الباشا: **ما بتعرف ولدي دلدوم**. كان أول اسم ذكره خالد عندما التقيا. **ولدك ما فيه زول ما بعرفه، عله ما اتلاقينا**.

سوف يلتقيان في زنازين الامن. عندما دخلوا الجامع الصغير ليصلوا، التفت اليه وقال بصوت خفيض منهك: **أنا دلدوم عوض كوكو. ولد خالتي نفيسه؟**. أومأ بعيونه. **أنا حسب الله أزرق**. رد بود شديد ومعرفة**: ود مليط صاحب نورس**. وهكذا تعارفا. بجراءته المعتادة عرف كل شيء عن رباب. كانت على اعتاب الجامعة. تبادلا ارقام التلفونات. التقط لهما صوراً وركزها عليها وهي تبتسم. حدثها بعد اربع وعشرين ساعة بالضبط، حتى هي لاحظت وعلقت. مرت امتحانها الأول معه.

تحدثت معه الصفية من انجمينا حيث إستقرت مع الاسرة بعد فصل الجنوب ومضايقات الحكومة لوالده واشياء اخرى. أحست الصفية بهمه فسألته مباشرة: **اهه في شني؟**. كان ود مليط يؤجل سؤاله لرباب خائفاً من ردها. ارسل للصفية صورتها، لم تناقشه الصفية ولكن دعت له أن يجعل ردها كما يريد. يعرف أنها بعد أن اعجبت بصورتها سوف تقرأ اجزاءاً من القران في الليالي وسوف توزع النقود للمتسولات وتعطيهم ما يدعونه له. تمر عليه الليالي وهو يتصل بها مراراً وتكراراً ويؤجل السؤال.

مر شهران وهو لايفعل شيئاً سوى الاتصال بها والحديث العام. سوف يتحدث معه خالد يومياً حول الموضوع. نورس التي اضطر أن يحدثها عن سؤاله، بهتت، دهشت ثم اجهشت بالبكاء وهي تلوم نفسها على اجابتها. وبرغم نقاشهما الطويل ومحاولتها أن تؤكد أنها لم تقصد ما فهمه، ظنته من الرزيقات، فهو يشبههم بطوله ونحافته. تلك الأيام القبيلتين يولغان في الدم والقتل بينهما، والمرارات كثيرة ومثقلة.

لكن الموضوع قضي عنده. لن يخوض في حياة محمد أزرق والصفية مرة اخرى. تتقسمه دماء لم يطلبها، وحكايات لم يصنعها وتأريخ يتناهشه وتمضي بعيداً. حسب الله في الحرب التي تدور اوارها بين اسرتيه وفي بحثه عن الحب الذي لايجيء، التوازُنُ بين من جاءوا ومن ذهبوا، بين من سَلَبُوا ومن سُلِبوا، بين من صمدوا ومن هربوا. التوازُنُ بين ما يَجِبُ .

حكت له نورس عن رباب واصرت أن تصطحبه للقائها، لكنه سليل الشجعان كان مرعوباً، خائفاً وعاجزاً. ضحكت نورس وقالت أنه سوف يلين، وكابد اشواق تلك النظرة الوحيدة ولم يستطع. رباب صوت الليل الحاني في مضاربهم، لمعات راقصات الجراري تحت اضواء الرتاين وشهقة النفس الاخيرة. وهو في خوفه يعاني، يؤجل ويقتات الليالي المسهدة، ارتبطت رباب ببرقدار.

عبك الكتمة

مرت الأشجار، كالخيال أحلام، ناس لطاف وظراف و مابين غزال وزراف. الأيام التي عملوا لها قد اناخت عليهم، جائتهم الانباء منذ قليل: **مدني كتمت**.

ثلاث سنوات منذ صاح أحدهم: **قرفنا.** آلاف مروا على فعاليات قرفنا، قرأوا بياناتها، دخلوا على صفحتها الرسمية في النت. مئات اعتقلوا وعشرات ذاقوا ألوان التعذيب الجسدي والنفسي. شابات وشباب، نساء ورجال، كبار وصغار. من أنتموا لاحزاب او جاءوها من لامكان. آلاف خيوط الحكايات المرويه والمنسية. الذين نزلوا الشارع مباشرة واخرون انكبوا على افكارهم ورؤاهم. استهلكت آلاف الأوراق البرتقالية، الاساور والتي شيرتات، الطرح، اللافتات، الشالات والاستيكرات جعلت اللون البرتقالي طافحاً في المدن السودانية.

حركة بسيطه وفكرة تبناها ثلاث شباب، امتدت على جنبات السودانيين في أرجاء الوطن، مهاجع الدياسبورا، اخبار الوكالات وصفحات الجرائد. شرارة إنطلقت من حي قديم في امدرمان، وملات سهول السودان وترعرعت في افئدة الشابات والشباب. جعلت أجهزة الامن الخبيرة في نآمات الشعب السوداني، الداخلة بين الرجل وامرأته وقميص النوم، يتسائلون وهم يخرطشونهم، يغرقونهم بالماء البارد ويكيلون لهم اللعنات: **انتو منو؟؟، الوراكم منو؟؟منو القادة؟؟؟ رئيسكم منو؟؟.**

عندما قالها سراج بسخريه، ووافقوا، كانوا يصنعون جزءاً من التاريخ . انتخابات ابريل 2010 في الغد، ثلاث، شباب طلاب في جامعات سودانيه مختلفه، أصحاب وأبناء حي مهتمين بالشأن السياسي. اجتمعوا كعادتهم لتناول شاي المغرب مع صديقهم فوق المصطبه أمام المنزل في يوم 31 أكتوبر 2010. كانوا، كعادتهم يتجادلون ويحلمون. أحدهم حكي عن امتحاناته، الكبست والمفروض يشد حيلو، الآخر عن حبيبته. سأل أحدهم: **ياخوانا بكره التسجيل بتاع الانتخابات .. وانا ماعارف التسجيل وين !! في زول عارف ؟**

لم يكونوا يعرفون، وعليهم ايجاد حل لمشكلتهم. سوف يبدأون في اقتراح حلول لهم، يقود نقاش متعرج من ندوة في الحي تعودوا على عقدها في منتداهم: **نوزع مجله تثقيفيه للتوعية بضروره التسجيل للإنتخابات ومتابعه العمليه الانتخابيه. ممكن نوديها لي اصحابنا في باقي الاحياء هم يطبعوها ويوزعوها وبعد داك نعمل مجله تانيه للمرحله البعدها ونتابع بيها لحدي ما الانتخابات تنتهي!. انا من رأيي اننا نحسم الفوضي ونعمل حملة إسقاط المؤتمر الوطني.**

عبر مسارب تجاربهم التي اكتسبوها من العمل في المنظمات الطلابية، منتدى الدومه التي عملوا فيها وتجارب ابائهم واصدقائهم، بدأ تبلور الفكرة. **تمام انا معاك في الفكره دي ونسميها قرفنا ونعمل مجلات ومنشورات ومخاطبات ونعملا حركه عديل.** تطوع أحدهم بأن يكتب المنشور وينشيء قروب في الفيسبوك. ادخلوا الكراسي وعدة الشاي وذهبوا للبوش.

ذهب اثنان للجامعه، الآخر ذهب لمنتدى في الحي، وهو مفعم بفكرته ومؤمناً بها تماماً عرضها على المنتدى. تحمس البعض، استمع اخرون بإشفاق ونفر اعتبرها حماس شباب. تبرع شخصان بمبلغ مائه جنيه. كانت أول مال تمتلكه قرفنا. تفرج الاصدقاء الثلاث على فيديو يحكي عن الثورة البرتقالية، كيف استطاع مجموعة شباب مثلهم أن يحدثوا تغييراً. اختاروا اللون البرتقالي وعلامة النصر شعاراً لهم. بمائة جنيه سوف يطبع مائة من أول بيان للحركة على ورق ابيض، ويعود سريعاً قبل انفضاض المنتدى ليريهم انهم جادون.

الفكرة بسيطة، ملهمة وخطيرة. عليهم الثلاثة صياغة خط العمل: وصل العملية الانتخابية بمجمل حياة البشر العاديين، همومهم الحياتية، احلامهم وآمالهم وربطها بالتسجيل في الانتخابات، التصويت لمن ستتفق عليه المعارضة لاسقاط المؤتمر الوطني عبر الانتخابات. هناك ضمانات اقليمية ودولية لهذه الانتخابات. عليهم طباعة البيانات، الذي بدأت بصفحة كاملة ثم نصف صفحة بعد ذلك ونشره في الصفحة الرسمية.

حملت قرفنا عبر بيانها الأول، آلافراد والمجموعات مسئولية العمل حسب ظروف كل منطقة، لا مسئولين، قادة او زعماء. كل منطقة، حي او مجموعة تنظم نفسها وتمارس ما تشاء من فعاليات، أنشطة وابداعات. الشرط الوحيد أنها حركة سلمية علنية تعمل وسط الشعب بسلمية. سوف تنتشر الحركة، تتفرع، تتكاثر عنقودياً بلا حدود. قالوا عنها: **لم يكن القرار متعلقًا بحفز الناس على المشاركة بالتصويت فقط، بل كان الهدف هو دفعهم للخروج للتصويت ضد المؤتمر الوطنى وإسقاطه.**

عندما جلسوا تحت شجرة بت الباشا وسألت رباب بعيونها الناعسة القلقة: **ديل منو؟؟**، لم يكن أحداً يعرف الاجابة. كلفوا هباش أن يتحرى لهم عن قيادة الحركة وزعمائها ونصبوه الصلة بهم. الفكرة جذبتهم جميعاً. كلهم على احتكاك بالفضاء السياسي، بعضهم داخلها، بعضهم على الضفاف واخرون على التخوم. حسب ما فهموا من أول بيانات قرفنا أنهم قد بدأوا العمل. سوف تتبناه رباب كطفل وتطلق علينا **"قرفنا هباش"**.

فوجئوا في اليوم الثالث بورود الحركة بعنوان عريض في صحيفه الشرق الاوسط يقول: **حركه جديده تطالب بإنهاء حكم البشير!**. فزعوا من العنوان ومن انتشارهم في هذه الفتره القصيره، قرروا التوقف عن العمل حتي يحصلو علي دعم أكبر وعضويه جديده. لكن كانت الفكرة قد تداعت. تلقوا اتصالاً من أحد الاصدقاء قرر دعمهم بمبلغ 500 جنيه، فتدافعوا على العمل. كانت تلك أيام اهتمام الصحافة والاعلام بالسودان، لأول انتخابات حرة وديمقراطية، فبدأت الاخبار ترد في صحف محليه، القنوات الفضائيه، شبكات التواصل الاجتماعي، الصحف الالكترونية وزاد عدد زوار المجموعه في الفيسبوك.

سوف يتوافد الناس عليهم، يطلبون البيان، عن طريق الاتصال الشخصي، عبر الصفحة الرسمية. رتبوا مسائل الورق والطباعة، وحصروها في انفسهم. من يتصل بهم يحضرون اموالهم ويستلمون البيانات.

رأى أحدهم فيديو من أحد حركات تشبهم، تستعمل السخرية، عن زعيم سياسي يدخلوه في غساله، بصابونة تحمل شعارهم فتخرجهم نظافاً. قرروا عمل فيديو شبيه. اتصل بهم مخرجين

ومهتمين بالسينما التسجيلية. أول فيلم عن طشت يوضع فيه ملابس وصابونة تحمل اسم قرفنا. راودتهم احاسيس مختلفة عندما ركز الاعلام عليهم وأحسوا أنهم اصبحوا حركة كبيرة ولكن بجسم ضعيف.

واصلو في طباعه الأوراق فصاروا يوزعون أكثر من مائة الف نسخة كل يوم أو يومين. بعد شهر قرروا زياده عدد الاعضاء المنظمين للعمل، فحشدوا عدد من اصدقائهم ومعارفهم، تم الاتصال بالشباب الذين عرضوا عليهم المساعده عبر الفيسبوك. سرعان ما زاد عدد الاعضاء، تم تقسيم الاعضاء حسب المهام. اقترحت أحدى المجموعات إقامة مخاطبات جماهيريه في الشارع وفي الاسواق ومواقف المواصلات. تمت أول مخاطبه جماهيريه في الموقف الجديد بوسط الخرطوم (**موقف كركر**) تحدث فيها أحد الاعضاء. في اليوم التالي اقيمت اربعة مخاطبات في مناطق مختلفه في نفس التوقيت. استمرت المخاطبات طوال فتره الحمله الانتخابيه بمعدل خمس لعشرة مخاطبات يوميا.

تم أول اعتقال لمن اتهم أنه عضو قرفنا، الستيني عوض الله من مدينة مدني. تحصل على بيانات من أحد آلافراد، فقام بتوزيعها في سوق مدني. تم التحقيق معه واطلق سراحه. سوف تكون هذه من سمات قرفنا، فاعضائها أشخاص متطوعين، وجدوا فيها ما يجذبهم ويحرضهم على المشاركة. لم تكن هناك سلسلة قيادة، موجهات من لجان عليا، او برنامج ورؤى وسفسطات كثيرة. كل فرد يعلم القليل، وهو ما يربطه باعضاء مثله من اصدقائه والذين يشاركون في الفعاليات معه. سوف يقول أحدهم، ويتهمونه أنه قائد الحركة، عندما يعتقله الجهاز ويسأله عن الاعضاء، الانشطة، القيادة، يضحك ويقول: **جنابو أنا موجود معاكم هسه هنا، فيه نشاطات بيقوموا بيها ناس ما بعرفهم**. وكان صادقاً تماماً.

حتى تلك الأيام ظن الاصدقاء الثلاث والمجموعات التي تبنت الفكرة، أن الدولة جادة في توجهها للتحول الديمقراطي. هذا اساس اتفاق نيفاشا. سوف يبدأون في تبين أن ما ظنوه سهلاً وممكناً سوف يطول. الاحزاب التي دعوا الناس للتسجيل والتصويت لها، تتخبط، ولاتستطيع الاتفاق على مرشحين، وترتفع دعوات المقاطعة التي تجهض فكرتهم. سوف تريهم الأيام، التجارب والأحداث هشاشة ما ظنوها قلاعاً راسخة من ابنية المعارضة.

تم اعتقال طالبين من كليه الموسيقي والدراما بعد توزيعهم لمنشورات تدعو للتظاهر. تم اعتقالهم من المهندسين بعد مطارده قويه تم علي اثرها اطلاق الاعيره الناريه عليهم وكادت ان تصيبهم !! سوف تبدأ بهذين سياسة التعذيب الشديد. رغم أنها أرت شباب قرفنا مدي تأثيرهم علي الشارع السوداني، طالت المئات منهم شابات وشباب.

كشفت الناشطة بقرفنا عن تعرضها لإهانات وألفاظ نابية عقب إعتقالها الأيام الماضية بسوق سته بالحاج يوسف وبحوزتها منشورات. وأضافت عندما تم إقتيادي للجهات المختصة للتحري معي وعندما سالوني لمصلحة أي حزب أعمل وقلت لهم أننا جماعة قائمة بذاتها قالوا

لها كلامك غير مقنع وهددوني بالتحويل للكشف الطبي حتي يتم التاكد من عذريتها.

سوف تتصل بهم الاحزاب والمنظمات، لكنهم مصرين على موقفهم على أن اعضاء قرفنا من كل التيارات والاحزاب ومؤيدين لمشروع قرفنا. أفضل العلاقات مع الحركة الشعبية التي تعاملت معهم كحركة مستقلة. تم اعطائهم غرفة في مقرها في المقرن، وسوف تشهد هذه الغرفة أول صدمة ضخمة لقرفنا عندما اعتقل طالب صغير السن، تم تعذيبه بعنف مفرط. عندما رأوا آثار الضرب علي ظهره، وحكى لهم وقرر بعدها أهله أن يسافر. سوف تترك هذه الحادثة آثاراً جسيمة على معنويات اعضاء قرفنا، من جاءوا للشهرة، من يظنونها مجرد نزهات، من اعتقدوا أنهم منظرين وليس في الميدان.

قبل هذه الحادثة، لم يكن لي أي علاقة بالسياسة، ولكنني الأن أكثر تصميما من ذي قبل بسبب ما مررت به و ما شاهدت. تم إعتقالي في الرابع عشر من فبراير 2011. وتنقلت بين أربع سجون داخل السودان قبل أن يتم آلافراج عني في يوم الثالث والعشرين من أبريل 2011.

ما فعلوه بي كان أقل مما سبق ذكره. لمدة ثمانية أيام كنت مضمد العينين، موصد اليدين والرجلين. أخذوني الى جدار خارج الزنزانة، وإنهالوا علي بالضرب في الظهر واليدين. ضربت في الوجه والأكتاف، وركلوني في منطقة الخصية. أوقفوني أمام الحائط وهددوا بقتلي. وضعوا البندقية خلف رأسي وسمعت صوت تجهيز البندقية حتى حسبت أنها نهايتي. ولكنه كان نوع آخر من التعذيب النفسي الذي لم يبدأ لينتهي. فقدت أربعين كيلوجرام من وزني خلال فترة الحبس بسبب الجوع. رضخ في القدم اليمنى، وحروق في القدم اليسرى، وجروح من أثر القيد و الحجارة التي قطعت كاحلي أثناء التعذيب. في أيامي الأولى شعرت بالأسى على نفسي و كنت اظن أنني أقوى من ذلك، ولكن عندمى فارقت السجن، لم أحس بالقوة أبدا بعد ما شاهدت تعذيب المعتقليين السودانيين.

مازلت أشعر بالخجل للخوض في ما حدث لي، أو حتى التحدث عن مشاعري اللتي كتمتها كثيرا. ولكني أذكر تمام العنف الذي تعرض له السودانييون، وكيف كان جسمي يقشعر من هذه المعاملة لهم. كيف أقارن ما جرى لي وما حدث لأطفال أقل مني حجما، و لكنهم تحملوا الأذى والألم. كم كانوا أقوياء وكنت أنا ضعيفاً.

دلدوم افضل صديق لرباب، وهباش، ثاني افضل صديق. بشغف يتابعون قصتها مع بيرقدار. قال له دلدوم أن هناك اخبار مهمة اليوم. بيرقدار وبعد أن ترك سيارته وركب معها الحافلة لخمس

أيام وقدم نفسه. يراه من البعيد ولا يعرف عنه الكثير، رغم أنه هبش ومدها بمعلومات يعتقد أنها مهمة. ما استوقف نظره بشدة اناقته. ينجذب للأناقة لأنه مهووسً بها.

كل شيء في رباب يضحك، سلسلتها الذهبية، هدية بت الباشا في عيد ميلادها. اكبر احتفال فرح يشهدوه على رباب منذ وقعت عينه عليها. قال دلدوم: **الحلبي ود المغتربين ده دايره بيه شنو؟**، احتجت بدلع: **يخص عليك يا دلدوم**. حكت لهم خجلى، قبل أيام، أنها قاومت رغبة والدها والتحقت بنفس جامعته. **دلدوم الظاهر ربويه كسَرت البير**. سوف يعتمد الاسم بعد ذلك في اشارتهم إليه وبعدها اصبح اسمه الرسمي في اوساطهم. ضحك دلدوم معلقاً: **كَسِر ساي، دي دشدشته**.

اخبرهم أن الاجتماع، الأول من نوعه، وضم عدداً كبيراً من امثاله الذين يمثلون مجموعات، تقرر فيه مناقشة بعض آلافكار التي طرحت من العديد من المجموعات وآلافراد. تعرضت قرفنا لهجمات امنية شرسة وقاسية، بعد مظاهرات الكتاحة. أحس بها هباش منذ اوائل الأيام. برغم بساطه الفكرة وقدرتها الفائقة على الإلهام، اطراف كثيرة كانت تقترب من الحركة بتصورات مختلفة. يودون جميعاً ان يساهموا بما يعرفون. ناشطي المجتمع المدني يعرضون التدريب والتأهيل، الاكبر سناً سوف يميلون للتركيز على **"الاساس النظري، الرؤية"** والحزبيون على قضايا تمتين البنية التنظيمية. وهناك محاولات ابتلاع لصالح تنظيم ما.

قرفنا واضحه، كل زول ينزل الشارع يشتغل.

يعني الاساس النظري برضوا مهم.

دلدوم اساس نظري شنو؟، ده ما واجعنينه بيهو من اعلان اسمرا، اتفاق القاهرة، اتفاق جوبا، البديل الديمقراطي وكله حكي. عايز تبقى زي ابوي، اقول عايزين نعمل مخاطبه يقول ليّ متنوا الاساس النظري. يعني حنمتنوا ونحنا قاعدين في البيت.

بس لو سقطنا النظام حيحصل شنو؟

أنا مع كلام سيلفاكير، نكتل القرنتيه وبعدين نقسم اللحم. نحنا حركه عليها تعمل مع الشعب عشان هم يسقطوا النظام. بعدين يا هباش ايه قصة الهيكلة دي. نحنا حركه علنيه، سلميه ومفتوحه، كل ناس يتجمعوا يشتغلوا وهدفنا محدد اسقاط النظام. ما الهياكل مرصرصه ومسبكه في الاحزاب وقاعدين يتكلمو، ما شفناهم في الشارع.

من خلال الصفحة الرئيسية، خاصة بعد أحداث لحس الكوع، بدأت الدياسبورا في التواجد بقوة في اروقة فعاليات قرفنا. سوف يتطوع افراد في تصميم القرافيك التي تستعمل في الحملات، بدء حملات التضامن وتنظيم المظاهرات امام السفارات ومراكز القرار، نشر البيانات والمؤتمرات والتصريحات على نطاق واسع في الاعلام المسوع والمرئي. تنظيم دورات للشابات والشبان في فنون تصوير المظاهرات، التوثيق وتنظيم الاحتجاجات في المراكز ذات التجربة. وغير هذا كثير.

هذا كله كوم والدعم المادي كوم. في وقت وجيز سوف تنظم حملات التبرعات العامة، سوف يتحمس آلافراد والمجموعات لإرسال التلفونات الذكية، اللابتوبات، الايبادات والكاميرات

الحساسة ذات التقنية العالية. سوف يحفر مجرى واسع من شبكات أيصال الاموال، عبر أشخاص وبلدان. مع هذا سوف تتوالى الدراسات، المقالات النظرية والمساهمات الفكرية عبر العديد من المجموعات.

اجبرا رباب أن تدعوهما لاغلى محل ايسكريم بالعاصمة، وعندما حاولت التعلل ببعد المكان، حاصراها أن عربة دلدوم جاهزة لنقلهم حتى للابيض، والمناسبة مرور شهر على تقديم البير نفسه لرباب في ذلك الصباح المنعش. علاقتهما قد مضت في طريق مدردقة. وهم متيقنين أن بيرقدار لابد قد احتضن يدها الناعمة المنمنمة، يريدون سؤالها، لكن لم يستطيعا. أحست هي بذلك فقالت وهي تفرد يداها: **أي...أي. لكن بس هبشه.** في تلك الليله لانت قلوبهم وأحسسوا، ثلاثتهم، بالارتياح والحبور.

بيرقدار

بعد حوالي الشهر من معرفة بيرقدار برباب دعته للبوش، عرفته على الشلة، سبع شباب ورباب وفتاة اخرى. رباب تعرفهم لأن والدتها السرة صديقة بت الباشا، عملا معاً لفترات طويلة في العمل النسائي، ولازلن. اراها دلدوم، صديق طفولتها، البيان الذي اصدرته قرفنا على ورق برتقالي. لأول مرة يسمعون عن **"قرفنا"**. عندما قرأت البيان، سألته: **وعملتوا شنو**. عثمان هباش هو من احضر البيان، وأعطاهم اياه البارحة، وتباحثوا حوله ولكن لم تكن هناك افكار محددة. **ديل منو؟**، ولم يكن أحد يملك الجواب.

في تلك الليلة اقترحت رباب أن يسموها **"قرفنا هباش"**، ضحك دلدوم بصوت عال، حتى أن بت الباشا سمعته وسالت. ثم بدأت في طرح آلافكار كعادتها. سوف يعلق دلدوم على هذا اليوم: **رباب بعد يوم واحد من البيان، دخلت علىّ زي القنبلة ولقينا نفسنا من تاني يوم، قرفنا جد.**

سوف تأخذ البيان وتطلب من دلدوم ان يخبر هباش ليشتري باكتة ورق برتقالي، ويحضره لها لتطبعها في طابعة والدها الليزر. طبعوا مائة نسخة، ولأنهم سمعوا أن البيانات تم الصاقها في نادي الدومة ومطعم دودي، فقد علقوا بياناتهم في محل المكوجي، والمطعم الذي يعمل فيه عثمان. وزعوا البيان لكل شباب الحي، من غير المنتمين للمؤتمر الوطني والمعروفين بانتمائهم للامن في نفس اليوم. ستعرف رباب فيما بعد أن قرفنا كونت قبل خمس أيام فقط. في الغد جلسوا تحت شجرة بت الباشا ونظموا حملة تبرعات شملت العشرات من الاباء والشباب.

سالها، وقد مرر ليقلها من مخاطبة لقرفنا في السوق العربي، عن سر حماسها منذ أول لحظة. مغبرة ومشعثة، قالت أنها لن تتحدث إلا اذا أوصلها لتستحم، تغير ثيابها وتاكل. اوقف السيارة واخذ لها صورة وهي تحتج. عندما اسبلت جفنيها وراحت في اغفاءة، تبين مدى جمال هذه الفتاة التي تتحدى أجهزة الدولة كلها بلا أي خوف. دخل المنزل بعدها قليلاً، وجلس مع والدها وتحادثا حول الوضع وغيره. عندما جلستا معه والسرة بعد أن تغدت، قال له بعد مدة**: قوموا امشوا شارع النيل بتاعكم، بدل ما في سركم تقولوا الحقن والضغطة ديل.**

شوف!، التفتت وهي تنظر له بعيونها الجميلة الناعسة القلقة: **نحنا من عمري عشرة سنين منتظرين مع ابوي التجمع يجي ويرجعهم الشغل وحياتنا تتحسن، يعني نلقى لبن في البيت، نشتري هدوم، ناكل لحم كل يوم، ابوي يشترى ليه عربية تاني، اختي تأجر بيت وترحل عشان اخد اوضتها. بدل التجمع جانا البترول، فرحنا وقلنا فرجت. قامت عمارات، ابراج وعملوا كباري، لكن ما عملوا لحياتنا جنس شيء، سرقوها كلها. بعد داك رجعنا بقينا منتظرين التجمع وقرنق. بدل داك قالوا لينا الانتفاضة الشعبية، ابوي فلق راسي باكتوبر والانتفاضة. ضحكت وحكى لها عن جده: تصور يالبير شعب اعزل اسقط نظامين عسكريين بس بالمظاهرات.**

بعدين السلام جه، ومافيه حاجه اتغيرت، عارف يالبير الناس الكنا منتظرينهم كلهم جوا والادوه وزارة والاخد منصب، لا رجعوا زول، لا زادوا معاشات، لا قللوا مصاريف. حتى لما جات الانتخابات اتفرتقوا لعشرين كوم، نحنا عندنا عدو واحد، ما قادرين نعمل قائمة انتخابية واحدة، دي معارضة شنو السجمانة دي. خلاص يالبير

نحنا عايزين نعمل حاجة حقتنا، نبنيها ونغير بيها. اظن نحنا لقينا ده في قرفنا.

عندما حدثوه عنها، تعجب من الاسم، واسماهم قرفانين guys واعجبتهم التسمية. عندما اخبروه بالإنضواء معهم، اخبرهم أنه من اسرة اتحاديين أباً عن جد. لم تزعجهم هذه وقالوا له أنهم يضمون كل من ينضوون في احزاب مختلفة. بطبعه ينفر من العمل السياسي، الذي ضحى فيه جده، وشرد أباه من عمله. قال لهم أنه مستعد للتبرعات، أن يعاونهم بعربته، أن يلبس سوارهم لكنه لم يجد رغبة في العمل الذي يغرقون كلياً فيه.

سوف يصبح جزء منهم رفقاء طريقه، يمر عليهم في طريقهم للجامعة. كان اقربهم دلدوم وإليه يعود الفضل في تعرفه على المدينة، التجوال في اسواقها. عندما سأله عن الهدايا التي يودون أن يحضرها لهم، اثناء عطلته مع أهله في ابوظبي، قال أن احضر دستتين من الاساور البلاستيكية البرتقالية، وسبع تي شيرتات برتقالية. سوف تطلب منه رباب عدداً من الطرح ، البلوزات البرتقالية، وكانوا يبيعونها لتمويل انشطتهم، وطلبت قبعة برتقالية، **"بس ماركه"** كما قالت، لها لتقشر بها.

منذ أن ذهب لمنزلهم لمقابلة والدها، توثقت علاقته به. اصبح يحب الجلوس معه، اكثر من عرفهم ثقافة، يتحدث الانجليزية بطلاقة ويجيد الفرنسية، قال أنه تعلمها "رجالة" في المركز الثقافي الفرنسي، بعد أن احيل للصالح العام، وأنه علمها لرباب ليجد شخصاً يتحدث معه. لكن ما آسره في الرجل نزاهته. سألته عن ما كانت قد قالته له رباب عن انتظارهم التجمع.

نظر له وهو يضحك: **والله يا البير ياولدي غشامة وقلة فهم.** لم يكن عمه غشيماً او قليل فهم. قال: **لوما غشامه نحنا ننتظر زول من سلم تسلم قاعد الليله معاهم في الحكومة.** حكي له عن السيدة التي ذهبت لزيارة مولانا علي الميرغني، ثم ذهبت للسيد عبد الرحمن لطلب البركة والمساعدة، عندما حضرت للمنزل بلوري محمل بالسكر، الشاي والبن وغيره من الاحتياجات وظرف نقود. **في الضرائح اعطوها القهوة بالقرفة والفاتحة. ثم ذهبت للسيد عبد الرحمن في ودنوباوي وادوها اللوري.** حكت ست النفر هذه الحكاية، حسب ما يروي الناس**: مشيت لمولانا ناس حنس ونس، قليلين العرفه، البدوك القرفة، ومشيت للسيد ود الكبر عودا، والكتل دودا.**

عندما حكى لجده ضحك ولم ينكر أنه سمع الرواية، لكن يعتقد أنها نوع من الدعاية السوداء كانت شائعة وسط الاحزاب السياسية، وحكى له عن الدعاية السوداء التي مارسها مع الشيوعيين. ثم قال له أنه يحكون أن ود نفاش وهو شخصية مثل جحا استعملها الناس لترويج شيء لايريدون تحمل مسئوليته، قال تعليقاً على هذه الرواية: **فاتحة ابوعلوة (السيد علي الميرغني)، تنصرف عند ابوعبده (السيد عبد الرحمن المهدي).**

ترك لها الايباد عند سفره، لما اعترضت عليها، اقنعها أنه هام لها لتراه عندما يتحدثا سوياً، وقالت له وهي تضحك بعيونها، بخدودها وبيديها: **غايتوا زنقتني.** حدث جده عنها قبل السفر، لأنه تحسب أن والدته واخوانه الذين يعرفون عنها وربما يصله طرف حديث. جده كعادته بعرف أهلها، واخبره عن مصاهرة بينهم لم يلتفت لها. عندما زارتهم في المنزل ذات يوم، ودردش معها

لوقت طويل، وقد اعجبته، قال له عندما عاد للمنزل: **ياولد البت السمحه دي لميت فيها وين؟ عامل مسكين لكن عينك نجيضة**، اجابه ضاحكاً: **من خبراتك ياجدو**.

سوف تسعد بها حبوبه، **"البت الرهيبة"**، و**"الزينه وعاجباني"** كما قالت عنها، تحب أن يرتبط ابناءها واحفادها بنساء جميلات، يتغنى بهن الشعراء، و**"تمسكن"** الحفلات، كما هي في شبابها. اسمتها **"جكسوية البير"** في محافلها الخاصة، وبدأت تدعوها في كل مناسباتهم العامة والخاصة، تحتفي بها، تشتري لها الثياب، وتهديها العطور. مرت الأيام كالخيال احلام، وسبتمبر 2013 يقترب.

خمشة عثمان هباش

خرج عثمان هباش من ندوة قرفنا تضامناً مع ضحايا مذبحة بورتسودان. حماس عارم، حناجر ممتلئة وقلوب تخفق. بين سائق يحاول أن يكون لطيفاً، وشخص حاملاً كلاش، والطبنحة تضغط على جنبه الايسر. نزع منه الوشاح البرتقالي وعصب عينيه. تسير العربة مسافة طويلة، تدور في دوايرٍ، أحياناً في شوارع ترابية.

الليلة ينايرية. بدأت دافئة فلبس تي شيرت باكمام طويلة. ثم فجاءة تناثر البرد شديداً. كانت بت الباشا اعدت قطع العجين، وكان ذاهباً لفتح الفطائر.

لم يخطر ببال عثمان أنه سوف يصل به الحال ليصبح اسيراً، وهو يغادر كوستي قبل اكثر من ثلاث اعوام. ولد عثمان في كوستي، الابن الاصغر لموظف صغير في النقل النهري. منذ ولادته كان فضولياً، ينظر بعينيه المتحركة كل حس ونآمة. عندما بدأ المسير، قالت له والدته، أنه اكثر من اتعبها من أبناءها الست. **تحب الهبيش**، قالت امه. سوف تسمع الكلمة اخته الاكبر وتسميه هباش، الاسم الذي التصق به طوال حياته. مرت السنوات، اختفى اخوانه واخواته مك المنزل، وصل والده للمعاش، وصار هو الوحيد في المنزل.

عثمان يحب مدينته كوستي الرديف بشدة، النائمة من القوز للبحر, يوقظه والده لصلاة الصبح كل يوم، بعدها يستلقي على مرتبته الباردة، وينتظر. يستمع لصافرة مصنع كنانة، ويطرب لها، وبعدها مباشرة صافرة مصنع اسمنت ربك. يحب الشوارع المتربة، يحب البحر الواسع، قليل الانحدار الذي تطفو عليه الحشاشش المائية الطافية. لكن حبه الاكبر لعب الدافوري، انتمى لفريق حي المرابيع ولهم مباريات شبه يومية مع فريق الرديف، النصر، حي السكة حديد، حي الحلة الجديدة والقشارات. هباش هلالابي قاطع، يقرأ كل الصحف الرياضية، وأحياناً إذا تأخرت يجعل اخاة يصورها ويرسلها له.

عثمان هباش انيق بشكل لافت، ولأن الناس يحبونه، فهم يبدون اعجابهم دائماً بما يرتدي. اخواته المغتربات يرسلن له التي شيرتات، بناطلين الجينز والكوردرويود، اقمشة على الموضة، يرسلها لهم على الموبايل، للعلى الله. لكن احذية هباش هي الحدث، لامعة ومعتنى بها. لديه نصف دستة من الكابات بألوان مختلفة. وارسل له أخاه من العاصمة ساعة سواتش يمكن تبديل ألوانها.

هباش الذي يعرف الناس، ويحبونه ويطلق النكات، محبوب فتيات المدينة. يصورونه في الحفلات من فرط اناقته، خاصة الساعة التي يضبط لونها مع لبسته، سوف يتناقلن نكاته في الموبايلات ويتمنين لو أنه خص أحداهن بنكته **"فريش"**. سوف تبسمل وتحوقل امه، وتبخره كل صباح من الحسد. رغم معجباته الكثر ليس له واحدة بعينها، عالم كرة القدم هو شاغله الأول.

سوف يصلون الجمعة في جامع كوستي الكبير وأحياناً مسجد كوستي العتيق، كما سوف يحب أن يذهب للتفرج على كنيسة القديس مارجرس. لكن عثمان هباش مثل اسمه، يعرفه معظم أهل المدينة، ابن نكتة وسريع البديهة، هميماً ومتطوعاً دائماً. تجده في المقابر يحفر القبور، ينصب

الصيوان مع الشباب في المآتم وآلافراح، وتجده في كل مكان يحتاجون فيه لمساعدة. امتحن الشهادة الثانوية وينتظر النتيجة.

جاءت النتيجة ولم يفلح، ورفض أن يعيد المحاولة. اخذ من والده بعض المال وبدأ في تأسيس تجارة. بدأ أولاً بالبيع وهو راجل، مع تحمس الناس لتشجيعه، وزبائنه من الفتيات، تطور سريعاً لطبلية صغيرة ملئها ب"الهتش". بدأ هباش في أن يصبح جزءأ من مشهد السوق. اصبحت اخواته يرسلن له بعض البضائع، تكاثر زبائنه. كعادة كل الاسواق يتم الدفع **"تحت تحت"** لعاملي المحلية، الزكاة، الشرطة، الامن وغيرهم، وهو جزء من قضاء وقدر التجار كبارهم وصغارهم. توسع عمل هباش لطبلية كبيرة تحتل مكاناً معتبراً في السوق، لكن في ذات نهار جاءت قوات مختلفة، شتت كل بضائعه، حطمت الطبلية، ثم القوا به في الدفار. جاء أخاه من العاصمة واطلق سراحه، لكن كان عاد إلى الصفر.

لمدة يومين يحاولون اقناعه للذهاب للعمل في مطعم أخاه. امتلك اخوه مطعماً صغيراً، ثم توسع وجلب عامل فطاير مصري وتوسع. لكن هباش الذي يريد أن يقضي حياته في كوستي ويموت فيها رفض. اقسم عليه والده لما وجده متصلباً، فلم يجد سوى أن يحقق رغبته مؤقتاً. لأن هباش كان ولوفاً، فقد استمرت رحلته، التي قال عنها: امشي اتفسح اسبوع وارجع، وظل في العاصمة اكثر من ثلاث اعوام.

توقفت العربة. انزلوه. دفعه أحدهم امامه. معصب العين وهو لايرى، لكن يرهف السمع. وهم يتجولون به ويسخرون منه: **قرفنا، طيب نوريك القرف كيف. الليلة حنهبشك تمام...ها...ها...ها. عامل فيها قيافه...باطل.** سمع هباش عن الاعتقالات. لم يظن أنه سيعتقل أصلاً، فهو ليس سوى شخص بسيط وليس من الزعماء.

الجابك من كوستي شنو. جيت لى هلاكك. رغم الحكاوي التي سمعها عن وسائل الاعتقال، الالفاظ التي يستعملونها، التهديد والوعيد، إلا أنه وهو معصوب العين، لايدري لأي مكان يذهبون به، الطرقات التي يسيرون فيها ساكنة، كأنما قد اعلن حظر التجول. وهم يحاولون استفزازه، عثمان هباش خائف حتى الموت.

دفعوه بقوة. تأرجح وهو يترنح. ضربه أحدهم في ساقيه، فسقط ووجد نفسه على نجيل. عندما عصبوا عينيه، استعملوا جزء من الشال في ربط يديه بجانب وجهه. اليدان قد بدأت تؤلمه بشكل قاسي. سمع بعض الأصوات حوله، يأنون، ويتأوهون، فاطمئن قليلاً . الجو باردً، زخات الهواء تلسع وجهه وتجعله يرتجف.

شعر بآلة باردة حادة على رقبته من الخلف. لم يستحضر لوهلة، لكن عرف أنها مقص لقص النجيل. سمع كلماته وهو يضغط على عنقه. أحساسه ببرودة الحديد اكثر من حدته. لم يسمع هل يكبر لذبحه او شيء آخر. مرت سنواته عليه سريعاً، وهو يتشهد سريعاً. اطل عليه وجه والدته وهي تبخره وشم الرائحة. سحب المقص، وهو لايراه. طنين الاذنين لايحتمل. وهو يصرخ ويهدد، جاءته الضربة على جانبي وجهه. فقد تركيزه واليدين الضخمتين تعاودان الضرب. يعرف من الحكايات الرهيبة انها ما يسمى السودان قفل.

فقد الأحساس بالمكان والزمان. وهو يسقط أحس كأن ناراً قد مزقته. انصب عليه ماء بارد من عدة خراطيم. أحياناً كان يدلق عليه ماء مثلج من جردل. لم يرتجف في حياته مثل تلك اللحظات. صراخ خفيف يتصاعد حوله. حاول التركيز ليستبين الأصوات، لكن طنين اذنيه اعلى من ذلك. يريد الصراخ وارسال اللعنات لكن لم يكن في جسده قوة لفعل أي شيء.

ازال العصابة من عينيه. نظر إليه وهو يحاول التركيز. ضربه على ذقنه: **عاين واحفظنا. نحنا ما خايفين منكم.** اطلق العقدة من يديه وامره بالدخول للمكان. المكان فيلا من دورين. تبين عدداً من الذين يلاقيهم في الندوات والمخاطبات، وبعضهم يعرفهم. امروهم بالسجود ورفع اليدين على حائط. لم تتوقف الشتائم المقذعة، التهديدات واللعنات. كل من الحاضرين يسأل: **انت منو؟ جاي من وين؟.** يتكرر السؤال مراراً وتكراراً.

جالس على ركبتيه على البلاط البارد، ملابسه مبتلة. لايحس باطرافه. لا يعرف كم مر عليه. سمعوا أصوات مرتفعة. تصاعدت بعض الأصوات: **الطوف وصل.** كان البرد تحول لحر شديد اصابه. وهم يدخلون، ملثمين، كانوا يضربون بلا هوادة. **ديل قرفنا. نحنا ذاتنا قرفنا منكم. قول عاش المؤتمر الوطني.** كان شخص ضخم الجثة، يرتدي اللباس المزركش، يكمم قميصه ليظهر عضلاته المفتولة. هذا من يطلقون عليه تايسون، يتنقل من واحد لآخر، صفعات، لكمات، خنق، اسقاط على الارض، خربشه. ثور هائج لا يبدوا أنه يعلم ماذا يفعل.

بعد مدة طويلة من انواع الضرب، ذهبوا. ادخلوه في غرفة واغلقوا الباب. لم يكن لدي أي منهم رغبة في الحديث. استلقوا كالموتى. سقط جفنه على عينيه. يحمل سكيناً حاداً ودفع نصله لعنقه، تناثر الدم الاحمر القاني ورشه. سقط على عينيه. صحا صارخاً. امسكه من بجواره: **ده كابوس اهدأ.** عاوده الكوابيس. فلم ينام.

صوت آذان قريب. جاء اثنان وفتحوا الابواب ليصلوا في مسجد داخل المكان. غير قادر على الوقوف من تورم ركبته. عندما دخلوا المسجد حاول الصلاة وهو جالس. تركوه في المسجد، حاول ان يغفو. دخلوا بالبوت للمسجد وسحبوه من يديه فتثاقل. **كنت بتسوي شنو جوه؟. بصلي.** ضربني السودان قفل. **كنت نايم.** بدأ يضرب في آخر بجانبه. كلما قال بصلي يضرب آخر. قال مستسلماً **كنت نايم. ليه تكذب.** وضربه لوحده.

في الصباح حضر الضباط وضج المكان بالحركة. جلس خارج المكتب متحاملاً على نفسه. هناك موظفون في المكتب. سألوه عن الركبة، فحكى بسرعة عن الضرب. قال أحدهم: **بالمناسبه ده ما قانوني، نحنا ما كده.** لأول مرة يتحدث معه شخص في هذا المكان. ادخلوه المكتب. يجلس شخص في حلة انيقة، ويبتسم له. سأله عن اسمه، عنوانه، اين يعمل، اين يسكن، عن أهله، اخوانه، اخواته، خالاته، عماته، اصدقائه اسئلة كثيرة ومختلفة. خرج من المكتب ودخل مكتباً آخراً سأله نفس الأسئلة وغيرها.

عندما رأوه يعرج على ركبته، قال أحدهم: **هباش أحسن حاجه لركبتك نعمل لك سويدي وارنب نط.** نصف ساعة كاملة جعلوه يجري، ينط، تمارين سويدي مختلفة. ركبته قد تورمت وفقدت

الأحساس. اعانوه للعوده للغرفة وجاءوا بفول، عيش وماء. بدأت فتيات يرتدين يونيفورم برتقالي في تنظيف المكان. اعطتهم أحداها زجاجة ماء، اشارت للبرتقالي وضحكت.

ادخلوهم في هايس مظللة. عصبوا عيونهم. سارت العربة ودارت ووصلوا. المكان مألوفً لديه. يبدوا كمعسكر جيش. ادخلوهم في قاعة كبيرة بها عدد من العاملين منشغلين عل أجهزة كمبيوتر. رجل ضخم يجلس في مكتب انيق. اعاد عليه الأسئلة ذاتها. **انتو عايزين شنو؟ قرفنا عايزه شنو؟. جنابو نحنا حركه سلميه، عايزين نسقط المؤتمر الوطني بالصندوق. كويس بعد خمسة الف سنه! لكن انتوا بتطلعوا الشارع. جنابو نحنا شغالين ضمن القانون، الشارع حق للجميع. هباش انتوا عارفين القوم قرفنا منو؟ العدل والمساواة. ياجنابو انا شغال في قرفنا من اليوم الأول ما شفت حاجه زي دي. شوف فيه جامعات كتيره ممكن تديك بعثه، ما تمشي تتم دراستك..... طيب نحنا عايزنك تكون في قرفنا لكن تشتغل معانا، حتاخد قروش اكتر من المطعم كتير... كبر راسك يا ولد... نافخ الكير وين؟؟ في الفطور جنابو. نادي الجلاد.**

رأي المحقق من قبل وهو مذيع في أحد البرامج. ظهر الجلاد وهو ايضاً ضخم ودشن. من عدم النوم، الارهاق والانهاك، يبدو اكثر ضخامة. جذبه بعنف وجره على الارض وهو يخبطه بقبضته. تعمد أن يوجه الضربات لركبته. فقد هباش الرغبة في المقاومة فاستسلم للركلات. هذه تستفز الجلاد، فنادى معه الحوت واستمرا بضربه وركله حتى ارهقا.

ادخلوهم لغرفة واسعة. امام كل منهم قارورة ماء باردة. مروا عليهم بالشاي الساخن. ثم مروا باكواب القهوة. هباش لايستطيع أن يرى بوضوح. سمعه طنين فقط وصداع حاد. جاء رجل، استطاع ان يتبين أنه من يظهرون في التلفزيون. يتحدث بهدوء، ومن الكلمات التي استطاع أن يلتقطها، إكثاره من الصلاة على النبي. سوف يعرف بعد أن هذه حصة ارشاد ديني.

كلبشوا يدهم ومدوا منها إلى ارجله. لم يتخيل هباش أنه سوف يلبس ما راه في آلافلام الامريكية. عصبوا عيونهم. عندما ازالوا القناع عرف بعضهم المكان. مر عليه كل المعتقلين. العش الكبير. مبنى موقف شندي. يرتجف عندما يذكرونه، لكنه مضروباً، مهاناً، منهكاً، جائعاً، عطشاً ولايحس بركبته ولا يسمع عرف انه قد انتصر. حتى لو قتلوه، فقد هزموا جسده ولكن روحه كانت حرة...حرة...حرة.

فكوا كلابشات اليدين والقدمين، ازالوا العصبة. ادخلوه لغرفة بها شخصان، امامهما ما يدل أنهما اطباء. سحبوا دماً، ثم ارقدوه على السرير وفحص أحدهم قدمه. أعطاه بعض الادوية وكتب على الظرف الصغير كيفية الاستعمال. ادخل غرفة اخرى للتحقيق وبدات اسئلة لاتنتهي. كان يرد كالآله. في كل مرة يصرخ فيه: **ركز معاي**. لم يكن يستطيع التركيز.

خلعوا ملابسهم. وكانت كشافات ضوئية تواجههم، تؤلم عيونهم وحرارتها لافحة. تركوهم هناك لبعض الوقت، رشوهم بالماء. سمعهم ينادون: **ابوسلك، ابو سيخه**. كان يعرف ماذا تعني هذه. سمع من قبل أن طلاب دارفور والمنتمين للحركات المسلحة يصعقون بالكهرباء وتدخل السيخة في مؤخراتهم. سوف تبدأ **"الخرطشة"**. تمر عليهم الخراطيش الجلدية السميكة على جلودهم وتترك جروحها عليهم. يتصاعد الغضب والتوتر عليه. نهض واقفاً: **بس كده. اضرب. دي آخر حاجه**. هاجوا وجحظت عيونهم وهم يشتمون ويصرخون.

شهادة الطالبة سمية خميس التي قضت (11) يوماً في الاعتقال، وحول ما تعرضت له هي شخصياً داخل المعتقل وكيف تم إطلاق سراحها، فقالت انها تعرضت للضرب مبرح أثناء التحقيق وان أحدهم ضربها بقبضة اليد في بطنها أكثر من مرة مما تسبب لها بآلم حادة ما زالت تعاني منها حتى الآن، وتضيف انها تعرضت أيضا لضرب بعصى كهربائية في يدي اليسرى وتم تهديدي بسيخة مدببة وان أحد افراد الامن قال لها انه سيدخل المدية في عينها ان ذلك سبب لها رعب شديد. وتقول ان ضابط الامن كان يطالبهن ان يعترفن بالانتماء للحركات الدارفورية المسلحة وعن توجهاتهن السياسية وانهم ظلوا يرددون الأسئلة بطرق مختلفة. كانوا يقولون أنهم يعلمون أننا ننتمي الى حركات دارفورية مسلحة والحركات تدعمنا لإحداث فوضى وبلبلة في الداخليات. ومضت سمية في حديثها تقول (في التحقيق كان هناك قصد بإستفزازنا واتهمونا باننا نمارس الدعارة في الداخليات وحواء تديرها وتحضر لنا الرجال وهددني أحدهم بانه سيجري لي فحص للعذرية فتحديته بأن نذهب للمستشفى ونجري الفحص فورا فسكت.

جيفارا مقعي على نفسه وهو يتلقى الضربات. ضربوه بخرطوش مقوي بشكل قاسي. الدماء تغطيه وهو عارى. لسعات الهواء والبرد تزيد من آلامه. اقترب منه أحدهم ليرفعه: **خليك بعيد مني انا عندي مرض ممكن يأذيك**. **قوم يا باطل. اضربني وانت بعيد**. توقف عن ضربه وسأل بنهرة: **عندك شنو؟؟. مرض ممكن يأذيك**. حملوه وادخلوه للداخل. بعد ذاك خففوا من ضرباتهم وبعد قليل توقفوا وامرونا بالدخول. في اليوم التالي، قبل حضور العاملين، سوف يحضر اضخمهم واكثرهم شراسة ويعتذر لجيفارا.

أعطوهم علب طحنية فارغة، واكواب زبادي لتناول الشاي. لاسبوع كامل بدأوا في التحقيق المستمر معهم، مرتين وثلاث يومياً. توقفوا عن التعذيب الجسدي. يعطوهم اربعة ارغفة ووجبات لا تغني. هذا الاسبوع من اجمل الأيام. يتحاورون ويتحدثون، أحياناً يغنون. ظهرت أعنية "بلبلة" التي قيلت تعليقاً على أحد مسئولي النظام، على أن قرفنا كانت تريد أحداث بلبلة في المولد النبوي. من مرحلة التخزين سوف يطلقون سراحهم. ومن نفس المكان الذي يبدوا كمعسكر جيش سوف يحققون معه. جعلوه يوقع على استلام عهدته الشخصية: **اتأكد من حاجاتك عشان ما تطلع تقول نحنا حرامية**. اعطوه نقوداً للامجاد.

المتحري

اكملت الأيام الثلاث ولم اكمل حديثي مع ابراهيم. قال ضاحكاً: **عندما تدخل قرية ودع الخصوصية.** اتصل بداريا والخيار أن يذهب معي للخرطوم او تحضر داريا. اتضح لي من المحادثة أن داريا عندما قالت أن من الافضل أن تحضر هي، لمشقة السفر عليه. اصر أن يذهب معي. قال لىّ أن داريا قصدت أن تستفزه: **العجيبه أنا كل مرة بعمل العايزاه.** لم يكن صادقاً أنه يستفز لكنه يحبها بعمق.

دخلت منزل داريا اخيراً. جائني عطرها. رحبت بي في الباب وادخلتنا لصالونها الجميل. على الجدران صورتان كبيرتان لشابين في مقتبل العمر، عليهما خيوط سوداء، كانت تتشح بالاسود وتوب ابيض ناصع عادي. كنت موعوداً برؤية ما اظنه اكثر لحظات حياتي تاثيراً، حين حضنته بحب شديد وفرحة عارمة. تبادلا التحيات، السلام والاطمئنان لوقت ظننه طويلاً، فتنحنحت فانتبها وضحكت بعذوبة.

كل شيء جاهز، اكواب عصير الليمون بالنعناع الباردة مع قطع الثلج، اكواب الشاي وكنكة مزركشة للقهوة، افتقدها ابراهيم في جلستنا عند تلة النهر. شربها بسرعة، جعلتها تعلق قلقة، وقبل ان يعلق قالت مسرعة: **الحمام الحمام.** جلست قبالتي وسألت: **نبدأ من وين؟**

تمطي، بسمل، حوقل وتنحنح وطقطق اصابعه وقام على الحنفية ليتوضأ، وجد ماءاً كدراً قليلاً، فآثرالماء من البرميل المليء من الامس. الانباء تتناقل منذ شهور حول نية الحكومة في زيادة اسعار مشتقات الوقود. مثلما تعود من الحكومات المتعاقبة على الوطن، فهي تطلق بالونات الاختبار وتصرح، تنفي، تعيد وتكرر لكنها دائماً تنفذ ما تريد، إلا إذا!.

بري، التي تقع في الضاحية الشرقية من الخرطوم والتي يحدها النيل الأزرق من الشرق والشمال، والمطار من الغرب وحي الرياض والمنشية من الجنوب، هادئة من الصباح. الشباب قد سهروا ليلهم وهم يتابعون التحركات ودمدني. رياح شمالية دافئة مائلة للبرودة تجيء في موجات وقد رحل الخريف، سوى من مطرتين خفيفتين، عضدت من الذين يقولون أنها نشفت البلد حتى المطر.

داود إبراهيم عبد الحميد علي داود، الذي سكن في امتداد ناصر مع والده، الذي جاء للإستقرار وشيد منزله منذ الستينات. **انا كنت ساكن عزابي في بيت العمده بخيت، عمدة بري، لما وزعوا امتداد ناصر قال لي قدم، قدمت ادوني قطعة.** صحي منذ الصباح، وقبل ان يفعل أي شيء، فتح موبايله وقرأ اخبار التحركات. كانت قد انتشرت في المواقع المختلفة دعوات لتحركات في العاصمة.

شوكت قد صحي هو الآخر واستحم ويشرب في الشاي مع داريا. شوكت يقيم معنا في المنزل للدراسة في الجامعة، وهو أبن داريا الصغيرة بت داود عمر داود، التي تسكن بورتسودان مع زوجها سامي ابور.

نيل بري قد بدأ في الارتفاع، تُسَوَدُ مياهه، وعشب يطفو فوق جبينه. الشباب الذين قد اشتركوا في

تحركات يونيو- يوليو 2012، التي دخلت في قواميسنا اليومية بجمعات لحس الكوع، الكنداكة ودارفور، متحفزون ويرون أنها كشفت كما قال شوكت عن ضعف تجربة شديد، **لكن يا أبوي والله خوفناهم عديل.**

تمت إحالته للصالح العام، بعد سنتين من الإنقلاب. سوف تتولى داريا الصرف على المنزل تلك الفترة. تعمل مديرة قسم في رئاسة التعليم، وتم تصفية كل زملائها ووجدت نفسها وسط مجموعة لم تراهم من قبل، جاءوا من الاغتراب، المدارس الخاصة، وبعضهم من وظائف ليس لها علاقة. بشكل ما تم الاحتفاظ بها في وظيفتها، وسوف تكون من قليلات تركوا حتى وصلوا المعاش من الخدمة. لم يلزم المنزل، لكن اصبح وهو يحمل دكتوراة في الكيمياء الحيوية يدرس العلوم في المدارس الثانوية الخاصة.

عندما كانا يسيران للباب، نادتهم وأخبرتهم أن ينتظرا الفطور. عندما جلسا وهما يتحدثان بحماس، نظرت لهم بحب، لاحظها شوكت، فقال ضاحكاً: **يمه داريا ما عايزانا نمرق**. شوكت الذي اخذ من شبهها الكثير، ورثه من والدته داريا الصغيرة التي اسموها لأنها الخالق الناطق منها، اخذت منها لونها، ضحكتها وحتى تقاطيع جسمها، اطول واكثر نحافة، صفات قالت أنها ورثتها من والدتها روضة بت أبور الجنوبية.

كان شوكت شاباً ذكياً، احضرته داريا الصغيرة بعد المرحلة الاعدادية، لضعف المدارس الثانوية في بورتسودان. امضت معنا طوال شهر حتى اطمئنت أنه اندمج مع افراد اسرتنا. كان شوكت، غير ذكائه الشديد، صبياً نشيطاً دائب الحركة، هو من سوف يجعل داود يهتم بالرياضة، بل سوف يشتركان في اشبال نادي بري لفترة، يعلمه السباحة في نيل بري وبعدها سوف يذهبان للسباحة في مسبح جامعة الخرطوم. مهارات شوكت كانت في قدرته الفائقة على كسب الاصدقاء، ورغم أن داود كان مثله، لكنه منتشر بشدة. في سنوات الثانوية، رأينا لأول مرة فتيات يدخلن المنزل كصديقات للابناء واغلبهم لشوكت. وقد حكت لي داريا أن داود يعتقد أن شوكت يحب ثلاث فتيات في وقت واحد.

عندما قرر جدنا الاكبر توسيع تجارته ووزع أولاده، ذهب عمر داود لجوبا والحسن داود لنيالا. مع موت الحاج وتباعد المسافات، تم الاتفاق بين الابناء على تقسيم التجارة بينهم، تمت بعض التسويات وتقسموا. تزوج عمر من بنت عمه، التي لم تلد له، اخبرهم في تلك الزيارة أنه تزوج من جنوبية. تكبر الاسرة وتتفرق بها السبل.

العلاقة بين الاخوين في جوبا ونيالا اكثر استمراراً، على الاقل تجارياً، خاصة بعد افتتاح خط سكك حديد بابنوسة – واو. عمر يرسل من الجنوب الشاي والقهوة الكينية والاخشاب وغيرها، والحسن يرسل من دارفور التمباك، الدخن، الشطة والزيوت. حضر داود بن عمر في سيرة عن طريق الخرطوم، ومعهم ذهبنا جميعاً عن طريق القطار لنيالا، ليتم زواجه من بنت عمه عائشة بت الحسن داود.

اخو روضة بت أبور زوجة عمر، ساعد عمر الايمن تزوج قريبة له وانجب سامي، الذي ربطته علاقة حب مع داريا الصغيره ابنة داود وعائشة، وحكت لنا داريا الصغيرة أن هذه كادت تؤدي

لكارثة، ورفض من والدهاً. كنا قد لعبنا دوراً أنا وداريا في اقناع جدنا الحسن، اخوان واخوات عائشة. رغم ذلك رفضوا حضور الزواج، فتم تأجيله واخذت المشاورات خمس سنين كاملة. لكن داريا الصغيرة التي ورثت عناد اجدادها فرضت رأيها وتزوجا في الخرطوم في نهاية الثمانينات.

مع بداية حرب الجنوب في الثمانينات، انتقل عمر، أبناءه واحفاده جميعاً ونقلوا عملهم لبورتسودان وقال في هذا: **بلدكم زحمه والناس اتقسموها ما خلوا شيء**. ارسل لنا سامي ابور الذي كان قد اصبح شريكاً في تجارة الاسرة، سيارته لنحضر سماية ابنهم الأول وكنا قد تزوجنا داريا وانا وانجبنا داود وزهرة.

خرجا معاً، واصرت عليهما داريا أن يتأكدا أن موبايلاتهم مشحونة. يسمعان أصوات هتافات عالية، ابينا، وتجيء الرائحة النفاذة للبمبان مع النسمات الشتوية العجلى. قال داود وصوته منفعل: **داريا اصلوا نحنا ماشين الحرب.** ردت ضاحكه: **عارفاك ما حتطمني، شوكت لو ضربت ليك رد علىّ، ما تبقي غتيت زي اخوك**. قال وهو يخرج: **مسجات كأنك معانا.**

خمشة دلدوم

لم يكن مجرد أحساس. عربات غريبة عن الحي بدأت التواجد حول المنزل. لاحظت بت الباشا وجود هذه العربات، وأخبرها دلدوم أن هناك من يتصلون به من تليفونات بلا ارقام ويهددوه ويشتمونه. ولان بت الباشا لم تكن امرأة عادية فقد بدأت الاتصالات بأهلها في الجيش، الامن والشرطة. الاتصالات تهدده بقتل أهل قريته في الجبال، اغلاق دكان الوالد وهكذا.

عند حضوره أحد السمايات اتصلوا به من الحلة. **فيه مظاهرات في جامع الانصار، عايزين نعمل مظاهرة.** عندما وصل كانوا تسعة أشخاص. حملوا اللستك واشعلوه، جلبوه الطوب وزاد عددهم لقرابه المائة. جاءت ثلاث عربات شرطة ولأنهم يعرفون مداخل ومخارج الحي فقد منعوهم من الوصول للحي, ظهرت عربتا امن، يحملون العصى الكهربائية. استمرت مظاهرتهم ست ساعات سيطروا فيها على الحي.

عندما دعوه لجمعة لحس الكوع في مسجد الانصار بودنوباوي، اعترضت رباب بشده. **المكان مقفول، وبعدين هدفنا نتعب الامن ونزهجه.** دار نقاش طويل تحت شجرة بت الباشا. دعت قرفنا الكبيرة كل اعضائها للمساهمة في المظاهرات بعد صلاة الجمعة. دارت نقاشات كثيرة أن الانصار سيشاركون، وأن هذه اضافة كبيرة، بعضهم يرى أن الانصار يريدون "دفرة" حتي يشاركوا. شاركوا جميعاً في جمعات الكتاحة، حوصروا داخل الجامع، خنقتهم الادخنة وضربوهم بالعصي والهراوات. سوف يعرفون بعد فوات الاوان أن رباب كانت بعيدة النظر.

لم ير أي منهم العربة التاتشر التي اقتربت بهدوء. فجاءة سوف يسلط عليه ضوء السيارة. قبل أن يتمالك نفسه من الضوء اللامع، قفز عشرة والتقطوه، رفعوه والقوا به في العربة. إنطلقوا واربعة منهم يضغطون على ظهره بالبوت. البسوه قناعاً وبدأوا في ضربه ببوتاتهم. زخات من مطر كثيف تنهال على ظهره، عنقه ومؤخرته. وجهه ملتصق بالارضية الصلبة بفعل بوت يطبق عليه.

بدأت يشعر بالدم يندفع من انفه، ومن جرح في مقدم رأسه من جراء القائه في العربة. يحاول أن يعرف من حديثهم اين يريدون الذهاب به. وصلوا لمكان ما اخيراً. يستطيع أن يرى من خلال القناع الذي لم يكن موضوعاً كاملاً المكان. كانوا يدفعونه وهم يسخرون. **نوباوي معفن. انت خدام عند ستك.** بت الباشا قالت له وهي ربما تحضره لهذه اللحظات: **كل ما يحاولوا يقولوا أي شيء اتذكر انت ولدي وانا امك.**

ادخلوه لقاعة استقبال بها تربيزة وكراسي ومجموعة من الرجال. قال أحدهم: **ده خلوه براهو. عايزين نأدبه قبال ما يفكوه.** يعلم أن بت الباشا لن تسكت حتى يفرجوا عنه. سوف تذهب لكل مكان، لمحمد عطا وكافوري. لن تنام قبل أن يطلقوا سراحه. حذره عثمان هباش: **هم عارفين بيت الباشا ما حتخليك. عشان كده حيعذبوك بقسوه شديده في وكت قصير. الله يعينك، بس اتذكر حيكون لوكت قصير.**

اجلسوه على الارضية ورفعوا يديه وفرقوا ارجله. الجلسة مؤلمة بشكل لايطاق. **إنت مالك وشغل أولاد العرب ياكلب.** ضربه أحدهم **"السودان قفل"** ثم جذبه من ذقنه وهو يهدد، رأي أنه ربما يكون

نوباوياً مثله. رغم أنهم حذروه من إستفزازهم، لكنه لم يستطع منع نفسه: **هسه انت فرقك مني شنو؟.** عندما ضحكوا عليه من تعليقه، جن جنونه وبدأ في سلسلة من السودان قفل، حتى اوقفه أحدهم وهو يقول له: **ما قالوا تكتلوه.** لم يتوقفوا عن الضرب باليد والارجل.

سحبوه. فقد سمعه تماماً، ولا يرى جيداً. وجده نفسه في نجيل وكشافات شديدة الضوء مسلطة عليه. نادى أحدهم على اخرين لبدء **"الخرطشة"**. عثمان قال له أن يسترخي بقدر ما يقدر عند الخرطشة. عصبوا عيناه بشكل جيد. بدأوا الضرب المباشر بخراطيم المياه والأسلاك المعدنية**.** حاول ارخاء نفسه، لكن كان مؤلماً وجنونياً.

اللواء جا اللواء جا. تصاعدت الصيحات. نقل لغرفة فارغة، باردة وضيقة. فتح الباب. **دلدوم كيفك؟.** رفع رأسه وصاح فيه: **يعني حاكون كيف ياكلاب.** ابتسم وقال لمرافقيه. **ادوه شاي وفطور ولبسوه هدومه.** جاء أحدهم وضربني على جانب كليتي. **قوم راقد زي الباطل.** اعطوه مجموعة أوراق كثيرة وطلب منه ملئها. كانت المعلومات المطلوبة كثيرة ومتنوعة عن الإسم، الهوية السياسية والجنس، أسماء الاخوان الاخوات الخالات والعمات، الاصدقاء ومكان السكن وعشرات المعلومات. صوروه، أخذوا بصماته ووقع على الأوراق

الشمس فوق رأسه، جالساً على بلاط. يدات مقيدتان وراء ظهره. معصوب العين. يشعر بثقل في كل جسده، كل جسده يؤلمه. ركبتاه قد فقدا أحساسهما، واليدان كأن دفقات من الصعقات تمر عبرهما حتى عقلات الاصابع. الحرارة لاهبة على الوجه وعلى الاقدام. الساعات مقيدة في الرحيل وتمر عليه كالدهر. يسمع أصوات صرخات، انين ونشيج ولعنات متبادلة. بين الحين والآخر يقترب منه شخص ويلكمه وهو يصيح: **قنب كويس.** او آخر يخبطه بخرطوش ويشتم: **والله اهلك الخوارج حنهلكم وندمرهم.**

عندما غابت الشمس اطلقوا القيود من يديه. ازالوا منه العصابة. جاء شخصان، أحدهما الذي اتهمه بأنه نوباوي وامروه بالجري. عندما يمر من أمامهم، يوقفوه ويصفعون ويضربون بالشلوت. انضم اليهم ثالث وهو يحمل عصا كهربائية وبدأ يضرب بها. صعقته العصا، فسقط غير قادر على الحراك. بدأوا في ضربت بارجلهم. رقد وهو يحمي وجهه وهم يحاولون ضربه عليه. الدماء قد بدأت في النزف من انفه بغزارة. لكمه في الانف وهو يقول: **بختك دمك احمر زي أولاد العرب.**

قال أحدهم**: عايزين نخصيه عشان ما يملوا البلد عبيد معفنين.** توجه نحوه وهو يستهدفه. امسك به آخر: **اللواء قال نعذبه شديد، بس ما نآذيه. خلاص خلي ابو سلكه يضوقوا شوية كهربا.** ادخلوه الغرفة وقد دلقوا فيها ماءاً بارداً، المكيف بارد جداً. القوه في الداخل وبدأوا في دلق الماء البارد بين حين وآخر. سوف يسحبوه للخارج وينهالون عليه بكل قوتهم. فقد أي أحساس بالزمن، او الالم.

رأي الزنزانة عندما دفعوه إليها. زنزانات في ممر صغير، صغيرة وضيقة ووسخة. مغلقة بباب حديدي سميك فيه فتحة صغيرة لإدخال الطعام وإلقاء الأوامر. عندما تغلق الفتحة يسود ظلام دامس كثيف. هباش حذره من هذه التجربة. **حاول تغمض عيونك وفكر في شيء تاني.**

فتح بيرقدار الباب ودخل دلدوم. من غرفته تتصاعد أغنية لايسمعها، لايحس بها ولا يطرب لها إلا عند غرفته. أغنية أخذت من وقته مع رباب الكثير. سوف يتعمد أن يغنيها عندما يكونان بمفردهما، وتضحك هي بدلع وتظهر الضيق. كانت رنتها وكانت رنة موبايله المسجل بأسمها. بيرقدار لديه ذوق رفيع في الملابس، العطور، والأغنيات. كل مختاراته تعجبهم جميعاً، وكل واحدة منها له معها قصة، لايملون أن يستمعوا إليها فهو قادر على أن يحكيها ولا تحس أنك تعرفها إلا عندما تنتهي.

الأغنية عند بيرقدار او البير كما تطلق عليه رباب، أغنيات. فكل أغنياته، الواحدة منها مسجلة بأصوات عدد من الفنانين المشهورين. حتى ود مليط والذي يسافر كثيراً، وأحد مراجعهم في الأغاني السودانية، بإنواعها من كل اطراف الوطن، الاغنيات المصرية، الخليجية والغربية اعترف بذوق البير الرفيع، بعد لأي وملاواة شديدة وحصرها في الملابس، العطور، شاركهما في تأثيث غرفهم اما الأغاني فقد انفرد ود مليط بها باعتبار بيرقدار جاهلاً في الأغنية الدارفورية، الكردفانية وأغاني الجانقي.

منزل رباب وأهلها جيران منزلهم وعندما وعي دلدوم للدنيا وجد رباب بجواره. معظم وقتها في منزلهم، حتى أنها أسمت بت الباشا، يمه نفيسة. السرة والدتها في منزلهم أغلب الاوقات. منذ صغره عرف دلدوم مشاكل أهل رباب، التي كان والدها قد طردته الحكومة من عملها، ما أطلق عليه الصالح العام. تحرص بت الباشا أن تعطي كل منهما نقوداً عندما توجد معهم، سوف تشتري لها ملابس العيد كما تشتريها له. رغم أن دلدوم لديه اخوان واخوات، صارت رباب اخته القريبة منه. خرجا كل صباح للروضة معاً، وسارا للمدرسة سوياً، عادا منها قفزاً وجرياً، تغديا معاً قي منزله او منزلها، لافرق.

الخريف يتأهب للرحيل وقد ترك شتاءاً لم يأت وصيفاً متقداً وسبتمبر 2013 يسرع الخطى. طوال حياتهما معاً، تناقشا في المسألة مئات المرات. ترى رباب فتاة وترشحها ويعود النقاش. دلدوم ورغم امومة بت الباشا يدرك مدى المصاعب التي تعترض طريق علاقته مع بنات الشمال. عندما سأل رباب ذات يوم، وهما منهمكان في حوار مماثل، لو أنها كانت تجرؤ على هذه المخاطرة، انفجرت بالبكاء وطال خصامها لمدة اسبوع.

لأول مرة بعد ازمة اختياره ممثلاً لقرفنا هباش مع الحركة الشعبية، جلست معه بت الباشا وحادثته طويلاً عن التاريخ، الجغرافيا، التقاليد. عندما تحدثت بت الباشا أحس دلدوم بثقل القيود التي تثقل كاهله. نشأ في وسط لم يبد أي مشاعر سلبية نحوه، إلا قليلاً، لكنه رغم ذلك أحس أنه في مدينه وسيعة وسجن ضيق. اخبرته أن رباب أحبته منذ وقت طويل وكانت تأمل أن يتقدم خطوة نحوها، لكنه استغرقها في مناقشات عرفت منها أنه لن يقدم على تلك الخطوة مهما فعلت. **بالمناسبه حتى السرة وابوها سألوني هل انت عندك النية.**

دلدوم فضل أن يحتفظ بصداقة رباب التي كانت حباً من نوع آخر فريد وملهم. هي مستودع اسراره وهو كذلك، حتى عندما جاءها الدم لأول مرة حدثته، وكان لايعرف عنها شيئاً، فحدث بت الباشا التي تولت المسألة بحصافتها المعهودة. هي أول من لاحظ بداية منبت شنبه وذقنه

وضحكت عليه وغاظته. رباب هي التي حدثت نفيسة عن اطواره الغريبة عند محنه المخدرات، وظلت بجانبه، وصحبته إلى العيادة كل مرة. بعد أن تصالحا من حوارهم حول قبوله، صمم دلدوم أنه لن يتورط في علاقة ينظر لها أي طرف فيها أنها غير متكافئة. سوف يغير السودان، لكنه سيخضع لشروط الزمن ولن يتخطاها. عندما التقى ود مليط في أحد ساحات التعذيب وتعارفا، ومن احاديثهما في اللقاءات اللاحقة عرف انهما لديهما نفس الافكار.

أتصل بود مليط ليفاتحه ووجده في دبي مع الصفية، وأخبره أن ينتظر قدومه بعد يومين، او أن يخبره في التليفون، لكنه لم يكن قادراً على الصبر والموضوع اكبر من التليفونات. اقترح عليه أن يحادث صديقهما خالد صلاح فوجد هاتفه مغلقاً. هذه المسألة الوحيدة التي لا يستطيع أن يحادث فيها رباب لئلا ينكأ الجراح، فشد رحاله للبير. رغم علاقته الوطيدة برباب لم يحدث أن تحدث مع البير حولها، احترم صمته في عدم السماح لأحد بالحديث عن علاقتهما، واكتفى دلدوم بنقاشها مع رباب بكثافة وتواصل.

لم يكن دلدوم بعيداً عن العمل العام. بت الباشا في مجال العمل النسائي لعقود. ويذهب معها للاجتماعات والندوات. اثناء الفترة الانتقالية داوم على اروقة الحركة الشعبية، يحضر ندواتها ويساهم في كل فعالياتها. حتى عندما انشأوا قرفنا كان هو صلة مجموعتهم مع الحركة. عندما اتصل به هباش وأعطاه البيان، وقرأه مع رباب، أحسا انهما قد وجدا المنصة التي كانوا يبحثون عنها. كل التنظيمات والاحزاب كانت مغلقة، لا تأبه برأي اعضائها، كما كان اعضائها يتشكون. قرفنا خط سياسي يعكس في صفحتها الرسمية وبعدها على كل شخص أن يحقق هذا الخط وسط بيئتهم.

فتح الباب. لايكاد يرى من تعوده على الظلام. ادخله الشخص لمكتب عريض وفخم. سأله عن كل المعلومات التي كان قد كتبها. عندما رأى أنه كتب سوداني امام قبيلته نظر له بسخرية: **خجلان من نوباوي.**

عندما جاءت داريا البارحة لزيارة نفيسة رأى روضة. حدثته بت الباشا عنها عندما علمت بوصولها من بورتسودان لزيارة اخاها شوكت وعائلة داريا. تعلم بت الباشا عن افكاره وحتى لو لم يحدثها. اخبرته أن روضة جدها خليط شمالي وجنوبي، والدتها داريا الصغيرة من هذا الخليط ووالدها جنوبي. روضة قطر ندي جالس على حبل نور وافراح، قادرة من مجلسها أن تورق أيامه. ادخلت بت الباشا داريا المطبخ معها لتتيح له محادثتها برفق. روضة تشهّى الطفوله فيها، وصوتها ينقطه له المطر وكالأشجار والأشعار ينهمر. في عينيها شيء يداعبه وهو منذ زمان بعيد ينتظر.

احتجزت بت الباشا داريا وروضة لخمس ساعات، جال في حياتها وأبحر، شرق وغرب. صعدت اعوامه وهبطت منذ رحلة عوض كوكو من الجبال وحتى ذلك النهار السبتمبري الحار. اختلفا واتفقا، تحادثا وتجادلا، ضحكا وصمتا ولكن نسجا من خيوط اللحظات وشائج المودة. طول عمره في إنتظار أن تدفع روضة بابه وتستقر في الفؤاد. عندما مدت يدها مودعة وهي تنوي السفر غداً عائدة، علم أن هذه البداية فقط

يا ناس احبه واحب اسمع سواليفه
صوته يشتت هموم عايش فيها
يامر وينهي وانا دايم على كيفه
ارجي ورود الهوى تنبت بأراضيها

ترددت الأعنية بصوت آخر نسائي قال عنها البير أنها لفنانة تونسية، ربما ستكون أغنيته المفضلة. ردد دلدوم الاعنية والبير ينظر وفي عينيه الاسئلة.

دارت الأسئلة واستدارت حول نفس الاشياء. سألوه عن كل اصدقائت وخاصة رباب. افضل ما في قرفنا أنهم لايملكون معلومات كثيرة. هو عمل عام يشترك فيه افراد متعددون وهم من يقومون بالفعل. كان يسأل ويعود لرباب وقد أصر أنهم يعرفون بعضهم منذ الطفولة، اشتركوا في قرفنا ويقرأون عن الفعاليات في صفحتها ويشاركون في الفعاليات.

قال له أن رباب تعمل معهم ومدتهم بمعلومات عنهم جميعاً. وقال له معلومات دقيقة عنها. انتقل بعدها لنيتهم اتهامه أنه جاسوس للحركة الشعبية، قطاع الشمال. إنه يتصل بعبد العزيز الحلو عن طريق الايميل ويرسل لهم معلومات عن الجيش. ثم قال بتهذيب شديد: **نحنا عارفين انت ما عندك مشكلة مادية، ابوك غنيان وبت الباشا اغنى، لكن انت امدرماني والوطن بيناديك، البلد بتتعرض لمؤامرات كبيره.**

يعرف أن بت الباشا "تنكش" فيهم، ترشي من يرتشي، تهدد من يخاف وتجعل حياتهم جحيماً. يعلم من هباش أن مراحل التحقيق تعني أنه قد قارب على الانتهاء. اخذوه لمكتب آخر. مع دخوله صفعه أحد الواقفين. قام الضابط من كرسيه. اكثر شخص رأيته ضخامة، كرش كبير وارداف ممتلئة. استغرب كيف تم استيعابه في جهاز امني**!. شوف يا كلب يا جربوع، نحنا حنرميك في السجن عمرك كله..يا عميل ..يا جاسوس.**

لكزه من اسموه نافخ الكير، ثم صفعه على وجهه. رفع ذقنه ثم ضرب رأسه من اعلى وجعل ذقنه ترتطم بالصدر. شعر بانفاسه تنقطع منه، استند على المكتب، فضربت بقلم يحمله حتى اخترقها. **من هنا حنوديك للمحكمة وهي جاهزة تديك مؤبد طوالي.** سأله نفس الأسئلة واتهمه بنفس الاتهامات. سأل عن رباب وقال أنها معتقلة الأن وان الجماعة يتمتعون بها.

لم يكن في حال تسمح له باي تفاعل مما يقال، لكنه عندما سمعه وهو يوجه اقذع الالفاظ لرباب، صرخ: **أخجل ممكن ترضى ده يتقال على اختك**. بهتوا جميعاً وصمتوا في انتظار الضابط. اشار بيده أن يأخذوه. في الطريق للزنزانة قال من يقوده: **باين زعلت الضابط منك، اضبط اعصابك شويه**. الذي اصم اذناه بالسودان قفل، ينصحه بالهدوء. بعد ساعات نقلوه للسجن وفي الصباح اطلقوا سراحه.

وجد بت الباشا في انتظاره. سألها وهي تحضنه: **رباب اعتقلوها؟** وطمأنته أن هذا لم يحدث وانها تنتظر في السيارة مع بيرقدار. في المنزل وجد الشلة جميعها، ونونا التي لم تخبرها بت الباشا إلا عندما اخبروها بأطلاق سراحه اليوم. همس لي هباش: **إنت موقوف من أي نشاط لمدة سته شهور.** اجابه أنه يحتاج سته شهور نوم على الاقل.

في تلك الليلة قالت له بت الباشا أنها رتبت للسفر للقاهرة لكي يذهبا للتأهيل النفسي في مركز النديم. ناقشها أن اعتقاله يعد بسيطاً وسريعاً بفضلها، أنه سيتجاوز هذه بمساندتها، عوض كوكو، نونا واصدقائه. عندما قال لها: **يا نفيسه انتي مركز النديم بتاعي**، رأى بت الباشا، الكنداكة كما سموها، لأول مرة في حياته، تروح في بكاء حار، ونشيج مر. يعلم دلدوم عوض كوكو أنه رغم كل الاوجاع الحادة التي تنهك جسده كان فخراً لهم جميعاً وأنه حر....حر....حر.

عبك الجسارة

المظاهرة ضخمة. اكبر تجمع لبشر يراهم **خالد صلاح** في مكان واحد. كل الاصدقاء جاءوا. جاء **ود مليط** من الخرطوم، قال أن قلبه معلق ببقعة الامام. تحركوا من ثورات امدرمان، شقوا شوارع الهجرة انضم لهم شباب من أزقة ابو روف، الدومة، بيت المال توجهوا لشارع الشهداء. لم تتعرض لهم أي قوات. ساروا عبر المستشفى إلى شارع العرضة والتفوا لشارع الاربعين. عندها رأوا القوات وهي تتجمع بجوار المحلية.

خرجا سوياً، **داود وشوكت**، وهما يسمعان أصوات الهتافات المتصاعدة: حرية، عدالة سلم، الثورة. خيار الشعب، يوم الثلاثاء 24 سبتمبر 2013. توجه داود إلى المظاهرة فوراً في شارع النص وقد تجمع المئات من الشباب يسدون الطريق من امامهم، توجه للامام وهو يحاول إرجاع المظاهرة إلى الإتجاه الآخر. رباب، دلدوم والبير التحقوا بهم، بعدما بعث برسالة طلب الدعم، لكثافة الضغط عليهم.

توجه **شوكت** إلى شمبات برفقة عدد من الشباب، ووعود بالمناصرة من مناطق اخرى، لايقاف الهجمة الشرسة عليهم هناك. الرسائل تملأ الموبايل، تواصلت المظاهرات الحاشدة المناهضة ود مدني، كوستي، نيالا، ود الحداد، سنار، المناقل، الحيصاحيصا، الفاشر وأم ضواً بان. بينها وجد رسالة داريا، فيرد مسرعاً، ولاتتركه ترسل آخراً: **خليك حريص، اخوك معاك**، فيرد، **جنبي**.

داود في بري آنذاك. تمني لو حضن داريا في ذلك الصباح وودعها. هو ووالدته وداريا يحملون نفس الملامح والطباع. كان يحبهم كوالدين، واخ لداود، زهرة وابوبكر. ربما حان الوقت ليترك إنفلاته ويرتبط بزهرة، صديقته المفضلة، كما تسمى نفسها.

يود لو كان داود بجانبه، يلهمه من شجاعته، الدخان يتصاعد والهتافات تتعالى. يحاصرونهم من اطراف الميدان، اشار له البعض أن يكونوا مجموعة كبيرة لكسر حاجز الحصار، يقدمونه دائماً، وهو المعروف بالجسارة في مثل هذه اللحظات. اغمي على فتاتين بقربه، توجه نحوهما وحملهما وأبعدهما من الدخان الكثيف. داريا الام الروؤم تتصل به، ويرد عليها برسالة: **كله تمام**.

تقرر أن نكون على الاقل ثلاثة أشخاص مع بعضينا، وقال أحد مدربينا أن افضل طريقة لعدم معرفة من الذي قتل، أن نستعمل طريقة فرقة الاعدام. ضحكت في سري باستهانه يريدوننا أن نقتل ولانعرف طلقة من أصابت الهدف. تناولنا غداءاً من أحد الفنادق وشربنا البارد واصبحنا جاهزين. ذهبنا كل مجموعة تعمل معاً لمراكزنا في انحاء العاصمة في انتظار الاوامر.

الأربعاء 25 مارس 2013، سقط شهداء كثر في كل الاحياء والمدن، صباحاً، عصراً ومساءاً. نبتوا في الحارات، الاحياء والازقة، حملوا قبضاتهم الغاضبه في كفوفهم وساروا بلا طرق، وراءاً، أو أماماً، جنوباً، أو شمالْ. مجموعات، يدافعون عن جدار يريدون أن يسترجعوه وهواء حرموا منه وحائط يفصلهم عن المستقبل. يركضون من مظاهرة لاخري، يستعجلون موعدهم. هرعوا من شارع لشارع يرجوهم أن يبقوا قليلاً.

الضغط شديد على امدرمان الثورات، بري، الجريف، شمبات. في جلستهم الليلية تحت شجرة بت

الباشا لاحظوا أن الديوم لم تخرج بعد. شوارع الديوم سهلة أن تصبح ملكهم، يمكن لبضعة افراد أن يقفلوا الشارع باطارات محترقة، وشوارعها الجانبية كثيرة وعميقة تسمح بالمناورة. يعرفون أن عليهم تشتيت قوتهم، وأن يشغلوا اعدائهم بانفسهم.

توجه **عثمان هباش** للديوم الشرقية منذ الصباح الباكر. هو ذاهب للقاء **نورس حمدان عبد الرسول** لأول مرة على الطبيعة. يلتقي خضرة البوداي، عطر الصندل المستني وحكاويها عن السهول الواسعة. اليوم تتحقق كل امنياته العذبة ويرى حبيب العمر الطويل. تذكر وهو في الحافلة، نهر كوستي العريض وكوبري الحديد، والاسواق المختلفة. يطل من الذاكرة المدخنة الكبيرة لمصنع ربك، وأصوات صفارات مصنع كنانه. بسملة وحوقلة والده، عم هباش كما اطلقوا عليه، بعد أن التصق الاسم به: **عثمان هباش**.

عندما نزل في محطته، وجد الشارع خالياً وهادئاً، عربات قليلة تمر وقد لزم الناس منازلهم في انتظار ما سيحدث. وجد مجموعة من الشباب هناك يتناولون الشاي باللقيمات، فاخذ نصيبه واحضروا له كمية اكبر وبعض الباسطة. وعندما رأوه يكثر من الاكل، اخبروه انهم يعدون في الفطور.

افتربت منه **نورس**. يحفظ تقاطيع وجهها القسيم، عيونها الذكية وكل شيء فيها يضحك حتى المسافة التي مشتها نحوه. صغرت الدنيا وانكمشت حتى تركتهم في غلالة تحتويهم فقط. قدمت له نفسها: **نورس**. يعرف نورس بالتلفون وليالي السهر الطويلة، وتلك أول مرة يراها فيها. تحدثا طوال اربعة اشهر يومياً. بدأت احاديثهم بالعمل، تبادل التجارب، افكار جديدة وهكذا. بدأت احاديثهم تطول وتطول وتطول. ينتهي من البوش، تناول الباسطة، احاديث تحت الشجره وبعدها يحويه الليل مع **نورس**. عندما ذات ليلة حكت له عن اسرتها وزميلات الجامعة، سالته بحياء: **ما داير تعرف شكلي كيف؟**. ضحك وهو يقول: **إنتي قايله سموني هباش ساي؟**. قال لها أن صورها تملأ موبايله.

عبك طيوبها قد تصاعد في الاجواء، كما فعلت ظبية في ليلة ساحرة في الفيافي البعيدة، وتخللته مسافرة على حفيف المسافات الوسيعة. عندما احتضنت يده يداها ضحكت عيونها الوسيعة، وترنح حاجباها الكثيفان، انفها المستدق وحتى يداها جزله. نورس قد سلبت الفؤاد وابحرت. تنظر له بحب وود. هو في انتظار هذا اليوم طول حياته. حتى وهم يضربون ويلعنون، ولم يكن قد التقاها بعد، ملأت خياله واستباحته، كائناً جميلاً ووادعاً لم يستبينه بعد.

عندما نامت يداه في يداها الناعمة ملك العالم وبدا كل شيء جميلاً. قالت وهي تضحك وعيونها براري متسعة من ألوان الطيف: **وجاهه يا هباش ما شفتها في حياتي. اها شكلي كيف لقيته؟.** هباش الذي اشتهر أنه لايغلبه الكلام زاغت منه الكلمات.

قالت له أنه سيذهب مع اثنين من الديوم للمايقوما والسجانة، ليتجمعوا في شارع الديم: **عايزين نغزر المظاهرة هنا ونخفف الضغط على بري وشمبات، قالوا الضغط عليهم شديد، وفيه شهداء كتار**، واردفت ضاحكه: **عايزين نستفيد من خبرتك يازعيم**. تلكأ **هباش** وتثاقل في الذهاب، كان يريد أن يملأ عيونه

منها. فهمت **نورس** وأشارت له أن يخرج معها. قالت وهي تميل عليه ليشم رائحة شعرها: **هباش انت قايلني بسيبك تاني، انته باقي عمري.**

من اجل **نورس** مستعد للذهاب لآخر الدنيا. عندما وصل المايقوما، وجد حوالي الثلثمائة شابة وشاب يريدون التحرك لشارع الحرية. اقنعهم بتوحيد المظاهرة في شارع الديوم. يهم أن تدخل الديوم المعركة في ذلك اليوم. وهم يسيرون رأوا تجمعاً ضخماً قادماً من شارع الشجرة. ظهر حوالي الالفين قادمين من الحله، القوز، الرميلة، جبره، الشجرة، وبعضهم جاء من الكلاكلة، الصالحة وجبل أولياء. تجمعوا وكان هذا كافياً للبدء. خرجوا ووقفوا في نقطة بها زقاقين على الجانبين، وضعوا الاطارات واشعلوا فيها النيران.

شم رائحة بنزين متصاعدة من هاندباق يحملها شاب ويحيط به اربع منهم، اقترب منهم وعرفهم بنفسي، سألهم مباشرة: **ده مولوتوف**. اجابه أحدهم بعدائية: أي، **الناس ديل كتلوا مننا بيقولوا اكتر من تمانين**. هو، **عثمان هباش**، يؤيد الفكرة، ويريد أن يفرتق حافلهم ويملأ سروجهم دم. لكنه تذكر ما قالته **نورس**: **اوعى تسمح بسيخ او مولوتوف نحنا حركة سلمية**. دار نقاش قصير اقتنع بعدها الشباب أن يتركوا الهندباق في منزل أحد الاصدقاء في المايقوما.

عندما بدت المجموعه تدخل شارع الديوم، لوحت له **نورس** وهي تبتسم. **نورس** الحنية في روح. لم يكن قد ظهروا بعد، عددهم الصغير غير مغري. أمتلا شارع الديوم بصنوف الناس، الذين في منازلهم ينتظرون، خرجوا، ركاب الحافلات عندما رأوا جمعهم ترجلوا وانضموا لهم، جاء شباب يحملون اللافتات، الاعلام، فتيات رفعن الطرح البرتقالية. جاءت ووقفت بقربه ومعها رفرفت عليه آلافراح. **نورس** عطر الصندل المستني وعبك الطيوب المزدحمة. عندما تحرك الجمع ذهاباً ومجيئاً في الشارع، امسك يدها وحضن اشواق أيامه.

جاءوا من امامهم، عربات بلا ارقام، يقفون في البعيد بلا حراك في انتظار أن يصلوهم. سحبت نورس هباش من يده، واسرعت حتى صاروا امام الجمع، اشارت بكلتا يداها واوقفتهم. ساد السكون فجاءة، قالت لمن كانوا في المقدمة: **ما تمشوا قدام، الحته الجاية حيزنقونا فيها عشان ما فيها شوارع جانبية**. استداروا وبدأنا المسير في الإتجاه المعاكس.

طول عمرها في انتظار **عثمان هباش**. عندما مرت عليها السنوات وهي تصد شباباً ورجال تعلق قلبهم بها. عندما تجوس عالم حمدان وتكتم حنينها للأراضي المنبسطة والمراعي الخضراء المندية، الليالي القمرية الصافية والنجوم الباسقة، تحس بالحرية التي افتقدها حمدان في هذه الشوارع الكئيبة والمنازل الضيقة. بين حين وآخر يطل عليها **هباش** في احلامها، يداعبها، يدغدغ مشاعرها وهي لم تعرفه بعد. في إنتظاره لتفرح به ويفرح بها، يغنون ويهزجون على جمالهم واحصنتهم، تزغرد النساء ويهمهمون ويضربون الارض بقوة وحماس. **هباش** حلمها الذي طيفه ورائها قبل أن تلتقيه، نوافذها جميعاً تفتح عليه.

عندما ساروا في الإتجاه المعاكس، بدأ الطابور من خلفهم في المسير تجاههم، ثم ظهرت العربات من امامهم مندفعة بسرعة جنونية من البعيد. حوصروا في الشارع وهناك زقاقات يمكن التوجه نحوها، صاحت فيهم **نورس**، وردد معها **هباش: اثبتوا يارجال اثبتوا**، فعادوا إلى الشارع. رأت

الفوهة وهي تدور من فوق العربة المركونة على الجنب من بعيد، عندما أحسست أنه يصوب عليها، سحبت **هباش** واحتميا بشجرة.

جاءؤا بلافتاتهم البرتقالية، البيضاء وقبضاتهم المغلقة. هتافات، ضجيج وأصوات. تجاوزوا محطة سنادة والقوات تتقدم من الناحية الشمالية. رأوا التاتشرات وهي تتقدم من ناحية الخور ببطء. فجاءة اسرعوا من الإتجاهين وبدأ إطلاق البمبان. غبار كثيف ورائحة الدخان الكريه يتصاعد. كانت التاتشر تركن في جانب الطريق. امتدت فوهة سوداء. دارت الفوهة مرة واخرى. **خالد صلاح** يحاول رش الماء على البمبان، يرى الفوهة ورأها **ود مليط**، توجه نحوه لجذبه إلى مدخل المنزل. عندما قارب الوصول إليه رأه يسقط. عندما جذبوه لأحد المنازل، دمائه تملأ الارض، جذبه وقال: **قول لرقية تعفي عني، وكلم أبوي ياخد بتاري.**

سمع **شوكت** في ذلك الحشد بإستشهاد هزاع عز الدين، قد بدأوا يشقون طريقهم للخروج من الميدان في إتجاه الشوارع الفرعية، رأى بعضهم يحاولون سحب الجثمان، عاد من ادراجه قاتل مع المجموعة لاستعادته، ووضعوه في العربة. اتصلت به داريا والمكان قد اصبح اكثر هدوءاً، لم ير **شوكت** الفوهة وهي تستدير، تركز عليه وتنظر لوجهه، تردد قليلاً. داريا، لم تسمع منه شيئاً، لكن وصل لاذنها الحادة السمع ارتطام جسم بجسم آخر، جاءها عبك طيوب في تلك اللحظة، سقطت وهي تصيح: **سجمي ولدي كتلوه.** عندما سقط شوكت بن داريا، وفيه بقية روح، سوف يسمعه من هب لنجدته: **ودوني لداريا.**

ملأ الدخان الكريه كل أرجاء المكان، أعطاها **عثمان هباش** بشكيرا مضمخاً بالخل والماء، فهدأت ولكنها اختنقت بالخل. يضغطون عليهم من الامام والخلف، يضربون بالهراوات بقسوة، ووجوهم مخفية بالخوذات، بعضهم ملثمون ويحملون الكلاش. الجمع يهتف ورائها: **سلمية، سلمية.** حانت منها التفاته فرأت الفوهة.

سوف يكونون ملثمين، عرباتهم بدون نمر، بنادقهم غير مسجله في أي مكان، ولن يسائل أي منهم. كانت الاوامر صريحة وواضحة كحد السكين: الضرب في المليان، رصاص حي: نحنا ما عايزين المتظاهرين يتجمعوا في مكان واحد. فرتقوهم وهم مظاهرات صغيرة. ما تكتروا في ضرب البنات.

ترتدي بلوزة برتقالية، لكن القبعة البرتقالية اعطته أحداثياتها بوضوح، هي قائد المجموعة، تشير لهم فيقفون، ويسود الصمت، تهتف فيرددون ورائها. رأها في المنظار وهي تحدق ناحيته، رأته واشارت لأحد الشباب حولها. سحب البندقية للداخل وانتظر. تشتتت انظارها بعيداً عنه، فصوب عليها واطلق النار.

نورس أمامه وتمسك بيده بقوة وثبات، وهي تنظم صفوف المحتجين الغاضبين. الجمع يستجيب لحركات يدها ولفتاتها. رأى هباش الفوهة فتوجه ناحيتها، رأى شرارة صفراء صغيرة ودخان اسود ينطلق من الفوهة، قفز بكل جسده وجاء من الامام وحماها بجسده، تمايلت بجسدها عليه، عبك طيوبها تتصاعد وتغمره ووضعت يداها حول عنقه وشعرها مرشوش على وجهه. سائل حار يغمر يداه الملتفة حولها. وجهها ساكن، وعيونها تفتح وتغمض، قالت وهي تحاول الابتسام:

خساره يا هباش، ثم سقطت علي جسده كلياً. ظنها قد داخت من البمبان، فجذبها نحو الزقاق، فسجت هناك بلا حراك.

نورس بداية العمر الجميل ترقد بين احضانه لأول مرة وآخر مرة. حملها على كتفه، وتحرك بها. رأوه وهو يصرخ ويهتف، اطلقوا عليه الرصاص في يده، تشبث بها، اطلقوا مرة أخرى على قدمه، فسقط وهو يحيطها ويمنعها من السقوط والرحيل. فار دم احمر كعمود من النار من صدره، ركع ووضعها على الارض واشار لمن حوله أن يحملوها، ببطء تهاوي على جانبها. سقط **عثمان هباش** وقد فتح القلب **لنورس** نافذته الاخيرة.

نظرت لناحيتها لأرى إذا كنت قد اصبت الهدف، كانت ترقد والدم لازال يتصبب منها على الرصيف. ينحني عليها أحد الشباب، ويتهاوى. نظرت لزميلي الذي كان اصابه في صدره، لوحت له ورفعت يدي مهنئاً. تحركت بنا السيارة بعد أن تفرق الجمع، كنا نتجه للبراري حيث هناك تجمع كبير.

رأى **داود** فوهة البندقية، ولمعة اشعة الشمس على المنظار، ورأتها **رباب،** وهي تدور نصف دائرة وتمر عليهم جميعاً ثم تعود. نبهت **البير ودلدوم** لناحية الفوهة المتحركة. أعطاها **داود** المنديل وكان به خل وبيبسي لغسل آثار الغاز المتصاعد. الفوهة السوداء لاتزال تدور. عيناها تؤلمها، بها دقيق ام نويويرة، رأسها جبل حديد وعنقها ملتوي من الغاز الكريه.

سوف يتناول **داود** البمبان ببشكير مبلل يحمله معة ويعيد قذفه لناحية الشرطة المحتمية وراء دروعها. تحرك دلدوم وبيرقدار ناحيتها وسندوها، وجعلوا اجسادهم ساتراً امامها. لاحظ **بيرقدار** الفوهة المتحركة وصاح في الضجيج: **شباب الظاهر الليله حينيشونا.**

أتصلت به الصفية وهو جالس في أحد المنازل يجهش بالبكاء، امامه **خالد** وقد بدأت الدماء تجف منه. **يا والده الليله دواس والله والله علا اجيب حق اخوي خالد.** انقبض قلب الصفية، لم يطلق عليها حسب الله لقب الوالدة منذ نطق، اسمى كلتوم يمه وهي الصفية. ثقل قلبها وارتعدت. ود محمد أزرق والصفية لا تستطيع أن تمنعه من الدواس. قلبها لا يطاوع عقلها. **حبيبي ودي اخوك المستشفى.** خرج **ود مليط** لمعركته الاخيرة، تذكر محمد أزرق خائضاً كل اصناف الحروب.

ابتعدوا من الجمع ونشروا دروعهم البلاستيكية عليهم، اطلق أحدهم جوز ببمبان، اسرع بيده حاملاً بشكيراً مبللاً واعاد قذف البمبان عليهم. رأها وهي تصيب عنق أحدهم. رقص رقصة الحرب وقفز عالياً. تحولت الفوهه نحوه. جاء شباب حوله ليحموه. انحنى على أحدهم: **اخد تليفون الصفية وقلها ولدك حسب الله ود محمد أزرق كبس وعبس ومات راجل في دواس.**

في شوارع لم يتذكرها حين يسرح في خياله في بطون الخيران، الآخاديد، رمال مكسوة بحشائش مصفرة، وجبل مليط، عريض المنكبين الأجرد، إلا من شجيرات قليله الخضرة تشق طريقها وسط حجارته الصلدة. وبعض الكهوف التي تبدو كنقاط سوداء، تتابعه الفوهة وتترصده، قافزاً للاعلى وقبضته تشق المدى، تنطلق الرصاصة ويراها قادمة من شعلة النار الصغيرة ويسمع ازيزها، فيفتح صدره في تحد وصلابة.

انسحب افراد الشرطة بعيداً، اخلت عرباتهم الطريق، وضع **بيرقدار** يديه حولي واحاطني، جسده ينز عرقاً بارداً، عذباً وعبك طيوب. الغاز قد خف بفعل جرادل الماء الذي صب عليه، وبقيت العلب الفارغة. الفوهة قد اختفت، أحس انه موجود. اتصلوا به واخبروه أن هناك مجموعة كبيرة من الشباب متوجهين لنا من حلة بعيدة. بعد أن جلس قليلاً على البلاط الحار، قام واجلسني بجواره على المسطبة، كان ممسكاً بيدى.

اسمع ضربات قلبه البطيئة رغم الركض والغاز. قلت له: **بيرقدار قلبك ده مابحب، مالو بطيء.** ضحكت عيناه لي، ضحكت يداه وحتى قلبه ضحك.

جلسوا على جانبي الطريق، والشرطة قد اخلت المكان تماماً، من على البعد قال دلدوم ضاحكاً: **دي ساحه محرره.** حبيب النفس ملتصق بي، عبق طيبه يتخللني، وجسده حان عليّ، القلب يعوي والروح مثقلة وشعور بالكارثة يغمرني. شباب من احياء بعيدة قادمين للاشتراك في مظاهرة اليوم. لا شئ اليوم سوف يكسرنا، وسوف تنكسر ارادتهم على أصابعنا كفخارٍ.

حبيب القلب بجواري وأنا بكل كياني ازحف داخله لارتاح. لا ازال جائعة، مشتاقة اليه، القلب يحنو ويسافر اليه في الخيال وهو بقربي، أنفاسه تختلط بانفاسي وروحي تناجي روحه.

ظهرت طلائع الشباب، نشيطين ومتأهبين وهتافاتهم تتعالى. جاءت عربات اخرى يستقلها أشخاص في نفس الملابس المزركشة، العربات بلا لوحات. رأت **رباب** الفوهة تلتمع ويتطاير منها شرر، سمعت صوتاً مكتوماً لم يره غيرها.

لم تر **رباب** في حياتها دماً يندفع من جسد، **داود** يميل على جنبه، اسرعت اليه وحضنته وهو يسقط محاولاً منع الدم من التطاير من فتحة في صدره. تذكرت خالتو داريا، امهم الروؤم، حسناء لحد الخبل، وتضمهم بحنان دافق قادر على أن تكفيهم طول العمر. اسرعت مجموعة من الشباب حولها وحملته بعيداً عنها، وهو يلقي بتحيته الاخيرة، همس لها: **قولي لداريا اسف ما حاكمل.**

الجنود يشقون طريقهم وسطنا، تتصاعد الهتافات تتعالى حريه سلام وعداله، الثورة طريق الشعب. يحاولون الوصول لجثمان **داود،** كل روحي تتجمع في مآقي لتمنعهم من الاقتراب. ضربها أحدهم بهراوة على عنقها، فاطاح بها على الارض. وهي تسقط رأت الفوهة تدور وثم توقفت.

ران صمت داكن ثقيل عليها، اختفى كل الضجيج، لم تعد تسمع أي شيء، لكنها رأت الوهج مرة اخرى. الفوهة مصوبة ناحيتهم. مد **دلدوم** يديه ورفعها وحضنها بجسده وهو يحاول ابعادها من الطريق، سمعت ارتطام شيء في جسدة، اطلق أهة خفيضة، أه...أه...أه....أه، أحست بيديه تطلقها، وتهاوى امامها. تهاوت معه وهي تشعر بثقل شديد في اقدامها.

وهي تسقط كان **دلدوم** يسقط من بين ايديها، رفع صوته قليلاً: **ودوني لنفيسة،** ثم اغمض عينيه وكأنه راح في النوم قليلاً. أة..أة...أة **دلدوم** رفيق العمر والزمن الجميل، شجاعته الهمتها طوال حياتهما معاً. مع من ستمشي في طرقات المدينة، تحكي عن حبها **للبير،** تريه هداياه الفاخرة من ابوظبي، تتدلع عندما يشاغلها في احتضان **بيرقدار** يديها ولمسات عجلى على وجنتيها. أة..أة...أة

القلب يختنق، الروح تأن وهي ترتمي على صديقها النائم في سكون. أعطى الشمس قبلتها الاخيرة ومضى. أة..أة...أة

جسده ملتصق بي وحار، لم ار دماء وجاءتني عبك طيوبه. رفعها البير من الاسفلت وهي تتثاقل بين يديه، تتراءء لها بت الباشا وهي تنثر بينهم عناقيد الفرح، وهم يتجمعون على مائدتها العامرة دائماً. الشباب يصارعون لاقتلاع **داود** من ثلاثة حملوه وبدأوا في الابتعاد به، ظهرت مجموعة **بيرقدار** وهو يقود مجموعة اخرى. احاطوا الثلاثة، عندما رأوا تصميم الشباب اطلقوا الجثمان وفروا. اصبح **داود** في ايدينا، حملوه على عربة وإنطلق به بعضهم للمستشفى.

تحرك الموكب الحزين ببطء، عويل شباب غاضبين، ونشيج مر وأهات، سوف يستمرون في الهتاف: الشعب يريد اسقاط النظام. حملوا دلدوم الشاب النجيض على اكتافهم. **البير** يحمل **دلدوم** على كتفه الايسر ويحملني على كتفه الايمن. اجرر خطاي من وهن واعياء شديد، واحضن حبيب الروح بكلتا يداي. هجموا على الذين يحملون الجثمان وبدوا مصممين على اقتلاعه، لكن تدافع المئات لحمايته، وارجعوهم.

آلاف يسيرون على ارصفة خضعت لهم، الاسفلت يلين على وقع خطاهم، والشارع يتسع. سيارات بلا ارقام تسير من خلفهم من البعيد، عندما تلتحق مجموعة من زقاق ما وتذوب في الجمع يطلقون بعض البمبان.

من امامهم بدا صف منهم يحملون الهراوات، يحتمون بالدروع البلاستيكية التي تغطيهم، بدوا عدداً كبيراً، على اطرافهم بعض الأشخاص يحملون الكلاشنكوف، ورأت اثنان يحملان بندقية قنص فوق أحد العربات. استند على ذراع من سوف اتكيء عليه العمر كله. رات الفوهة تتوجه ناحيتها، وهي واضحة في زيها البرتقالي، اشارت للبير ناحيتهم.

واضحة في زيها البرتقالي، ركزت عليها المنظار، يا إلهي لم ير فتاة في مثل جمالها، قمحية اللون، طويلة ويحيط بوجهها المتناسق شعر كث. مثل هذه مكانها الحفلات وآلافراح وليس مع هؤلاء الصعاليك. تفرس في جسدها الجميل ملياً، صوب على رأسها.

الفوهة لازالت مصوبة عليها، لبرهة وجيزة نظرت **للبير**، رأت مستقبلها معه، يغنون لها وينشدون، كلهم في عرسها يرقصون ويحملونه ويقفذفون به لاعلى ويحتضنونه بحب. فاحت عبك الطيوب السماوية وغمرتها. حبيب العمر بجواري وانا احلم أنه في احضاني، اهدئه، اربت على راسه ويحملني في الأحساس بعيداً.

راى **بيرقدار** وهج النار متوجِهَاً نحوي، نظر لي بعذوبه وشوق، وقفز من على بعد وهو يجذبني بقوة المتني، نحو صدره ويغطى راسي بيديه. عندما احتضنني نسيت العالم حولي وهويت عليه. سوف اغرق في كيانه واستحم من إنهاك احاط بي. وهو يسقط جذبني نحوه برقة وحنية، وأوصلني للاسفلت الحار بعناية. سوف يبتسم لي، ويمسك يدي ويضغطها بقوة، سوف يقربني منه ويهمس: **أنا مشتاق ليكي**. بدأ ضغطه يتلاشى حتى افلتني.

رأت رباب برعب الدماء تتفجر على صدره، وتندلق عليها في موجات، اعتقدت أنها اصيبت،

لكن لم تحس سوى جسد **البير** ملتصقاً بها إه...إه...إه، رائحة دمه عبك الطيب. لوهلة اعتقدت أه...أه.... رمى بيرقدار بتلك المسكة الحانية والابتسامة الوديعة وداعه الاخير في حياتها أه...أه...أه. وجدت نفسها وهي تستلقي امامه. أه....أه.....أه...أه....أه.....أه...أه....أه.....أه...أه...أه.

امدرمان: **انتهت يوم** 22 **سبتمبر** 2016